



زكريا عبد الحوادر

قُبْعَةُ الْوَطَنِ

رواية



قُبْعَةُ الْوَطَن

رواية

زكريا عبد الجواد

• كاتب من مصر

حين انطلق قاطعاً الممر الطويل، كان هناك ما يدور في ذهنه.

فكرة طارئة، أو نزوة مجنونة.

لم يكن ثمة أحد، ولا حتى كاتم أسرارهِ، ليستطيع اختراق الحجب، كي يدرك السبب الذي يدعو رجلاً له تلك المهابة، كي ينهض من دفاء سريره، ويتمشى في حديقته الرئاسية.

لكن، ما أن حطَّ زعيم الأمة قدميه، حتى أحاطته من بعيد، عيون حراسه الخصوصيين...

ورفرفت حوله أفئدة شعب لاتنبض إلا إذا سمح لها بالوجيب.

راح يسير بين أشجار تتمايل أغصانها لتحيتته، وعصافير استفاقت للتو على وقع خطواته، فانتفضت من رقدتها لتغرد.

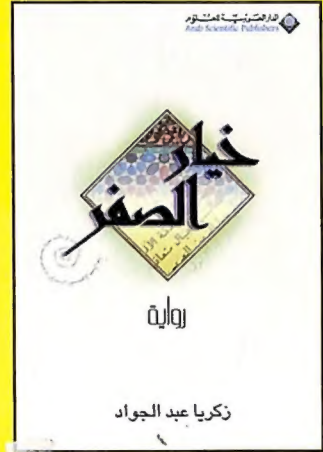
أدرك أن شعباً كهذا، لا يمكن الاعتماد عليه في تحقيق طموحاته، تلك التي لاتستوعبها مساحة البلاد، ولا تقف أمامها حدود المنطقة، ولا يقدر على إنجازها ببشر افترستهم الاستكانة وفقدان الهمة.

خلَّص في النهاية إلى استنتاج مثّل له لحظة فارقة:

«هؤلاء قاصرون، أشبه بأطفال لفظتهم بطون أمهاتهم، قبل اكتمال النمو.

هؤلاء الذين ابتليت بحكمهم، مجرد شعب من الخُدَج ... نواتج لولادات مبتسرة».

• صدر للمؤلف أيضاً



ISBN 978-9953-87-255-1



9 789953 872551



دارالعلوم العربية للعلوم ناشرون

Arab Scientific Publishers, Inc.

www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

www.neelwafurat.com

نيل وفرات.كوم

جميع كتبنا متوفرة
على شبكة الإنترنت

قُبَّةُ الْوَطَنِ



قُبْعَةُ الْوَطَنِ

رواية

زكريا عبد الجواد



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. س.ل

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

الطبعة الأولى

1429 هـ - 2008 م

ردمك 978-9953-87-255-1

جميع الحقوق محفوظة للناشر



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. س.م.ل

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (+961-1)

ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان

فاكس: 786230 (+961-1) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون س.م.ل

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

الفصل الأول

(1)

حين انطلق قاطعاً الممر الطويل، كان هناك ما يدور في ذهنه.

فكرة طارئة، أو نزوة مجنونة.

لم يكن هناك من أحد، ولا حتى كاتم أسرار، ليستطيع اختراق الحجب، كي يدرك السبب الذي يدعو رجلاً له تلك المهابة، أن ينهض من دفاء سريره، ويتمشى في حديقته الرئاسية.

لكن، ما أن حطّ زعيم الأمة قدميه، حتى أحاطته من بعيد، عيون حراسه الخصوصيين...

ورفرت حوله أفئدة شعب لا تنبض إلا إذا أذن لها.

راح يسير بين أشجار تمايل أغصانها لتحيته، وعصافير استفاقت للتو على وقع خطواته، فانتفضت من رقدتها، لتغرد.

وطن بأكمله، بكل فئاته، بقواه العاملة وأجنته التي في الأرحام، لا حديث لمن فيه إلا عنه، لا أحلام تدور إلا في فلكه، ولا أمنيات إلا بنيل الرضا منه.

ظلّ أياماً يحتلي بنفسه، يبحث عن طريقة للتعامل مع شعب مضجر، كالذي ابتلي به. جرّب دون جدوى طرقاً كثيرة، ليضخ في عروقه الحمية، أصدر قرارات قاسية، وقف في المهرجانات ووجه خطباً مهينة، أطلق سخریات، دون أن يهب من بينه فرد واحد، كي يقول للمهيب، كفى.

رضاء الشعب الدائم، أدخل في نفسه مللاً، إذ وجد مواطنيه في كل الأحوال يستبدلون مشاعر السخط بالفرح، الثورة بالإعجاب، والاعتراض بقبول الأمر الواقع، وتوجيه الأكف امتناناً لأقدار وضعت في طريقهم ملهماً، لا ينطق إلا شعراً ولا تفيض منه إلا الدرر.

كانوا في كل مرة يستغفرون من خطاياهم، يطلبون العفو إن حدث وراودت أنفسهم الأمانة بالسوء، بعض الظنون في مغزى شتائم يصبها عليهم.

كان شعباً قانعاً في كل الأحوال، يمتلك هدوءاً لا تأتي من بعده عاصفة، فلا القنوط يجبي، ولا النوايا تبزغ.

وعلى عكس الحكام الذين يواصلون الصلوات إن وجدوا وقتاً، ويدعون فيها بالهداية للشعوب، كان اليأس من سكينة مبالغ فيها، قد دامه، سأم من شعب يصحو ليسبح بأجماده، وينام على الدعاء له بطول العمر، يتنافس في التناسل، كي تحظى الأجيال الواعدة، ببعض مواهب القائد الدائم، دوام الأنفاس في الصدور.

الزعيم المهيب، قائد الوطن ووالد الشعب، ملحم الأنفاس، وحاصي أعدادها، عارف النوايا حتى من قبل أن تمر في الأذهان، وزوج السيدة الحنون أم الفقراء، بحجة المساكين، وسيدة البلاد والعباد، العطوف الرؤوم، التي تطلع الشمس لا بتسامتها، ويطل القمر ليسطع على وجه زوجها، ظل مشغولاً بالبحث عن حل لمشكلة باتت تؤرقه، بعد ما أدرك أنه لم يعد يحكم شعباً حياً كشعوب الأرض، تلك التي ترضى قليلاً وتتبرم، تغضب أحياناً وتتحرك، تصرخ، تناقش، ترفض، تعترض، أو تمتعض.

كان الرجل الغد، الأشبه ببلدورز، عنيفاً، وهم بجميع طبقاتهم راضون، يحمدون له ما يفعل، وتسير حياتهم في الصباح والمساء

رتيبة، إلى حد أنه أصبح على قناعة في نهاية الأمر من أن هؤلاء الذين يحكمهم أقرب إلى أموات، وإن كانوا يسرون على الأرض، ويهتفون.

انطلق يذرع حديقة القصر الرئاسي، رائحاً غادياً، ينقب في مخيخه المحاط بجدران حماية عالية - عن فكرة مبتكرة تصلح للتعامل مع هكذا شعب.

لم يتوقف عن المشي، مشغولاً عن الدنيا ومن فيها، إلا عندما لاحت في ذهنه. عندئذ توقف، فأنحبت أنفاس الكائنات المحيطة، الحرس المدججين بعيون زجاجية، والطيور التي اختبأت في أعشاشها، والجرذان المنتظرة لحظة مغادرته لتخرج من قلقها... كل ما حوله بات مسكوناً برعب.

كانت الفكرة بسيطة، لم يفعلها حاكم، ولم تشر بها في أي يوم كتائب المستشارين على زعماء من أمثاله تقول وسائل الإعلام انهم ولدوا هكذا... ملهمين.

وحده جاءت إليه، عندما راح يتذكر مواقف حدثت منذ توليه حكم البلاد، استعرض القرارات التي اتخذها، الخطب التي ألقاها، المواقف التي خرج فيها عن النص، استذكر ردود أفعال الشعب، المسيرات التي اندلعت لأجله، صورته المعلقة في المنازل والميادين، يستبشرون برؤية بجائها في الصباح وتنير لهم فضاء الليالي في أشد أوقاتها عتمة، بمجسماته التي تكاثرت حتى تجاوزت تعداد الشعب، بالأغاني التي تفرغ مؤلفوا الوطن لكتابتها، وعددوا فيها خصاله وجماله، وحنان قلبه المفرط.

أدرك أن شعباً كهذا، لا يمكن الاعتماد عليه في تحقيق طموحاته، تلك التي لا تستوعبها مساحة البلاد، ولا تقف أمامها

حدود المنطقة، ولا يقدر على إنجازها يبشر افترستهم الاستكانة وفقدان الهمة.

خلص في النهاية إلى استنتاج مثل له لحظة فارقة:
هؤلاء قاصرون، أشبه بأطفال لفظتهم بطون أمهاتهم، قبل اكتمال النمو.

أقنع نفسه، بأن من يحكمهم بحاجة إلى إطار كالرحم، حتى تمر الأوقات الحرجة بسلام.

دار كثيراً في حديقته الفسيحة، تطلّع إلى السماء مراراً، شدّ أنفاساً من سيجاره، نفث دخانه، فتنشقه الأشجار بامتنان، نطق فجأة، فاصطكت أسنان كائناته، واصطدمت سحائب عابرة، وارتعدت الفرائص:

- "الخدج".

توقف عندها ملياً، قبل أن يعاود التردد:
- هؤلاء الذين ابتليت بحكمهم، مجرد شعب من الخدج...
نواتج لولادات مبسترة.

(2)

مرسوم رئاسي، وشعارات محفزة، انطلق المنتمون إلى فئات الشعب في مهمة قومية، راحوا يواصلون الليل بالنهار، خوفاً أو طمعاً، لتحقيق رغبة قائد المسيرة، ودون أن ينبس أي منهم ببيت شفة، تحسباً من أن تلتقط خيوط الفكرة العبقريّة، تحوّل الوطن إلى ورشة ضخمة، راحت تواصل عملها في صمت، أخذ الحفّارون يغرسون آلاهم في بطن الوطن يخرجون من أحشائه أحجاراً ورمالاً، تحقيقاً لرغبة الملهم في تحقيق الاكتفاء الذاتي وعدم استيراد أي مادة

للبناء من الخارج، فمن الذي يضمن عدم انكشاف السر، لهؤلاء الفضوليين الذين تذخر بهم الدول الشقيقة والصديقة، الذين لا يتورعون عن دس أنوفهم، ومط آذانهم، لالتقاط أي معلومة عن الأفكار الخارقة التي تطرأ بين الحين والآخر في الذهن الخصب.

راحوا يجمعون المواد اللازمة لبناء الحضانة، وبعد الانتهاء من تصميم الشكل النهائي، بدأت المرحلة التالية، الانتقال إلى حدود الوطن، وانطلاق ساعة إنجاز المهمة في أسرع وقت، في هذه المرحلة لا بد من اتخاذ الاحتياطات، فمن غير المستبعد أن يحدث ما يخشى منه، فيتم إفشاء ما يخفى.

استدعى كبار مستشاريه، أمرهم بإبلاغ العمال أن يردوا على كل من يتساءل عن البناء، بكلمة واحدة: "جدار".

لم يكن مسموحاً لهم أن يزيدوا عنها، وهو ما أثار دهشة حكام دول الجوار، ورفع درجة التساؤلات لدى شعوبها، لم يكن أحد من مواطني تلك الدول، يتصور أن الزعيم يمكن أن يعزل بلده يوماً عن محيطها، بعد أن ظلت وسائل إعلامه تردد في العلن عند كل مناسبة، نفس الأقاويل المعبّبة التي ترددها وسائل إعلام دولهم، عن صلات الدم والمصير، فيما في السر، كان رفقاء المصير المشترك والدم الواحد، يواصلون مساعيهم للحصول على قروض دولية وضمانات، لسلاح لا بد من تكديسه، تحسباً للأطماع الشقيقة.

تواصل البناء، تجاوز الأمر حدود الأساس، أخذ الجدار يرتفع، رآه الجميع وهو يلتف حول الوطن من جميع الجهات، لاحظ الجيران وجود حشد هائل من العمال، يقطعون الليل بالنهار، نشاط لم يعهدوه من قبل، أخذت الهواجس تتحرك في أقباص الصدور، فخرج الهمس وكثرت التساؤلات، ما دعا حكام الدول الشقيقة إلى

الاتصال بالزعيم، لمعرفة الحقيقة، ما الذي يدعوه لإقامة سور هائل مع بلدانهم، في وقت يعزفون هم فيه أناشيد الأخوة والوحدة والمصير المشترك؟ تساءلوا كلهم وكأنهم على اتفاق، ما الذي يمكن أن يبرروا به تلك الفعلة لشعوبهم، المشغولة بالحديث عن الجدار، وتبادل شائعات وحكايات متضاربة، راحت تسري مثل النار في الهشيم، حتى أن الخوف ازداد من تصدع العلاقات الوثيقة بين شعوب المنطقة، التي لم تشهد أصلاً في أي يوم من الأيام وثاماً، وإن أفلحت الجهود التي تجرى سرّاً في إظهارها للعالم الخارجي سناً وعسل.

(3)

ظل متمسكاً بمراوغاته، فلا إجابة شافية قدّمها، ولا تطمينات لمخاوف أخذت تسري لديهم، تحذّر من أن يكون في الأمر نوايا غدر، أن قام بتحسين نفسه وتركهم في صقيع العراء.

قال إن الأمر لا يتعدى بناء جدار في المرحلة الأولى، على أن يتم في مرحلة لاحقة عمل فتحات في جنبات، سوف تكون كافية، لتمد الشعوب الشقيقة أياديها عبرها، وتصافح أبناء وطنه.

سادت الشكوك لدى الحكومات المجاورة، تنادي قادتها الذين تشرفت بحملهم يوماً ظهور الدبابات، إلى اجتماع قمة للندارس، واتخاذ خطوات مشتركة تكون بمستوى التحدي.

قرروا بعد جلسات سرية وعلنية، ومشاورات مكثفة ومباحثات عميقة، تدارسوا خلالها التطورات الجارية، من جميع جوانبها، أن لا يقوموا بأي خطوة قد تستعدي البلدوزر البشري عليهم، وأن تدور مشاوراتهم حول هذا الأمر الجلل في تكتم، يتم بعدها اتخاذ القرارات المناسبة التي هي في العادة، تصب في صالح البلاد والعباد، وتمتد

لتفرش غطاءها حتى على ما سيأتي من أجيال.

وفيما هم يقطعون الوقت في التباحث وتبادل الأنخاب، كان هو مشغول بأمور أهم، إذ راح يواصل طريقه المعتاد، يصحو من نومه في أي لحظة ملهمة، يهب قافزاً من سريره الوثير، يتجه إلى الحديقة، تحوطه عيون العسس، وتطير حواليه، كما في كل مرة، قلوب أبناء شعبه خفاقة، يظل يسير، راثحاً وراجعاً، فيما الفراشات، ترفرف بأجنحتها الشفيفة، تلقي على وجنتيه نسيمات حانية، لتساعده على التفكير بعمق، لأجل الأمة الصامدة، ذات الحضارة الخالدة.

كانت تلك عاداته اليومية، فكلما طرأت على ذهنه النظر فكرة ما، قام على الفور، مهما كانت أحوال المناخ، إلى الحديقة، مكان إلهامه في لحظات مصرية شهدتها جمهوريته الملكية، منذ أن طلع السعد على جبينها... فأشرق به.

(4)

واصل تنفيذ خطته، غير آبه بأراء الآخرين، ولا بأية مخاوف تساورهم، كان يعلم أن من حوله من قادة الدول المجاورة يضمرون له الكراهية، يحسدونه على شعبه الوديع، على استمتاعه بالسخرية من مواطنيه دون خشية احتجاج.

يدرك أنهم تمنوا لو كانت لديهم شعوب شبيهة بالماء حيث لا لون ولا رائحة، غير أنه أيضاً كان يراهن في علاقاته مع الجيران، على الزمن، متيقناً من أنه سيتكفل بطي صفحة شكوك انتابتهم تجاه الجدار، لم يكن لديه النية لشرح الأمر لهم، لطمأنة مخاوفهم، قبل أن يرى بأم عينيه جميع أبناء الشعب يعيشون معاً داخل تلك البوتقة هائلة الاتساع، المسقوفة بقبة تغطي رأس البلاد من جميع الجوانب،

وهي تحجب الهواء والشمس والقمر عن رعاياه، وقبل أن يشاهددهم بأعينيه وهم يستمتعون بالهواء المعقم، والأكل الخالي من "الكوليسترول"، ويستسلمون لهدهدة ما قبل النوم.

ظل وهو يقطع أركان الحديقة بحثاً عن لحظة إلهام عبقرية، يؤكد لنفسه أن الحضانة عمل جليل، يصب في النهاية في صالح الهدف القومي، ويتسق مع متطلبات الاستراتيجية العامة، بل إنه أحد الركائز الهامة فيها، فأى إصلاح للشعب، لن يتأتى بغير تقويمه، رعايته من الألف إلى الياء، إعادة تأهيله، ببعض خصال الشعوب الأخرى ومن بينها التبرم.

لم يقطع عليه خلوته إلا مستشاره، ذلك الصديق الأقرب، هذه المرة دعاه لسمع تقريراً عن ردود الفعل، أثاره ما أبلغ إليه من انزعاج الدول المحيطة والاجتماع الذي عقدوه على عجل للتشاور.

علا صوت الزعيم معلقاً:

- ليجتمعوا ما شاءوا، فلا تراجع، لقد ظل الأمر هاجساً لي، بعد أن مرت شهور العسل الرئاسية، استهلك مني وقتاً وأنا أسأل نفسي عما يمكن عمله، ألا تدرك أن التفكير في ذلك بدأ منذ الأطاحة بالحاكم السابق، - ذلك الرجل النائم، الأشبه بمن كان يحكمهم؟

منذ ذلك الوقت، وبعد أن وجد نفسه قد أنهى الأمر خلال ساعة واحدة، ودون حاجة إلى خطة عبقرية، ولا رصاصة رحمة، أدرك أن هناك ما يمكن تحقيقه بيسر، فلماذا يتوقف عند الحد الأصغر، إذا كان بالإمكان رفع سقف المطامح؟

غير أنه في أعقاب ذلك، وجد الشعب الذي كان قبل يوم

واحد يحتشد في الميادين، يقيم مهرجانات الاحتفاء بالحاكم السابق، يتدفق هذه المرة أيضاً، ويغطي الميادين ذاتها والشوارع المتفرعة، ليهتف بحياة القائد الجديد، منقذ البلاد وحامي الحمى ومعشوق العباد، وواهب الهواء للرئتين.

أدرك منذ تلك اللحظة، أنه أمام حالة يعرفها، وأن لم يخطر بباله قدرتها على استبدال الجلود، غير أنه تماشى مع الأمر، فهو في النهاية حاكم، له القيادة، ولهم המתاف ليلاً ونهاراً، والخروج إلى الشوارع، مدججين بالرايات والصور. هو الرمز وهم من يجب عليهم الاجتهاد لإقامة النصب التذكارية والتماثيل، والكتابة في الصحف عن سجاياه البديعة، والإيمان الصادق بأنه لم يكن للبلاد من قبله ذكر، ولن يكون لها من بعده حياة.

وعلى الرغم من ولعه في البداية بالهتافات، وسعاداته بقيادة شعب مستكين، مسالم، بارع في التكيف، يتفوق على أقرانه من الشعوب الأخرى، في القدرة على طلاء الروح والنوايا وفق أهواء من يحكم، رغم ذلك فإن الزعيم بمرور الأيام فالسنوات، أصابته حالة اشمزاز، نبتت من اعتقاد بأن قدراته ستكون في أعظم حالاتها، إذا كان هناك من يعارض، من يستاء، من يكتب رأياً ليس ينسجم مع توجهاته، فيتاح له استخدام الأدوات التي يمتلكها، ليتلذذ بالقمع والتنكيل والالقاء في السجن، أليست هذه أهداف جلييلة؟ أليس يفترض به تحريك قوات الأمن لمثل هذه المهام الكبرى، ما دامت دول الجوار لا تملك الجرأة على استفزاز بلاده أو الدخول معها في حرب، إذن؟ ما الذي يجب على الحاكم في هذه الحال، غير اختراع ما يشغل جيش قام بصرف الملايين على

تسليحه؟ عليه أن يستخدمه في قمع مظاهرة، اعتقال طلاب، أو منع اجتماع نقابي، غير أن الشعب البليد لا يريد إعطائه فرصة، وهو ما دفعه إلى إطلاق السباب، للسخرية منه، دون أن يجد صدى.

منع التجمعات والندوات، أغلق الأحزاب، أوقف الصحف، اعتقل الطلاب دون سبب، عسى أن يخرج من الجامعة من ينتصر لزملائه، أعاد الصحف من جديد، غير أنها عادت لتسبح بعطاياه، تشيد بمناقبه، أدرك أنه لا فائدة مع هؤلاء، لا القمع يجدي ولا التجاهل، بات المتاح أمامه هو القبول بحقيقة كونه أصبح مجرد حاكم، لشعب خامل، نائم وكسول، لا إحساس لديه ولا نخوة، وهو ما لم يكن ليتلاءم لا مع مواصفاته الشخصية، وطبيعة تكوينه، ولا أحلامه، والظنون التي كانت داعبته حين فكر في الانقلاب على الحاكم السابق، كان لديه اعتقاد بأن الصعود إلى حكم ذلك البلد خطوة أولى سوف ينتقل بعدها لتحقيق أحلامه، كان أوهم نفسه بأن حجمه أكبر من رداء الوطن، وأن قدراته الذهنية أضخم من أن تستوعبها بقعة ضئيلة أُلقيت بإهمال فوق رقعة العالم.

عند هذه النقطة، أدرك أنه لا بد من إعادة تقويم الشعب، صياغته على مقاس الحاكم، قرر البدء في عملية عاجلة، مهمة وطنية لإعادة تربية الشعب، وتعديل سلوكه، كي يستطيع الاستفادة منه في النهاية في تحقيق طموحاته، واكتساح البر والبحر، وامتلاك ما تستطيع النفس اشتهاه، وما يمكن للأحلام أن تبلغه.

(5)

بناء الحضانة مثل الخطوة الأولى في طريق قرر السير فيه لتحقيق الهدف، خلالها سيكون عليه طمأنة الجيران، وإزالة الشكوك التي أخذت تساورهم، اختار أن يرسل مبعوثاً لتبديد مخاوف راحت نتاجهم، أمره بعدم كشف سر الجدار، أن يقول كلمات مراوغة لا يستطيعون منها استشفاف النوايا.

وفي وقت راح فيه رسوله ينتقل من دولة إلى أخرى، كان الزعيم يشرف بنفسه على عمليات البناء، ساعياً إلى تسريعها بأقصى ما يقدر عليه العمال، يتابع في كل وقت المراحل التي أنجزت، انطلق في سباق حقيقي مع الزمن، فأني تأخير لن يصب في مصلحة نجاح العملية الفريدة، ويمكن المتطفلين من هتك أسرارها وخدش قشرتها.

راح حاكم كل دولة من الدول المجاورة يطرح التساؤلات، عن الأسباب، والتوقيت، والسر وراء إقامة السور العازل، وما إذا كانت تلك الخطوة مقدّمة لمقاطعة شاملة مع دول الجوار، فيما كان المبعوث يدير اسطوانة الردود التي سبق أن مجها في كل بلد زاره، غير أنه في آخر دولة حط رحاله فيها، جوبه بسؤال لم يكن قد استعد له، ولم يخطر على بال حكماء المستشارين ورجال الزعيم.

انطلق السؤال من رئيس أصغر الدول المجاورة مساحة وسكاناً، إذ تساءل عن السبب الذي دفع بلاده إلى هدم كل بناية تزيد عن طابقين، في وقت يواصل فيه الجدار ارتفاعه.

المبعوث كان يدرك أن السلطات شرعت بأمر رئاسي في قطع رؤوس البنايات حاسمة للبنايات العالية، حتى أن أعظمها في نهاية الأمر

لم يتناول سموفاً لأكثر من عشرة أمتار، فالمخطط الذي وضعه العبقري، لم يكن من الجائز لأحد أن يعيق تنفيذه، ولو تطلب الأمر إجراءات أشد قسوة مما يتوقع الممتلكون، لأحد كان مسموحاً له في أي لحظة بالتفكير في الخروج عن السياق، في التسبب بتعطيل مشروع يعتبره الملهم أهم الانجازات الرئاسية، والأثر الذي سوف يتركه بعد عمر طويل للشعب البليد.

عشرة أمتار فقط هي أكبر الارتفاعات المسموح بها في حمى هذا الوطن، أما الحضانة فتعلو حتى خمسة عشر، على أن تكون الفراغات فيها جاهزة لأية إشارة منه، وهو وحده، من سيحدد طريقة استغلالها.

أخذ الجدار يرتفع، وراحت العمائر تنهاوى، كل ما خطط له مضى متزامناً، يد تبني ويد تحمل معول الهدم، والجميع على درب الوطن، ولأجل عيون الشعب، وإرضاء المفدى، ويوماً بعد يوم أخذ ضوء الشمس يتضاءل، في البداية راح ضوء الصباح يتراجع عن مواعده، إذ يصطدم في بداياته الباكرة بالجدار، ومن وقت لآخر، اعتاد السكان على بدء يومهم متأخراً عن السابق، حتى انتهى الأمر بهم بعد وقت، إلى الاستمتاع بلذة النوم لفترات أطول، وإلى اعتبار أن ذلك التغيير، هو إحدى إنجازات الرجل الذي يفكر في كل ما يجلب الراحة إلى رعاياه.

انطلق الشعب ينعم بعطايا الحاكم، وعلى الرغم من أن مواعيد الصلوات تغيرت بفعل الشمس، فإن المواعيد البديلة كانت تشهد في عمومها وقتاً إضافياً يخصص في العادة للدعاء للمحبوب، بطول العمر ودوام العافية، وأن يظل عهده مديداً يتمتع به الوطن أكثر، ولا يحرم من طلعة الإشراق.

اعتاد الشعب على التغيرات الجديدة، حتى أن النهار لم يعد يصل إلا في فترة الزوال، يطل عليهم فجأة من الأعالي، إذ تنتصب الشمس في منتصف السماء، تلقي إليهم بخيوط ضوئها حيناً وبحمم اللهب الحارق من بعد، ثم تلملم أشعتها وتغادر المشهد، تنزوي في ركنها، وتنام.

لم يكن ذلك ليسبب أي حزن للشعب الطيب، فهكذا أراد الملهم، ولعل في إرادته حكمة يعلمها، لا يدرك كنهها أي من أفراد الشعب، غير أنه وحده كان سعيداً بالتطورات التي تجري أمام عينيه، فكلما غابت الشمس، وتأخر حضورها، كان يعني بالنسبة له، أن مشروعه الفريد، يسير في طريقه، يقترب من يوم إلى آخر نحو لحظة التحقق.

أدرك عندئذ أن الخطوة المنتظرة، سوف تكون في الغطاء الذي بعد أن يتم تركيبه ستنغلق دولته تماماً، ذلك الغطاء الذي نبعت فكرته داخل يافوخه الأملعي، وشارك في تجسيده على أرض الواقع، إنطلاقاً من توجيهاته السديدة، جيش من المهندسين والكيميائيين ورجال الصناعة، ورصدت له اعتمادات خاصة في موازنة الدولة.

هنا كان على الزعيم أن يشعر ببعض الاطمئنان انتظاراً لا اكتمال الحدث الأهم، ذلك المتمثل في وضع الغطاء المقعر فوق هامة البلاد، إغلاقها تماماً، وإبعاد الوطن المحروس، عن الهواء القادم من العالم الخارجي، لم يتبق إلا عدة أيام بعدها سيكون من السهل عليه أن يمسك بمفتاح الوطن، يمنع أي كائن يدب فيه، من البشر والزواحف، إلى الفراشات وجيوب اللقاح، من أن تدخل أو تخرج من حياض الحمى، إلا إذا سمح لها أولاً، أليس هو الحاكم المتحكم المانع المانع

الرافض، المنعم والمقتّر، من فعل مثل تلك الفعلة قبله، بل أصلاً من فكر فيها، ومن مرت يوماً على مخيلته، غيره هو؟

ازداد تيتهاً، داخله شعور بأنه اقترب كثيراً من الإمساك بأنفاس المواطنين، سوف تتيح له هذه الحضانة إمكانية إحصاء الشهيقي المتسلل إليها وما تنفثه زفيراً، أو شخيراً، أو آهة أسي.

سوف يتحكم في الجرعات الممنوحة لرنات أبناء الشعب، وفي الحدود المقتنة لمعاشرة الأزواج، وتحديد من سوف يكون عليهن الانجذاب، ومن سيمنعن، أعداد الأطفال، أنواعهم، جنسهم، والأمراض التي ستركها تعبت بأجساد من سوف يفكر ولو لمرة واحدة في الانقلاب عليه.

بدأ يعد نفسه للتطور الهائل الذي اقتربت ساعة صفه، غير أنه في تلك الأيام راحت تداهمه أحلام اليقظة وهو يسير في جنبات حديقته الرئاسية، ورشة كاملة دبت في رأسه، نقلته من حلم إلى آخر، وراحت تتقافز، اشتعل الرأس هوساً، بانتظار القادم الذي اعتبره حالة خاصة، لم يسبقه إليها أحد، ولا يمكن أن تصدر إلا عن عقل شديد اليقظة، باذخ العبقرية كالذي لديه.

بينه وبين نفسه، راح يصب لعناته على الذين ألقى الحظ العاثر بهم في طريقه، هؤلاء البلداء، غير القادرين على التجاوب مع أفكاره العبقرية، ماذا لو كان له شعب آخر؟ ألم يكن بإمكانه التحكم في هذا العالم؟ تسييره وفق ما يهوى؟

راح يتصور، لو أن هذا العقل اللامع، تزامن مع شعب لم تصبه لعنة الخمول والنفاق وتبويس اللحى؟ لو كان لديه أصحاب عقول يقظة؟ لو لديه بشر يمتلكون الحد الأدنى من الطموح، يناقشون، يقيمون، يعترضون قليلاً، كقليل الملح الذي لا يفسد طعاماً، لو كان

لديه من له بعض تلك الصفات، لامتلك الدنيا، وسيطر على الأرجاء، بحار العالم ومحيطاته، أسماكه ونسوره، أفياله، غاباته وصحراواته، السحب التي تروح بيضاء أو داكنة إلى مستقرها، والرياح.

(6)

فجأة وجد نفسه في عمق أحلام هائلة، اشتط به الخيال وازداد ولعاً بالقادم، أكد لنفسه ليقفل من حجم الحسرة التي يشعرها، قدر الاحتقار لهؤلاء الذين فرضهم القدر عليه، فثورته المباركة كانت تمهد إلى إبعاد الحاكم الأسبق عن الحكم، تلقينه درساً، بعد أن امتلأت شوارع البلاد بتمائيله وصوره، بعد أن راح الشعب يسبح بسجايه منذ بداية الصباح، كانت الإشادة به عملاً وطنياً، على الجميع تأديتها كواجب أخلاقي، وكان ذلك ما يثيره شخصياً، يجلب الغيظ إلى نفسه، إذ كان مطلوباً منه أن يقوم بمثل ما يقومون به، كان المناخ العام يفرض عليه ذلك، وإلا سيعتبرونه صوتاً نشازاً، شخصاً ستلاحقه نظرات الازدراء، ربما تصل الأمور إلى حد اتهامه بالإلحاد، أو يتم التشكيك في سلامة قواه العقلية، لو أنه فكر يوماً في النكوص عن أداء واجباته تجاه القائد الأكبر.

الأمر لم يفرض على الشعب، فقط انبرى اناس يوجد أشباههم في مختلف الأزمنة، بالغوا في مديح الحكام، مد الأجساد أبسطة لهم، هؤلاء في النهاية، ودون أن ييدي القائد الأكبر أي معارضة، حولوا النفاق من شعارات تقال هنا وهناك، إلى واجب تحمته الأعراف، وسلوك يحدد درجة الوطنية، ووسيلة ضرورية للعيش في هدوء داخل حدود الوطن المعطاء وفي كنف قائده.

ومع أنه كان يدرك تلك الحقيقة، إلا أنه في النهاية وجد نفسه يعيش حالتها، يغتشي مع الذين ارتفعت حناجرهم، يهتف مثلما يفعلون، ما أدخل في نفسه مللاً، راح يزداد احتقاناً فيما بعد، بحكم تكويسه الطاووسي، وهوسه العارم بشخصه، والنوازع التي أخذت تتسرب إلى عقله في الآونة الأخيرة، والتي راحت تحضه ليس على مجرد التوقف عند حدود الامتناع، بل تصل به في بعض الأحيان إلى ارتكاب نية التمرد، وهي التي أسرها في نفسه في البدايات الأولى، حتى انطلقت في نهاية الأمر من عقلاها، وراحت تحرضه على ترتيب أفكاره، لتصب بعد وقت، في اتجاه واحد، لم تحد عنه منذ أن دخلت في طريقه، ذلك الذي أدى به في النهاية إلى إطاحة الحاكم السابق، بانقلاب أبيض، سمي فيما بعد ثورة مباركة.

وعندما امتطى الزعيم الجديد ظهر الوطن، وبدأ يللملم تفاصيل كانت غائبة، اكتشف أنه حصد الخديعة، تورط في شعب، الذي قاد دبابته ذات صباح ليحكمه، ثم وصل إلى قناعة في النهاية، دفعته إلى التفكير في ضرورة، تعديله وفق مزاجه، ولو حتى أدى الأمر إلى إرجاع جميع المواطنين إلى بداية مرحلة الطفولة، إلى درجة أنه قام بتخيّل هؤلاء وهم يهبطون في سلام من بطون أمهاتهم، توقّف عند ذلك المشهد، فتلك هي اللحظة الوحيدة التي يستطيع فيها تعديل السلوك، وتوجيهه إلى حيث يرغب.

بدأ العمال في حذر يقومون بتركيب قبعة الوطن، كان حجمها هائلاً، احتاجت في البداية إلى سواعد عشرات الآلاف من البشر كي ترفع من فوق الأرض، المساحة التي شغلتها كان ممنوعاً الاقتراب منها، دائرة هائلة محظورة، حين ستصعد إلى الأعالي، سوف تغطّي الوطن بأكمله.

عندما انحنى العمال لرفع القبة، كادت ظهورهم تنكسر، جيء
بعدد إضافي، احتاج الأمر إلى المزيد، تم استدعاء الجميع للمساهمة في
المهمة القومية، فيما وقف الزعيم في الساعات العصية، كما اعتاد إلى
جوار شعبه يتحسس نبضه، لكن داخل سيارة شديدة الفخامة، يعكس
سطحها اللامع على الشعب حرارة شمس الصيف القاطن، مرتدياً نظارة
ذات عدسات قادرة على سبر أغوار ما تخفيه الجوانح.

أدرك من خلال جلسته المريحة، أن شعباً رخواً لن يتمكن في
النهاية، وبعد العديد من المحاولات، من رفع الغطاء الهائل، وإن أفلح
في رفع جزء منه فإن النتيجة لن تسفر إلا عن كارثة، تدمر الغطاء
وتقتل في طريقها أعداداً، لم يكن المهم من يموت، فكل الاحتمالات
قد تستدعيها الظروف الوطنية، التي عادة ما يضحى فيها بأفراد
الشعب، لا الزعماء، لكن المهم أن انكسار أي جزء من الغطاء،
سوف يعني إرجاء الساعة التي ينتظرها للوصول إلى هدفه، والانتها
من إتمام مراحل الحضارة.

عند هذه النقطة، قرر تقطيع الغطاء إلى أربعة على أن يتم رفع
كل جزء على حدة، ثم يتم فيما بعد تجميعها معاً، وتوثيق لحمه
الوطن في الأعلى.

لم يجد أمامه من طريقة غير تلك، وعلى الفور أمر شعبه
بالانفضاض، طلب ذلك من العمال والمهندسين، الحرفيين، والهاثفين
الذين أحضرهم لتحفيز المهم، ودفع الحمية إلى قلوب الخاملين.

أمر السائق، بالانطلاق إلى حديقة الرئاسة، سد الشوارع
بموكبه الضخم، هبط مباشرة إلى حيث الأشجار تبتسم لطلعته البهية،
راح يدور وحيداً هذه المرة، وبين إصبعيه يرقد السيجار الهاثاني
الفاخر، سيطر عليه التفكير في الأمر الجلل، راح يبحث عن واحدة

من الأفكار العبقريّة التي لا تحيى في العادة لغيره، طال الوقت وهو يدور في المكان، لفات بعد لفات، يمكن أن يصاب منها بدوار أي قائد آخر، فيما حراسه الكثر على البعد يشعرون بالشفقة تجاهه، ويودون كالعادة لو أن أرواحهم كانت فداء له.

لمعت عيناه فجأة، سحب نفساً عميقاً، ثم أرجعه، فانطلق دخان سيجاره من منخاريه كثيفاً، بدا هذه المرة وكأنه خارج من مدخني مطحنة غلال.

توقف قليلاً، ثم أشار بسبّابه المقوسة لأحد الأتباع، جهّز له السيارة الرئاسية، راح دون مرافقة الموكب يدور في شوارع الوطن الكبرى، ينتقل بين جنبات البلاد، يقيس بعينه المسافات ويقدر ما بينها، لم يكن في هذه الحالة في حاجة إلى مساحين ولا مهندسين، قصاصي أثر، ولا منجمين، كان يجمع كل تلك المهن في شخصه، وله من المواهب والملكات بما لا يخطر على بال بشر، أما عقله فهو الأكثر تنظيمًا، ورأيه الأكثر رجاحة، وهو الأبعد نظرًا، والأقدر على الحساب والقياس والتخطيط والموائمة، والأكثر بطبيعة الحال - من الجميع - بصيرة.

(7)

بعد الجولة التي قادته إلى جهات البلاد، بادئا من منتصفها، عاد إلى قصره، انطلق هذه المرة إلى مسبح القصر، تمدد فيه، راح يفكر في الأمر، يضع في ذهنه خطوطا عريضة، ثم ينتقل منها إلى التفاصيل، يمسك بكل جزئية، يقلبها على جانبيها، يضيف إليها ما سبق أن طرأ في ذهنه، بلورها حتى اكتمل، اتضحت الصورة في الذهن، وبقيت خطوة اعلانها للشعب، الذي يعرف مسبقاً ردود فعله، سيهبط إلى

الشوارع، يبايع ويهتف، يرفع الرايات ويطلق الشعارات، ثم يروح يتراقص، مقيماً للأفراح والليالي الملاح.

فكر هذه المرة في البرلمان، قرر أن لا يتجاهله، ما دام النواب أكثر بلادة من الشعب، وهم الذين سيوافقون على ما يريد، وفي الوقت الذي يرغب فيه.

بات مقتنعاً بضرورة تقسيم الوطن إلى أربعة، بعدد الأجزاء التي تتكون منها القبة، على أن يتولى مسؤولية كل قطعة ابناً من أبنائه، فيما سيكون هو الأب القائد والحاكم الحقيقي لجميع أجزاء البلاد في النهاية.

كانت المشكلة التي شغلته، هي أن أي من هؤلاء الأبناء، لم يفكر يوماً في إعدادده، لتولي مسؤولية الحكم، فكيف له أن يفكر في أن يكون أحدهم حاكماً على من له مثل تلك الصفات، لذلك قرر في البداية أن يقوم أولاً بتعديل سلوك شعبه، ثم يبدأ في توسيع رقعة الجغرافيا، يضم إلى الوطن المزيد، يحقق الوحدة الاندماجية، سواء بالرضاء أو الجبر، وبعد عمر طويل، يكون قد دفع الأبناء للاعتياد على ممارسة مهام السلطة، ما يمكنهم من وراثة الحكم من بعده، والحفاظ على الإمبراطورية التي لا تمر بذهنه شكوك حول تحققها يوماً.

الآن أصبح الأمر مختلفاً، منذ تلك اللحظة التي ألقى فيها بصره ثاقباً على حشد من مواطنين، يقومون بواجب رفع قبة الوطن، في تلك اللحظة بدأ مسار تفكيره يتخذ منحى آخر، وجدده رغباً في تنصيب أبنائه حكاماً على دولة قرر أن يفتتها، تماماً مثل رغيغ الخبز الساخن الذي لا بد من تقطيعه إلى أربعة أجزاء متساوية، ليأخذ كل منهم نصيباً.

الدولة التي أغلقها بإحكام، والتي كان مقرراً عزلها عن العالم، تحول مسارها في دقائق معدودة، فالأمر ليس يكلفه شيئاً، مجرد إجراءات مضمونة الحدوث، سيقوم بها الذين يطلبون له بانتشاء: خبراء دستور، رجال دين، نواب ورجال إعلام، وبعدها فإن كل شيء سيصبح وفق المراد، دون الحاجة لفرض حالة الطوارئ ورفع درجة الاستعداد في صفوف الجيش أو الشرطة.

وفي الوقت الذي راح يوزع تركة الوطن، كان رجاله يقومون بوضع التكييف القانوني للحالة الجديدة، يعدّلون نصوصاً في دستور، سبق أن أشبعوه تفكيراً ولملمة، خاطوه لمرات على مقاس الحاكم ووفق ما يهوى، هذه المرة ما الذي سيمنعهم من أن يلقوا به أرضاً، يخبطون نصوصه في عرض الحائط؟ من الذي سيقول لهم كفى؟ من سيبكي على انتهاك حرمت وطن ليس له في حضرة الزعيم حرمة؟ دستور شكلي من النوع الذي لا أحد يرجع إليه، ولا يتذكر أنه في الأصل على قيد الحياة؟ اللهم إلا في بضعة فقرات يلوكها قائد الأمة، يزيّن بها خطاباته، ليعطى انطباعاً بأنه يحكم دولة مؤسسات.

راح الرسميون الرائعون يخضون سباقاً محموماً، في فرش البسط أمام رغبات القائد، فمنهم من راح يلوي أعناق العبارات، ناحتاً معاني يؤكد بها أن هناك من النصوص ما ينطبق بمخادفيره، على معاني العدل ورقة القلب وعفة اللسان، التي يتمتع بها الزعيم، ومنهم من راح يقسم بأغلظ الإيمان أن ما تفتق عنه ذهن الملهم، فيه صلاح الدنيا والدين، وأن خير الولاة من جاء من صلب ولي الأمر، المؤمن الورع، الذي يسهر الليل على راحة رعاياه، ولا ينام إلا بعد أن يتدثر الشعب بأغطية العافية.

راح الرجال الشديديو الإيمان يكثررون من الصلوات، يطيلونها وهم يدعون للوالد يدوام العمر ومتعة الصحة، يؤكدون أن الرجل الطيب، بات متعلقاً بجمال التقوى، وإن قلبه من فرط الورع بات شفافاً، دعاؤه مستجاب، حتى بات كأن ليس بينه وبين السماء حجاب، قالوا في سكرة الاندفاع، إنه لولا الخشية من اتهامهم بالنفاق، لأعلنوا على الملأ، أن هذا الحاكم الطيب، أقرب إلى أن يكون ظلاً للمعبود، أو على أقل تقدير، وكيلاً لديه عند العباد.

انتفضوا في هبة واحدة يدعون له بالنصر المؤزر، وإن كانوا في الأساس لا يعرفون من هم الأعداء الذين يصبّون اللعنة عليهم، ويطلبون لهم عقاب الدنيا والآخرة.

تمكن الزعيم عبر خدمة الذين يحملون ألقاباً فخمة، من تكييف الإجراءات التي سيقدم عليها، وتمهيد الأرض لها، حتى ظن الناس في النهاية، أن مباركتها شرط أساسي للإيمان الصادق، بقي أمامه رجال الإعلام، أمرهم بنقل رغباته، بطريقة تبدو وكأنها من ضرورات الصالح العام للبلاد والعباد، وهو ما كانوا جاهزين له، حتى من قبل أن يرفع الملهم سبابه المقوسة، ويأمرهم بتدشين حملة لحوح، تقتطف من كلام مدغدغي المشاعر ما يساعد على فرش الأرضية بالكلمات المنمقة والشعارات الرنانة، حشو معدة الشعب بالعبارات الضخمة، إتيان بطونهم بالكلام، على أن يأتي فنانون أثبتوا قدرة على التأقلم، مع كل مناسبة، و"يطبخون" الأغاني بما يتواكب مع رغبات الورع التقى، والمؤمن الحنون.

امتألت حياض الوطن بكلمات تهتف، وأخرى تشيد، تقاطعت العبارات مع الأغنيات الصادحة، تسلفت إلى البيوت، اقتحمت لحظات الطعام والنوم والمداعبة، امتزجت بالهواء الداخل إلى الأقفاس

الصدرية والمطرود منها، رددته الرضع حتى من قبل أن يفهموه، أنطقهم الهوس الذي أصبح عليه الآباء، وهم يعيدون ترداده ويتنافسون في درجة الحفظ.

بات السباق على أشده بين سكان البلد المعطاء: فالمواطن الصالح لديه القدرة على ترديد الشعارات، والإخلاص للوطن يقاس بتوقير أفعال الزعيم، والطامح إلى المناصب، لا بد له من حفظ الأغاني، رغم أنها باتت أكثر عدداً من الجماهير.

(8)

تحوّل الوطن بأكمله إلى جوقه تفتف للزعيم، تبايعه، تحب الحياة له ولأنجاله، حتى من قبل أن يصدر هو قراره التاريخي بتولي الأطفال مقاليد الحكم، لم يكن هناك موانع، بعدما تم تعديل نص في الدستور كان في الماضي يحدد بلوغ الثلاثين لتولي الحكم، هبط المشرعون المخلصون للوطن بهذا الشرط، كي يتمكن آخر الرضع، من القبض على واحدة من الشطائر.

ليس يهم العمر في بلاد تتمتع بظلاله، هو الحامي والمشرع وصاحب الرأي الذي لا رأي بعده، ومن على هدى خطاه يسير السائرون في الوطن المعطاء، من هذه النظرية انطلق المشرعون بضمير مرتاح لتمهيد الطريق نحو الخطوة التاريخية، كي لا يشعر الملهم في أية لحظة، بما يمكن أن ينغص عليه ضميره، وهو يستعيد من ذاكرته المشقوبة أياماً، اتخذ فيها خطوات بدت كأنها لصالح البلاد، فيما كانت في حقيقتها لمصلحة العائلة.

الشعب الوفي ظل على العهد، تماماً كما هو معروف عنه، أصم وأبكم وبلا عيون، هكذا، سير حياته في جميع الأوقات، فتمكّن من

التعايش مع كل حكامه، بعضهم جاء بلا مقدمات، هابطاً بمظلة من الأعلى، وفي الصباح رأوه حاكماً، انطلقوا يرفعون الحناجر بالهتاف له وللعهد الذي سيستعيد أجداد الوطن، وبعضهم جاءوا حاكماً عبر نصائح من دول أخرى، ووفق ترتيبات إقليمية أو دولية، لم يجد الشعب أمامه إلا الانحناء للعاصفة والقبول بالأمر الواقع، ثم تعليق اللافئات، مديحاً بالعهد المجيد، ورفع الأكف تضرعاً، والدعاء بحرارة، لبديع المحيّا وجالب السعد، فيما نوع آخر من الحكام، جاء كالزعيم ومن سبقه من ثوار أفذاذ، على ظهور الدبابات، منطلقين إلى القصور الرئاسية الفخمة، قبل أن يثبوا فيما بعد عبر وسائل الإعلام الوطنية بياناً قمّ التي حملت، الرقم واحد.

ما الذي يمكن أن يفعله شعب كهذا، أمام هذه الزعامات النجيبة، سوى أن يواصل الشكر على النعماء؟ ما الذي يمكن أن يقوله بشر مثلهم، وجدوا أنفسهم أمام رياح عاتية لا تترك لهم مساحة للفهم؟ عاصفة غاشمة لدرجة أن الأشجار تنحني رعباً، حين تمر أنفاسها جوار الجذوع، هل لمثل هؤلاء البشر الخائفين، أن يفعلوا غير الانحناء للقائد، الحنون في قسوته، والعاذل في جورهِ، والمنتصر في انكساراته، والعفيف في فجوره؟

حُكّام صغار!! ليس يهم الأمر، المهم أنه هو المهيمن، هو من سوف يحكم البلاد، ومن ستتفياً بظلاله، وفي مثل تلك الحالة، كما قال حكماء النظام، فإن مسألة السن لا أهمية لها، بل وليس يهم من الذي سيكون على رأس كل شطيرة، طفلاً من إحدى زوجاته، أو من الأم الكبرى، أم المنجبات، التي كان رحمها الطاهر وعاء لمن هبطت من بطنها نجية، وثاقبة، حتى أن أمها رأت الحكمة تطل شاخصة من بين حاجبيها.

راح الزعيم بعد أن أمسكت سبابته المقوسة كافة الخيوط، يحدد الوقت الذي سوف يهل فيه وجهه البهي على شاشة التلفاز، ليقدم البشرى للشعب المتلهف، وفي الوقت نفسه يطفىء ظمأ الشعوب الجارة، الشقيقة منها والصديقة، لمعرفة الأسباب التي استدعت إغلاق حدود الوطن، ورفع جدار من الخرسانة والشكوك، بين أخوة الدم والمصير.

وفي الساعة التي حددها أطل، فكادت القلوب الهائمة، تقفز من مستقرها وتنطلق إلى حيث المحبوب، راحوا يستمعون إلى كلمات، أخذت تداعبهم لأول مرة منذ اعتلى العرش الرئاسي، بدا رقيقاً هذه المرة، شديد التظاهر باللطف، حتى أن الذين يعرفونه ويمجدون إخفاء مشاعرهم، أيقنوا أن ثمة كارثة يمد لها البساط، مجرد كلام معسول، راح الشعب ينتشي به، البعض توقع ما سيقوله حتى من قبل أن يقال، وإلا فما معنى تلك الحملة، التي غطت البلاد بصور وقصائد ومقالات، عن مناقب وعبقريّة الأبناء؟

رأى المخضرمون أن مناصب سوف تمنح لهؤلاء الصغار، لكن ما هي؟ وكيف ستم؟ وهل سيقيل الزعيم مسؤولين يشغلونها ويضع أبناءه؟ أم سوف يتدع كالعادة لهم أماكن، مثلما يفعل مع غيرهم، من حملة أحذيته المخلصين؟

أسئلة كثيرة دارت بين كبار السن، صاحبته في اللحظة نفسها، بلاهة أخذت تضرب أطناها لدى أبناء الشعب وهم يتطلعون باستحسان إلى محيّا صاحب الطلعة البهية، غير أنه لم يمر وقت كبير إلا وكان قد أعلن قراره:

"حفاظاً على "وحدة" الوطن العزيز وتماسكه الأبدي، قررنا "تقسيمه" إلى أربعة أجزاء، سوف يطلق على كل منها شطيرة،

سيكون بيد كل من أبنائنا إحداهما، فشطيرة الوطن الأولى ستكون خاضعة بأرضها وبشرها وكائناتها الطائفة والسائرة والزاحفة، نسائمتها ونباتها وترباتها، لأكبر الذكور من صلبنا، ذلك الإبن الذي ستسمعون عن نبأته وستعرفون قدراته الهائلة، على الكر والفر والخداع والمناورة، وستجربونه في أكثر من حدث، وستجدونه يسير على الخطى التي رسمناها له، والتي ستباركونها بالطبع، كما عهدناكم شعباً صالحاً وجيد الاستجابة خصوصاً في مثل هذه المواقف، وفي خضم المنعطفات التاريخية التي يمر بها هذا الوطن العزيز، وتقديراً منكم للتحديات التي تواجهها البلاد، والتي تفرض علينا الوقوف صفاً واحداً للتصدي لها، ورد الكيد إلى نحر كل من يفكر في المساس بسلامة وحيوية الوطن المعطاء.

أما شطيرة الوطن الثانية فسوف تكون من نصيب ولدنا الذي يليه، ولا يخفى عليكم أيضاً مدى إقدامه وسرعة بديته، لقد عرفتموه في مواضع كثيرة، فعلى الرغم من صغر سنه، إلا أنه سوف يأتي بأفعال لا يقدم عليها إلا من هم أكبر منه، وأني أرى فيها مؤشرات على أنه يسابق زمنه، وعندما تحين اللحظة المناسبة لتولي المسؤولية ستجدونه رجلاً مجرباً وصاحب خبرة في الحياة، أليس أفضل للحاكم أن يكون ملماً بكل شيء؟ أم أنكم تريدون حاكماً متقاعساً منزوياً، لا يعرف من أمور الحياة شيئاً؟ على أية حال، وأياً كان رأيكم، قبحتم الأمر أم رحبتم به، فإنه كما تعلمون يعود إليّ وحدي، ولست في حاجة للتشاور، فقد اخترت لكم ابناً أشبه بالحصان الجامح، لا يتوقف عن الكر ولا يعرف وجلّاً ولا تردداً، ولعل المتتمين إلى شطيرة الوطن الثانية سوف يدركون بعد وقت إنني أهديتهم ذلك الإبن لحكمهم".

عند هذه النقطة، راح الجالسون على مقاه توزعت على أرجاء الوطن بعدالة، في اطار الخطة الخمسية الأخيرة، يتميلون انتشاء، خصوصاً في الشطرين المعلن عن اسم حاكميهما المحروسين، يصفقون بشدة وهم يستمعون للأقوال الحكيمة، فيما فغر مواطنون ظلت شطائرهم على قائمة الانتظار أفواههم، انتظاراً للحكم الثمينة التي ستساقط، من فم حامي الديار.

"يا شعبي العزيز، هكذا ترون كم أنا مشفق عليكم، فلا هم لي طيلة اليوم، بل طيلة العمر، غير همومكم، أنتم الذين رهنتم لهم حياتي، ولأجلهم أسهر الليالي ليناموا في سكينه.

لم أقل لكم بعد، عن الشطيرتين المتبقيتين، إذن لأكمل، الشطيرة الثالثة من وطننا العزيز، سوف تكون أسعد حظاً من الأولى والثانية، فقد اخترت لها ابني الثالث وهو نابه ومغوار، صاحب صولات وجولات منزلية مذهلة منذ بدايات عمره المديد، ستقولون إنه صغير للغاية، ولا يصلح لتولي المسؤولية، هل قلت هذا؟ أنا واثق أنكم لن تقولوا، وحتى لو حدث، في سريرتكم أقصد، فأنا أ طرح سؤالاً، منذ متى كان صغر السن أو كبره مهماً في حكم الدول؟ هل تودون أن أقول لكم أمثلة على ذلك، إذن ارجعوا إلى التاريخ، ألم يكن هناك ملوك اعتلوا عروش بلادهم وهم ما يزالون أجنة في الأرحام؟ ألم يكن هناك تلاميذ تم استدعاؤهم على عجل، قطعوا دراساتهم وعادوا إلى بلادهم ليتولوا حكماً لم يكونوا مؤهلين له؟ ألم تغير دساتير دول في ساعات، لأجل وضع أصحاب العناية الذين لن تقوم للبلاد قائمة إن لم يكونوا حكامها؟ قد يقول بعض الخبثاء، إننا أيضاً غيرنا الدستور لأجل ذلك، لكن أنتم تعلمون، إننا فعلنا أمراً مختلفاً، فأنتم يا أبناء

شعبي الوفي من طلبتم ذلك وناشدتموني لأوافق عليه، ومن جانبي لم أفعل سوى الاستجابة، أنتم تعلمون أنني لا أتردد يوماً عن تلبية رغباتكم، وها أنا أفعل ما فيه الصالح العام مليئاً ما خرجتم لأجله في مسيراتكم الحاشدة التي طافت بأرجاء الوطن، ووصلت إلى ساحة القصر الرئاسي تناشدني التلبية.

أقول، إن سنوات العمر ليست قِصَّة، بل الانجازات هي الأهم، وأنا واثق أن أبناء الشطر الثالث، سوف يحمّدون لي الاختيار الصائب، وسيعرفون وإن بعد وقت، كم كان هذا الاختيار يراعي مصلحة أبناء هذا الشطر، وأيضاً صالح الوطن العزيز بجميع طوائفه وقواه.

أما من سوف يتولى مسؤولية الحكم في الشطيرة الرابعة من الوطن المفدى فسوف تكون إبتنا ذات الكرامات الباذخة، تلك التي أشرق نورها منذ أن كانت بذرة تتكون، فعمّ الخير على البلاد والعباد، في اللحظة التي كانت فيها على وشك الخروج إلى الدنيا، هذه الإبنة المباركة، لها إشراقات، وتحل على يديها البركة، وتنوِّس فيها من الخير مايفيض عن رقعة الوطن.

ولما كنتم يا أبناء شعبي المطيع تعرفون أن بلادنا مقدمة على تحولات لا سابق لها، سوف تعمّ الخيرات فيها على الجميع، فإنني أعتبر أن القرار الذي حددت لكم ملامحه، والذي يقسم الوطن، سوف يسري في الوقت المناسب، إنه بمثابة هدية مني لشعبي، لكن في الوقت عينه فإن هديتي الأكبر هي تطمينكم، بأن هذه الشطائر وسكانها والأبناء الذين سيحكمونها، سوف توضع تحت قيادتي، وتسير بنفس الحكمة التي جربتموها لديّ والتي تعرفونها جيداً بحكم السنوات التي ظللت فيها أسوسكم.

وهكذا أيها الشعب جيد التربة، تسلمت الوطن وهو بلد واحد، وها أنا بكل الزهو أسلمه أربعة، وبذلك نكون قد نجحنا في الخطوة الأولى لتوسيع رقعتنا ولو من الناحية المعنوية، على أن تصب القرارات اللاحقة في زيادة تحصين الوطن والشروع بالتنمية والتطور في كافة الميادين".

(9)

لم يكسد ينتهي من خطابه حتى عمّت البلاد مسيرات حاشدة، تهتف وترفع الرايات، تشيد بمناقبه، اعتبر أصحاب الحناجر المرتفعة إن الفرصة سنحت للتقرب أكثر من بطانة الزعيم، راحوا وهم يدركون أن كاميرات التلفزيون تصور، وأجهزة الأمن ترصد، يزدون من حماسة بدت مرتسمة على ملامح الوجه، مصحوبة بخيوط هابطة من عرق يبلل قمصان أبناء الوطن المخلصين، وراحت العيون من فرط التأثر تحاول الخروج من محاجرها، كان ذلك علامة لدى من قاموا بكتابة التقارير، على مدى الإخلاص الذي يتمتع به هؤلاء والذي يتوجب على الجميع الاحتذاء به.

التهتاف هو نفسه، الذي كان سينطلق، حتى لو كان في خطابه قد أعلن نقل الوطن من قارة إلى أخرى، أو قرر تمزيقه إلى ثمانية شطائر، أو حتى مائة، الحناجر كانت في عهده السعيد اعتادت التهتاف لأي شيء، والدموع المندرة كانت جاهزة أيضاً واللافتات، شعب من البشر الجاهزين لكل مناسبة ولكل قرار، بعد أن تقلص المشروع الوطني إلى مجرد نيل المغنم الصغيرة، أو اتقاء الشرور.

وفيما تواصلت الاحتفالات لأيام، داخل حدود الوطن المشطور، هدأ توجس الدول الشقيقة والصديقة، بعد أن أدركت ان

الهدف النهائي، الذي دفع الشكوك إلى شرايين زعمائها، هو شأن محلي محض، لا علاقة له بالجيران ولا يستهدف من بعيد أو قريب إنزال السوء بهم، راحوا هم أيضاً في أعقاب الخطاب التاريخي للزعيم، يتسابقون لتهنته، في البداية طلب العديد منهم السماح له بالزيارة، ثم أرسلوا برقيات التهاني بعدما أبلغوا بالاعتذار عن استقبالهم، إذ سرت لديه شكوك، أخبره حدسه اليقظ أن الهدف سيكون الاطلاع بأم العين على ما يجري في الداخل من عمليات تحول كبرى، كان يريد لها أن تسير في طريقها السري، حتى تصل الأمور إلى منتهاها.

وبعدما سوف يلقي خطاباً تاريخياً آخر، يعلن فيه الانتهاء من البناء الفريد ووضع قبعة الوطن فوقه، فقد اكتملت الاستعدادات الخاصة للحدث، فيما هو يعتبر أن ذلك، هو الإنجاز الأهم في عهده، الذي سيكتبه التاريخ باسمه، سيكون هو وحده صاحب مشروع أول حضانة وطنية في جميع العصور، وإن كانت لديه ثقة أيضاً، في أن هناك كثيرون من الحمقى، الذي لن يخلو المستقبل منهم، سوف يقومون بتقليد فكرته، من هنا كان رفضه لأي طلب من الزعماء الآخرين للحضور بحجة التهنة، على الفور شكر لهم مساعدتهم، مبرقاً باعتذاره لظروف خاصة تمر بها البلاد، وتتطلب منه المتابعة.

بعد انتهاء الاحتفالات جاء وقت الجدد، ففي اللحظة التي تم فيها مسن الانتهاء من إجراءات التنصيب لحكام الشطائر، توجه الأب إلى المكان الحدودي الفاصل، حيث تقبع القبعة بانتظار إذن منه للعمال، راح يستفحص حوافها، يأمر باختراع مواد جديدة تتكفل بإغلاقها حين تكون في أعالي فضاء الوطن، انبرى الكيميائيون في معاملهم يخلطون مواداً بمواد، يجربون أصنافاً، يمزجونها، فشلوا في عشرات

التجارب، وأفلحوا بعد وقت في اختراع المادة المناسبة لزيادة اللحمة الوطنية، وفي اليوم الذي حدده الزعيم لاستقبالهم، قدّم كبيرهم نموذجاً للمادة، أكّد لحامي البلاد أنّها قادرة ليس على ربط القبعة فقط، بل جذب البلاد المجاورة وربطها بالوطن، ثم راحت جموع الكيميائيين تهنئ من بفضل توجيهاته، ومن واقع أفكاره وإشرافه على جميع مراحل التجارب ومتابعته الدقيقة والتفصيلية، ظهرت للوجود هذه المادة التي اقترحوا أن يطلق عليها الحروف الأولى من اسمه، لتنضم هي الأخرى إلى باقي الانجازات العظيمة في عهده الميمون، والتي تؤكد على مدى التطور الذي سري في كافة الأرجاء تحت رعايته وبفضل توجيهاته.

اطمئن إلى أن كل الأمور تسير في الخط الذي رسمه لها، اجتمع برجاله، حدد معهم الخطوط العريضة التي سيسير عليها اليوم الذي سيتم فيه الاحتفال بتنصيب القبعة، راح كل منهم يضع خطط تفصيلية لما يمكن أن يساهم به من يتبعونه، احتشدت امكانيات الوطن كلها لهذا اليوم الميمون، استدعى الفنانون، الرسامون والمسرحيون والممثلون والمطربون وكتاب الأغاني والشعراء الحداثيون والتقليديون، الصحفيون في الجرائد الرسمية اليومية والعاملون في وسائل الاعلام المرئية والمسموعة، فرق السلام الوطني والهاثافون ورافعو الرايات، قرر الزعيم أن يكون هذا اليوم للتنافس بين مواطني كل شطيقة، على رفع الجزء المخصص لهم.

شهد الموعد المحدد حشداً هائلاً، كل أبناء الوطن الكبير اصطفوا في أربعة طوابير لا نهاية لها، ينتظر كل منهم نيل شرف المساهمة، قالوا إن ذلك هو ما سوف يسجله التاريخ، اعتقدوا أن ذلك سيساعد أبناءهم على نيل رضا صاحب العمر المديد.

كتب الشعراء من القصائد في هذه المناسبة الجليلة، ما كان كفيلاً بإغراق الوطن، فيما انبرى مؤلفو الأغاني يكتبون ما يخطر على بالهم من مدائح لصاحب المقام الرفيع، شهدت أجواء ما قبل الاحتفالات تنافساً محموماً بين مدبجي القصائد، المقالات، والأغاني، حتى انتهى مخزون الوطن من الأوراق، واضطر صاحب الفخامة، إلى إصدار أوامره لوزير التجارة باستيراد أكبر كمية ممكنة وعلى وجه السرعة، وأن يتم اقتسام الكميات الواردة بالتساوي بين أجنحة البلاد، ويكون التوزيع على الكتاب والشعراء ذوي القريحة المتقدة، تحت امرة أبنائه الغر الميامين.

في هذا الوقت، راح المطربون الذين راحوا يتلعون حبوباً لتقوية الحناجر، يهدرون في الميادين، وسط حشود أحاطت بقصر العائلة، تمثف وتنشد، قبل أن تنتقل فيما بعد على الأقدام إلى ساحة كبرى تنام فيها الأجزاء المتباعدة من القبعة في انتظار لحظة الالتحام.

كان يوماً مشحوناً، غير أن الأحاسيس فيه كانت تصب في اتجاه واحد، هو التأكيد على أن ما يريده الزعيم يجب إنجازه، حتى يتم تغطية الوطن والحفاظ على صحة سكانه، توحيد شطائره تحت غطاء واحد، مثلما يريد المبجل، دام للأمة ذخرا.

لم يكن أي من القوم، فيما عد النخبة، يدركون ما ينويه الزعيم، لم يكونوا أصلاً في حاجة ليدركوا المصير النهائي الذي ستؤول إليه بلدهم، ولو تم سؤال أي من أبناء الشعب السعيد، عن الهدف من وضع القبعة فوق الجدران العالية التي أحكمت حول الوطن من كافة الاتجاهات، لقال ما يردده الزعيم:

- ضمان حماية الوطن وأمنه وتطوره، ليسير في طريق التنمية والرفاه.

لا أحد، كان يتخيل أن الحضانة قادمة، وإن السجن الكبير الذي لن يستطيع أي واحد منهم اختراقه خارجاً أو داخلاً، سوف ينجز فور وضع القبة على رأس الوطن، وإن عصراً جديداً سوف ي دشّن حين يتم وضعهم في تلك البوتقة الكبرى كحيوانات مطيعة للتجارب.

(10)

اندفع أبناء كل شطيرة يضمها الوطن باتجاه الجزء الذي يخصهم من القبة، ووسط أغاني وأناشيد حماسية تبارى المنشدون في ضخ كلماتها وحشوها بما يدفع الحمية إلى النفوس، وقف المبحّل في سيارته الفارهة عن بعد يراقب أبناء شعبه، وهم يتنافسون لنيل الخطوة، ومن مقعده الذي جهّز بآخر ما اخترع للرفاه، رفع سبابته المقوسة إلى الأعلى فانطلق الجميع في حماس لرفع الأجزاء، في اندفاع شعبي من ذلك النوع الذي يستهوي الزعيم.

رفعت الشعوب المتآخية أطراف القبة، لكنها سرعان ما أخذت تترنح، إذ لم يظن أحد منهم أن تلك اللعينة التي ستستوي فوق رأس الوطن، لها كل هذا الوزن، عادوا للمحاولة مرات، لكنهم ما أن يظنوا أن نجاحاً قد اقترب، حتى كان التعب يأتيهم، فيفرون، قبل اللحظة التي تكاد فيها الأثقال تبتّر أصابعهم.

ظل في مكانه يتابع ما يجري، غير مصدق فشل المساعي التي قام بها، لتحفيز الجماهير اللينة، أيقن بعد أن رآها في الأجزاء الأربعة تتهاوى، أن الأمر مستحيل التحقق إذا تم الاعتماد على الإرادة الشعبية، فالشعب المستكين لا ينتظر حدوث معجزات منه، عندئذ قرر جلب رافعات ضخمة، لم يكن في البداية يود ذلك، لأنه ببساطة

أراد إنجاز مشروعه بكتمان، دون أن ينتبه هؤلاء الذين لا يريدون له الخير، ويشعرون تجاه قراراته بتوجس.

أمر بطرد الشعب من المكان، إبعاد المنشدين والعمال، إحراق الأوراق المحشوة بالقصائد، وضع الشعراء في الحجز الإجباري، حتى الانتهاء من الحضانة، عندئذ فقط سوف يتم إخراجهم ليتساووا مع جموع الشعب في نيل قسطهم من العناية الرئاسية.

ساد الهدوء رحاب الوطن، سار الجميع في وجوم، غير مصدقين أن القبة الهائلة استعصت على سواعد شعب ليس يذل جهداً طيلة أيامه، أخذوا يستذكرون الأيام الأخيرة التي لم تكن الشمس تطلع فيها إلا في وقت متأخر، عندها كانوا يهبون من وسن طويل، ولديهم شعور بأنهم أكثر رخاوة، بعد تلك الواقعة ساورهم إحساس بالخزي، إذ كيف سيررون ما حدث، كيف لهم أصلاً أن يواجهوا حكاهم وجهاً بوجه؟ كيف لهم أن يرسبوا إلى هذه الدرجة، في أول اختبار حقيقي يواجهونه، منذ أن أنعم الزعيم بتولية الأبحال، على الوطن المشطور؟

قررروا طي الأمر بالنعاس، انطلقوا إلى أسرّتهم، للموا أنفسهم تحت الأغطية، راحوا كالعادة في سبات عميق لم يفيقوا منه إلا بعد أن داهمتهم الكوابيس.

لم يكن أمام فخامته سوى الاستعانة بالرافعات الصديقة، في البداية طرأت في ذهنه فكرة استئجار الآليات لمدة واحدة تنتهي بانتهاء المهمة، لكنه اكتشف ان في وطنه المعطاء المشرع على الجهات الأربع، لا يوجد واحد من أبناء شعبه قادر على التعامل معها بكفاءة، فمن أين لهم أن يعرفوا ما دام الحاكم السابق كان يلجأ إلى الدول الأخرى مستعيناً بها في كل كبيرة وصغيرة؟ من أين له أن يجد

خبراء بسهولة في وطن اعتاد التسبيح الدائم لمن تأتي به المنجزات إلى سدة الحكم؟ ألقى المبحل هذه المرة أيضاً بكل قسم التقصير على الحاكم السابق، وقرر أن يسلك طريقاً مختلفاً، يقوم فيه بإدخال صناعة جديدة إلى القواميس، تعنى أولاً وأخيراً بإعادة "صناعة الشعب" وفق ما يهوى الحاكم، قرر أكثر من أي وقت مضى، أن يعيد صياغته ليكون أفراد تروساً جيدة، دون أن تعنيه درجة وعيهم، فذلك الجانب يجب أن يظل مثلما كان على مر العصور، غير مرغوب فيه لحكام من أمثاله، يعتبرون أنفسهم في نهاية المطاف، مبعوثين من العناية الإلهية لشعوب لا تستحق.

ابتلع كأساً مرأ حين رضح، قرر أن يستعين بطواقم كاملة من دول الارتفاعات، لم يجد أمامه غير هذا المخرج لينتهي من تحقيق حلم اعتبره هدفاً لا تراجع عنه، لكن ما الذي سيرر به ذلك لحاكم الدولة المؤجرة؟ راح يفكر في ما سوف يقول هذه المرة التي يسود فيها الرئام مع جيرانه، عن سبب الاندفاع لإغلاق الوطن، كان قد اختلق في البداية أسباباً لخطوة كتلك مثيرة للريبة، ليزيل هواجس كانت تتضخم لدى الجيران، كلما رأوا الأسوار ترتفع والبنائات تنكمش.

في هذا الوقت كان الغر الميامين قد تمددوا فوق عروشهم، راح الواحد منهم بعد الآخر ينفذ التعليمات التي تأتي إليه من الباب الخلفي، حيث تقبع كل أم لتراقب وتعطي المشورة، أو تأمر فتطاع.

الأمهات الأربع كن استطعن - قبلاً - إقناع الزعيم بضرورة النظر بعين الاعتبار إلى الأبناء، فحتى لو كانت أعمارهم صغيرة فإن ذلك لا يبرر تجاهل ان لأمهاتن من نساء الحاكم المبحلات مطامح جامحة.

وفي سبيل نيل ما أردن، اتفقت رغباتهن للمرة الأولى، اتجهت - وقتها - للضغط على قائد الأمة، كي يبدأ في توزيع أجزاء الكعكة على فلذات الأكباد، أن يقوم بتأهيلهم على شؤون الحكم وطرق التعامل مع المحكومين، ومع أنه أظهر عند طرح تلك المسألة امتعاضاً، هاج من بعده وماج، إلا أن للأثنى وسائل تستطيع بها كبح غضب أشرس الرجال، ولها القدرة أيضاً على اختيار الوقت المناسب لإعادة فتح الحوار ومواصلة الإلحاح، حتى يرضخ.

لكن في حالة الرجل الذي تنتفض الأمة، ان أطلق يوماً حنجرته، والذي ترتج البحار وتبتلع الأرض مائها إن عبس، فإن الأمر كان يحتاج استدعاء لكل خبرات الأنوثة التي عرفت البشرية وتحدثت عنها الأساطير، كان لا بد من توحيد الجهود، والتعامل مع الموضوع بتدرج، لتحقيق الهدف المنشود، عندئذ جاء الاتفاق على تناسي خلافات الضرائر، والتمسك بصيغة تحالف الأضداد ولو لفترة محدودة، في سبيل الغرض الاسمي المشترك.

كانت لكل واحدة منهن مكانتها لدى الميجل، لكن الشعب الذي جرّب كل أصناف الحكام، بات معتاداً على ضرورة أن تكون هناك سيدة أولى، لها الخطوة عند الحاكم، ولها المكانة كأُم وراعية ونبع للعطف والحنان، من هنا كان لا بد وفقاً للأمر الواقع، لا رغبة منه، أن يتم الدفع باسم الزوجة الأولى لتكون هي أُم الشعب، وأن يطلق عليها لقب الأم الأسمى "أُم الوطن"، ليس تقديراً لمسيرتها معه، وتحملها لنزواته وأفكاره الجنونية، بل لأن اختيار أي من زوجاته الأخريات الأصغر عمراً منها، كان سيؤدي إلى حالة استياء مكتومة في صفوف الشعب، من المؤكد أنها لن تصيب زعامته بخدش، لكنها قد لا تجعل الولاء صافياً من شوائب.

في بدايته لم يكن له ذلك الشره للنساء، إذ ارتبط حين بلغ سن الحلم بأب الوطن، وقتها لم تكن تدرك ان مغامرة زوجها الذي كانت تراه أهوجاً، سوف تحملها على جناح السلطة، وترفعها إلى درجة أن تصبح أم الجميع، ومحور ثروة المواطنين.

ارتبط بها وهو مجرد ضابط صغير، وعاشا معاً، بالكاد في ظل عواصف كانت تحتاح المنطقة التي يقع في حماتها الوطن، ووفق ما يتيح معاش محدود كان يتقاضاه باعتباره فرخاً أزغباً.

غير أنه لما دانت له البلد بيسر لم يكن قد خطر بباله، راح يفكر في طريقة فعالة للاحتفاظ بالسلطة، وضمان استمرار ثرائها، عندئذ أيقن أنه لا بد له من وريث، تنتقل إليه الولاية.

كان يدرك أن الحالة العامة في المنطقة والعادات التي استقرت لدى شعبه، تمنع أن يمتطي سدة الحكم أنثى حتى ولو كانت ابنته، تلك التي جاءت بعد سنوات من الزواج بأب الوطن، وبعد أن بلغ به اليأس مبلغاً، في أعقاب مرور دون أن ما يبشر بإنجاب، حتى انما لما أخبرته - بعد يأس - بحملها، لم يصدق في البداية، واعتقد انما تواصل اجتراح مسلسل الأوهام، ذلك الذي استمر طويلاً معها، والذي كان يدفعها بين الحين والآخر إلى اختراع أحاسيس بغثيان، سرعان ما كان ينتهي بحملها إلى طبيب، يتوافق تشخيصه مع ظنون "أبو الوطن"، مؤكداً بعد وقت من "التلعثم" أن الحمل كاذب، وان أمنيات "أم الوطن" في النهاية تصيب وتخطيء مثلما يحدث للرعا.

لكن في الوقت الذي توصل الزعيم إلى قناعة بأن الزوجة عاقر، سرعان ما تحركت بوادر حياة في رحمها الوطني، ومع أنه بات يفكر في الحفاظ على استمرار الملك في نسله الرئاسي، إلا أنه

اعتبر في البداية أن وصول ابنته الأولى هو بمثابة فاتحة خير، وان بالإمكان تأهيلها لتولي مقاليد الحكم، غير أنه سرعان ما تراجع عن ذلك، بعد أن بات يخشى من إمكانية أن يؤول الحكم في نهاية المطاف، إلى من سوف تتزوجه، وإلى أبناء من نسل لا يحملون اسمه، فهل يصح هذا، ولا يتردد لقب المبهجل حتى بعد الموت، في جنابات الوطن؟

الزعيم الذي راودته تلك الفكرة وسيطرت عليه أياماً، كان خطأ عمره أنه أسر بها إلى حرمة المصون، أم الوطن وصاحبة القلب الرؤوم، وقد كان ذلك بالفعل خطأ فادحاً، إذ سرعان ما تشبث به، واعتبرته وعداً لا ينبغي لحاكم لديه كل تلك المهابة أن يتراجع عنه، أضمرته في نفسها حتى يحين الوقت المناسب، وقتها سوف تعرف أي الطرق بالنسبة إليها لتحقيق الغاية، هي الأقصر.

من يومها بات إنجاب الأطفال، هدفاً لديه، يتساوى في أولويته مع أهداف الوطن القومية، إذ راح يحشد حواليه بمجموعات الأطباء، أرسل البعض في بعثات للتخصص في علم الإنجاب، قام بوضع خطة تخصه وحده، تتزامن مع استراتيجية البلاد، اشتط في بعض تفاصيلها، قاصداً تحقيق أقصى استفادة ممكنة من حيامينه بعد أن بات على قناعة من أن كميات هائلة منها راحت هباء مع زوجة جذباء.

عندئذ فكر جدياً في تكرار الزواج، أليس ذلك أفضل بالنسبة له وللبلاد التي تذوب فيه عشقاً؟ ألن يساهم ذلك في زيادة النسل الرئاسي، إذا ما تزوج بواحدة أو اثنتين أو حتى عشرة؟ أليس هو من غامر لإنقاذ الوطن ذات ليلة؟ فلماذا لا يسير في الاتجاه الذي سيبص في الصالح العام.

(11)

بعد أن وصل إلى قناعة مفادها، أن إمداد الوطن بأبناء من صلبه هو أيضاً من الأعمال الجليلة، قرر توسيع دائرة الحرم، وحتى من قبل أن يبلغ الأمر لشريكة حياته، راح يطلب من مسؤولي الإنشاءات إعداد أجنحة جديدة قدر ما يمكن للقصر أن يستوعب، فليس يهم العدد، بل السلامة الجسدية، والقدرة على العطاء، وهو ما سوف يخصص لأجله فريق كامل لن يكون له من عمل غير الاعتناء بكفاءة فحل الأمة.

اشتعلت "أم الوطن" غضباً حين همس لها الزعيم بنواياه، قالت صارخة، إن ذلك ليس من شيم الأوفياء، ذكرته بوقفاتها إلى جانبه ساعة كان مجرد ضابط صغير، كيف احتملت نزواته، تلك التي عانت منها العائلة، قالت انما تمسكت بزواجه رغم رفض أبيها، وكيف انه طيلة السنوات وضعها في مواقف شديدة الصعوبة، لم يكن لأي أنثى أخرى أن تحتملها، ظلت هي تردد ذلك فيما كان هو قد وضع في أذنيه طيناً وعجيناً، فيما استرسلت في مهمتها الغاضبة:

- كيف لك أيها الغادر أن تأكلني لحماً وتلقي بي عظاماً؟ ومتى؟ بعد أن رهنّت حياتي كلها لأجل طموحاتك؟ كيف ترضى أن تأتي بواحدة أخرى لم تضح كما ضحيت، لتحصد هي ما تعبنا طيلة تلك السنوات المرعبة لأجله؟ أي عذر هذا، وأي جحود يمكن أن يصدر عن رجل أسوأ من هذا؟

ظل "أبو الأمة" يواصل صمته، و"أم الأمة" على درب الكلمات السامة سائرة، غير أن السهام في النهاية كانت تصطدم بحائط صلد، إذ كان هذه المرة عاقداً العزم على المضي في طريقه، فمصلحة الوطن

العزیز أهم من قطرات دموعها، أو أحاسيس بالأسى نتابها لأيام، ثم تروح.

كل الأمور، في ذلك الوقت، تزامنت، أجنحة القصر التي تنضم، وجدار الوطن التي يلتف على حدوده ويرتفع، الأطباء الذين راحوا يبحثون عن اكتشافات جديدة لزيادة الطاقة الإنجابية لدى الزعيم، والعلماء الذين أخذوا يواصلون الليل بالنهار من أجل التوصل إلى طريقة عملية لاستنساخ نظير له.

بات بعد سنوات من حكمه، مهووساً بفكرة إنجاب أكبر قدر من الأنجال، من الورثة الذين يحقق بهم إمبراطورية واسعة ستمتد من رقعة الوطن المشطور إلى الجيران، هؤلاء الذين تقول تقارير مستشاريه ان شعوبهم تتحرق شوقاً لأن يحكمهم فخامته.

انماالت "أم الوطن" بسياط لسانها عليه، غير أن جلده كان ثخيناً، حتى انه تركها تواصل، تظاهر بالاستماع، دون أن يتدخل لإيقاف السيل المتدفق، كان يدرك من خيرة المعاشرة، انما لا تملك في حقيقة الأمر سوى لساناً سليطاً، كثيراً ما وجهته نحوه في مناسبات عدة، لكنه في كل الأحوال كان يمضي في الطريق الذي اختاره دون أن يضع لكلامها أي وزن، حدث ذلك في اللحظة التي أسر لها بنيتها الإطاحة برئيس البلاد السابق، وقتها سمع منها ما كان يمكن أن يدفع أسد هصور للتراجع، ما يحبط أي فكرة ويردها إلى نحرها، وصل الأمر إلى حد التهديد بتركة يواجه مصيره، وهي الآن تدعي انما وقفت إلى جانبه، وانما تحملت الأعباء، أية ثرثرة هذه التي قالتها؟ أهي تتحدث بهذا الكلام إلى أحد لم يعايش ما حدث؟ كيف لها أن تفترض ان الجنرال بلا ذاكرة؟ أية امرأة لها مثل قدرتها على الكذب؟

سيتزوج، سيتزوج، هذا قرار وسوف ينفذ، مثل كل القرارات التي اتخذها ولم يتراجع عنها في أية لحظة، أما هي فمن المؤكد أنها سوف ترضى، ستتعايش مع الواقع، الأيام والسنوات القادمة هي التي ستكفل بذلك، تماماً مثلما فعلت معظم النسوة اللواتي اعتبرن ان الزوج غدر بهن، بكن بعض الوقت، قلن انهن لا يطقن رؤية وجهه، العيش معه تحت سقف واحد، لكن الزمن كان كفيلاً بدفعهن إلى قبول ما جرى، والتنافس مع الأخريات فيما بعد لنيل الخطوة لدى شهریار.

اندفع في تنفيذ ما اعتزم، استدعى مدير مكتبه، وصديقه القديم، ذلك هو الرجل الوحيد الذي يمكن أن يسر له بأي حاجس يمر بخاطره، هو كاتم الأسرار ورفيق الخطط والمؤمرات وزميل النوايا الشائكة، وممهد الأرض أمام طموحاته، وحامل مفاتيح الغرف المغلقة التي تكون مخصصة في العادة لغزوات المساء.

لم يستغرق الأمر وقتاً حتى احتشد البهو القريب من المكتب الرئاسي بعشرات من ذوات القلدود المشوقة، والطلعة البهية، كان "الخلبوص" بحكم خبرة عمر مع الرجل الذي أصبح قائداً للأمة، قد اختار أصنافاً من حسناوات قادرات على خطف عقله، فعل ذلك انطلاقاً من إدراكه أن زعيمه القوى الشكيمة ضعيف للغاية أمام ذوات الغنج.

رفيق الدرب وكاتم الأسرار، كان هذه المرة يعلم أن الأمر ليس يتعلق بنزوة، بل بمهمة قومية، وضعها القدر وثقة الزعيم في يديه، وأن عليه أن يخدم الوطن بإيجاد الزوجة المناسبة له من غير الأبهكار اللواتي تعامل القائد في غزواته السابقة معهن، عليه هذه المرة أن يجد الزوجة المناسبة لتكون أمّاً لولادة مفترضون.

اندفع كاتم الأسرار إلى المهمة بينما تترد في أذنيه كلمات سيده
عن المهمة الوطنية التي اختصه بها وحده، وهي الكلمات التي تشابه
إلى حد كبير ما كان المفدى يرددها كلما ازدادت حاجته الليلية، في
أعقاب انتهاء دوراته داخل حديقة الرئاسة، التي يخصصها في العادة
للتنقيب عن أفكار عبقرية تصب في النهاية في صالح الأمة العريقة.

راح الزعيم وجاء بين صفى الواقعات، يعرض له المفاتن،
أعطاهن انطباعاً بأنه يستعرض حرس الشرف، إذ ظل متأبطاً عصاه
الرئاسية التي تتدلى من أحد طرفيها خيوط ذهبية مصفورة، فيما
استكان سيجاره الرئاسي الفاخر بين الأصابع، يرفعه إلى الفم حيناً
ويخفضه، نافثاً بفجاجة دخاناً سرعان ما تتجمع دوائره اللولبية،
عندئذ يسارع رجال التشريفات بمجذب من غلفتها سحائب كرمه،
واخراجها بعيداً.

بعد العديد من الجولات وقع الاختيار على عدد منهن، على أن
يتم المفاضلة بعد دراسة متمحصنة، للسيرة الذاتية لكل واحدة والمكانة
العائلية، وهو ما سيقوم به المستشارون التابعون لكاتم الأسرار،
الساهر دون انقطاع على راحة الزعيم، والمساهم بلا كلل في اعتدال
مزاجه.

عندئذ، لم يكد يمر وقت حتى كان قائد الأمة قد وضع أمها،
أمام الأمر الواقع، عندئذ لم تجد بدا هي الأخرى، فقررت إخماد
ثورتها والدخول في عملية حساب بالورقة والقلم، عليها ما دام الأمر
هكذا أن تتقدم بعملية إحصاء للمكاسب والخسائر، ما يمكن لها أن
تناله في ظل المستجدات.

قررت أن تتعامل مع تلك الأوضاع الجديدة بدهاء لم يكن من
صفاتها، مع الإصرار على إطلاق لقب "أم الوطن" عليها بشكل

رسمي، وأن يتم لأجل ذلك إصدار قرار رئاسي، يعمم على جميع المصالح والدوائر، وعلى جميع أبناء الشعب أيضاً، وهو ما تمت الموافقة عليه على الفور ما دام سيحل العقدة ويهدىء المخاوف، مجرد لقب لن يكلف الزعيم أكثر من توقيع متعجل على قرار رسمي، لكنه فيما بعد سيتيح له الاستمرار في خطته القومية الخاصة بزيادة إنجاب ذرية من صلبه تزدان بها أرض الوطن.

غير أن طلباً آخر كان بانتظاره يتعلق بالإبنة التي أنجبتها، والتي ترى أنها كانت فاتحة الخير، فهل من المعقول أن يتركها هكذا، ودون تأمين مستقبلها؟ ذلك المستقبل الذي رآته الأم يكمن في إسناد منصب مهم، ثم إطلاق لقب لا يقل عن "صاحبة العصمة" عليها، وإلا فما معنى أن تكون إبنة زعيم الأمة وتصبح كأبناء المحكومين، دون لقب؟

وتحت الحاح لم يعرف الكلل، وإظهار لا ينقطع للعين الحمراء، راحت خلاله تستجمع ما اعترأها من غضب، وتظهرها دفعة واحدة فوق بؤبؤي العينين، وافق سيد الرجال، وصنديد الأمة في النهاية على ما طلبت، وأصدر مرسوماً بإطلاق اللقب على الفتاة، ليسري منذ لحظة توقيعه، على أن يتم فيما بعد، إسناد المنصب إليها.

منذ تلك اللحظة لم يتفتق ذهن "أم الوطن" عن حيل أخرى يمكن بها ابتزازه والحصول على مزايا أخرى.

أما هو، فإنه لأجل مصلحة الوطن الغالي، أغرق نفسه في غسل الفراش، وقد دفعته تلك السباحة إلى إعادة التفكير في استغلال أكثر فائدة للفحولة، وبعد وقت من قيام الأطباء، بإمداده بأقوى المنشطات، وأحدث مبتكرات علم الاحصاب، قرر تحويل حبه

الشديد للوطن إلى فعل جيد، بتكرار الزواج من أكثر من واحدة،
والى توزيع طاقاته بالتساوى عليهن، بعيداً عن النزوات التي ظلت
تهدر حيواناته ولا يحني الوطن منها فائدة.

لم ينتظر طويلاً، ليرى ماذا كانت زوجته الثانية قادرة على
الإنجاب، على إمداده بما كان يبتغيه من ذكر يرث قيادة الأمة، انطلق
على الفور يطلب من كاتم الأسرار أن يوافيه بمحسنوات جديديات غير
اللواتي جاء هن، عليه أن يواصل عملية انتقائهن بنفسه وألا يترك أمراً
مصرياً كهذا معلقاً برؤية رفيق دربه، اندهش مدير المكتب من
إسراع الزعيم بطلب زوجة ثالثة، غير أنه رأى في الأمر مصلحة
شخصية له بعد أن بارت تجارته السابقة، وانتهى الزمن الذي كان
القائد يحتاج فيه إلى قواد من النوع الفاخر، يهيئ له الأجواء للتفكير
بشكل جيد في هموم الوطن، ويقدم له النصائح بشأن الأسلوب
الأمثل لمواجهة التحديات.

وبسرعة لم يكن يتوقعها، راحت الأجنحة المخصصة لقبيلته
تحت الإعداد، تجد من يشغلها، وبات على ملهم الأمة أن يوزع وقته
بين الحرم الرئاسي بالقسطاس، كما بات عليه أن يتلغ الكأس المر
وأن يمنح السيدة ذات العينين الحمراوين بعضاً من الوقت، تحقيقاً
للعادلة الزوجية، وإبراء للذمة أمام الأمة والوطن، وهو الأمر الذي
أسكت السيدة الأولى، وجعلها في النهاية تقنع بأنها لم تخسر كثيراً،
حتى ولو كان الفحل الوطني قد ابتعد معظم الوقت بجسده، فإن ما
عوضها به، وما رفعها إليه من قدر، كان خير تعويض عن رحلة
التعب ومصاعب لحظات الحماسة.

تزامن كل ذلك مع زيادة الطاقة الإبداعية لدى الشعراء لحشد
قوى الشعب، وفرش أرضه بقصائد لا نهاية لها، تحول الزعيم لدى

الشعب العاجز من صنف البشر المبجلين إلى طبقة أخرى مجللة بالقداسة، انطلقت الخطب والمواظ والدروس التعليمية والدينية ومباريات كرة القدم وحلقات المصارعة، عروض الأزياء، لحظات الترفيه، في الحدائق، وملاهي البلاد ومواخيرها، كلها تصب في هدف واحد، تمجيده والحديث عن فضائل له، هي دائماً حميدة، عن مستقبل سيكون مشرقاً كالعادة في ظله، وعن وطن وفق منطق الزعماء، هو دائماً في لحظة تحول.

شعب بأكمله تحرك بجميع قطاعاته في لحظة تحدي كبرى، يشق عنان الشمس ويصعد إلى النجوم، وطن احتشد فيه منافقون من كل لون وصنف، من مختلف الأطياف والمشارب والمناحي والمذاهب، قوى الشعب المصطفاة والمهملة، كلها تراصت في مشهد كبير حشدت له إمكانات البلاد، الهتاف تصاعد في كل بقعة، الشعارات صارت كالنصوص المقدسة لا بد أن يتبارى الجميع في حفظها، وتلقينها للصغار أكانوا أطفالاً في الروضة أم رضعاً، أو حتى أجنة في أرحام الأمهات.

مهمة وطنية، انبرى الجميع لأجلها، حشد تام افتعله القائد لإشغال شعب لا عمل لديه، سوى متابعة أقواله، ليكون كل حرف يهذي به، توجيهاً، كل خطاب دستوراً، الملاحظات التي يديها منهجاً، ولا بد وفقاً لما هو متعارف، أن تتحول كثير من الخرافات بمرو الوقت، إلى حكم وأمثال وشعارات تتلأأ في الميادين وعلى جدران البيوت، وداخل القلوب الكسيرة.

(12)

بات الحشد الشعبي في أقصى درجاته، هتاف في الصباح وآناء الليل، مطاردة سمعية وبصرية قامت بها وسائل الإعلام والحزب الواحد للجماهير، حتى بات الشعب لا يرى إلا صورته مرشوقة في كل سنتيمتر، ولا يسمع سوى اسم المبحّل، على الرغم من أنه كان قد أصدر قراراً رئاسياً يمنع تسمية أي مولود في البلاد باسم يشابه ما لحبيب القلوب والعقول، لا أحد بات من يومها يجرؤ على فعل ذلك، لأن ذنباً كهذا ليس له من غفران.

لا جدران في هذا الوطن، تلتكأ في ستر عورتها بصور الزعيم، لا هواء يمرق في حياضه دون أن تحمل موجاته شعارات صاحب الصوت الرخيم، لا عصافير تزقزق إلا بالثناء على أفعاله، ولا أشجار تتمايل إلا على وقع كلماته، لا ماء يترقرق، لا سحائب تمطر، لا ربيع ولا شتاء، لا نجوم ولا سماء، لا فنون ولا ابداع، إلا تدور وتسطع، تبرق وتومض، تراقص وتمور، لأجله وحوله، من أمامه ومن خلفه، وبإشارة من سباته المقوسة، وإيماءة عينيه، واهتزازات شاربه.

ما أجمله من وطن، صار بديعاً ورائقاً، رائعاً ومبهجاً، منذ أن صار الكل في واحد، تحوّل الجميع بكل أحلامهم وطموحاتهم، غدهم ومستقبلهم، ماضيهم والحاضر، كل الكائنات والأشياء انصهرت، تلاحمت، اتحدت، انصبت جميعها في بوتقة واحدة، لا غيرها، اتخذت هيئة الزعيم.

صار هو كل شيء وأي شيء، وغدت الكائنات في الوطن المعطاء، مكملات للصورة الكلية، بضعة مسامير تدق لتثبيت الصورة، مجرد كلمات رصت بعناية في الشعارات المرفوعة، بضعة شعيرات هزيلة

خارجة من مسام مفتوحة في جلد الزعيم، تنتظر استقبال ما ينفثه
سيجاره، عيون لا تنظر إلا بأمره، ولا ترمد إلا إذا أراد لها، ولا تجفل
ولا ترمش ولا تذرف دمعاً، أو حتى ترى جمالاً أو دمامة إلا بأمره
الصائب ورؤيته الثاقبة.

- ليس وطناً هذا، إننا نعيش في قفص ببيغوات.

قالها في لحظة جنون نادرة أحد أفراد الشعب، في وقت لم
يكن يسري المخدر في جسده، فكان أن رأى ما وراء الشمس،
وهو المكان الذي تفضل الملهم بإرسال قلة ضالة من أفراد
الشعب "تعد - كالعادة - على أصابع اليد الواحدة" للسياحة
فيه.

كانوا دائماً ما يسمعون تلك العبارة دون أن يدركوا معناها، لم
يكن أي منهم يتخيل ان هناك شيئاً يخبئه الأفق، وراء تلك الكرة
الحارقة.

ومنذ هذا اليوم لجأ كثير من المواطنين الصالحين إلى خائط
ماهر في الأحياء التي يتكدسون فيها، كي يخلق أفواههم بإحكام
وفوق ما تتطلبه المرحلة الحاسمة من حياة الوطن، في الوقت الذي
انطلقت فيه غالبية الذين كانت تتحرك لديهم نزعات الشر، في
الاستجاء إلى أصحاب ورش اللحام، مقدّمين من أمواهم القليلة
أجوراً من أجل تثبيت قطع من المعدن الصقيل المانع لخروج الكلام
والأفكار، والقادر على صد أي ثمرات تتناول الأحوال في الوطن
بالغمز أو اللمز، فيما ابتكر البعض طرقاً جديدة لمنع الأفكار
الشيطنانية من المرور ولو عرضاً على البال، وانزوى آخرون
بعيداً عن المشاركة في جلسات سمر كان الهدف منها قطع الوقت
بعيداً عن ارتكاب حماقة الخوض في السياسة.

شعب من الخائفين الدائمين، ازدادوا رعباً، بعد تلك الحادثة، إذ تناقلها الجميع، بعدما أضافوا عليها المزيد، وتبادلوها، حتى تحولت في النهاية إلى ملحمة تغني لكل من يستمع إليها عن آلاف الخطب والشعارات والتحذيرات، بل وحتى العقاب.

في هذا الوقت كانت مهام القائد وأهدافه القومية تسير في طريقها المرسوم، دون أن توقفها مكائد الكائدين، ولا نوايا الأعداء الشريرة، كل الأمور أخذت تمضي في طريقها الواحد، وإن كانت عبر ثلاثة مسارات، خطة الزعيم الخاصة ببناء الحضانة الوطنية، وخطة لإمداد الوطن بأنجال من نسله الرئاسي، وقراره المبطن، الكامن في النوايا، والمتعلق بتوسيع رقعة البلاد لتصبح امبراطورية، تتناسب مع أحلامه التوسعية.

أهداف وضعها نصب عينيه وسار حثيثاً في الطريق المؤدي إليها، بعضها معلن والآخر طي الكتمان، لكنه في قرارة نفسه كان مصمماً على خوض غمار التحديات الثلاثة، مهما كلفه الأمر من تضحيات ستكون على حساب الوطن وأبنائه، حتى لو وصل الأمر به إلى استنزاف مقدرات الأمة وارتقان مستقبلها، فما الذي يحسره حين يغامر، سوى مستقبل الشعب؟

وفي الوقت الذي سار فيه في طريق تثبيت دعائم حكم الأنجال في الشطائر الأربع، محيطاً كل منهم بجيش كامل من المستشارين والخبراء، وبعد أن نجح بشكل أكبر مما كان يتوقعه في الحصول على القبول الشعبي، والمباركة من كافة أطراف البلاد، فإن الطريق المؤدي إلى إنجاز الحضانة كان هو الآخر يسير وفقاً لما كان مخططاً، ودون أن ينجح عسس الدول الأخرى، في الحصول على معلومات تفسر لهم ما يجري، وتنبههم بالخطوة المتوقعة، فور

الانتهاء من وضع القبعة على رأس الوطن، عن الذي سوف يجري بعد أن تتحول تلك الدولة الجارة، إلى وطن مغلق، مستغرق في دنيا لا سماء لها، ولا تقدر الشمس بكل عنفوانها على الدخول إليها، إلا بإذن المبجل.

كانت تلك الخطوة هي حجر الزاوية، إذ عن طريقها سيتم تهذيب الشعب، وإعادة تصنيعه وفق الطريقة التي يرى أنها أصلح للبلاد وللعباد، وبعد أن تتم وفق ما رسمه في خياله، بتفاصيل دقيقة ظل يستعيدها خلال دورانه داخل الحديقة الرئاسية، بات يعرف ما هو متوقع، وما تبقى أمامه من الخطوات قبل الوصول في النهاية إلى تحقيق هدفه الأكبر.

(13)

هبطت على البلاد مجموعات من رافعات وأطقم خاصة بالتشغيل والصيانة، تطلب كل جزء من القبعة عشر رافعات بامتداد طول الشطيرة وعرضها، كان هذا العدد من الآليات تصاحبه أخرى مساندة، ما رفع عدد العمال والفنيين والمهندسين، إلى رقم كبير لفت الأنظار عند هبوطه، غير أن الزعيم الذي اضطر للموافقة، كان يعلم أنه لأجل تحقيق الهدف الأسمى، فلا بديل أمامه سوى ابتلاع الحنظل.

أمر رجله الأول، مدير مكتبه وحامل أختامه أن يتولى مهمة إخفاء النوايا عن القادمين، حذره من احتمال أن يكون هؤلاء مجرد جواسيس في أردية عمال، طالبه بالتيقظ، وتضليلهم.

لم يتوان الرجل عن القيام بالمهمة على خير وجه، ففي الوقت الذي قام فيه سائقو الحافلات ذات الزجاج المغطى التابعة للقصر

الرئاسي، بشحن القادمين من بوابة المطار الخارجية، تلك التي ستغلق نهائياً في لحظة الانتهاء من رفع القبة، ثم إدخال هؤلاء، ليحتلوا مقاعدهم التي يمنع فيها عن الضيوف الضوء والرؤية، إلى أن وصلوا بعد وقت إلى إحدى استراحات تم اختيارها في مكان متطرف، وذات حراسة يقظة، في ظل تعليمات بمنع الدخول إلى المكان أو الخروج منه، ورفض أي تحول في المنطقة، قد يقوم به الضيوف ثقلاء الظل.

في نفس الوقت كانت الآليات تتوافد مع سائقيها عن طريق الفتحة الحدودية الوحيدة في داخل جدران البلاد، تلك الفتحة التي رؤى أن تغلق وتفتح وفقاً للحاجة، على أن تشدد الحراسة فيها، وتصبح قادرة حتى على منع أسراب النمل من التسلل عبرها.

تعليمات صارمة صدرت وكان على الجميع تنفيذها، إذ ليس من المقبول أن يتسبب خطأ واحد في افشال أهداف الزعيم، أو حتى التسبب في ارجاء الموعد المحدد لإنجازه، ولو أدى الأمر إلى قطع العلاقات مع كل الدول التي قدمت مساعداتها مدفوعة الأجر، بل وحتى لو أدى ذلك إلى الأمر بشنق نصف الشعب إن تراخى، أو استنام، أو تقاعس عن أداء الواجب.

مضت ساعات سبقت الموعد الذي تحدد لرفع أجزاء القبة، في البداية كان لا بد من إعادة فحص المادة اللاصقة، وبعد التأكد من صلاحيتها، وجه المحبوب أمراً بأن تكون جميع الارتفاعات عند الأماكن التي خصصت لها، على أن تبدأ عملية رفع القبة في وقت واحد، ومن جميع جهات الوطن.

وهو ما كان، إذ تحولت الساحات إلى أمكنة حاشدة، جحافل من الشعب الخامل انطلقت من تلقاء نفسها، وأخرى

اندفعت إلى هناك اتقاء لضراوة المhraوات، وثالثة اعتبرت الأمر يتعلق بأداء واجب ديني، كثيراً ما روج له رجال ظلوا مستعدين دائماً إلى النصوص وتفسيرها وفقاً لأهواء من يمتطي سدة الحكم.

أخذ الأمر وقتاً قبل أن تتمكن الرافعات من حمل أجزاء القبة إلى الأعالي وسط تقليلات أبناء الشعب، وفي لحظة ظل فيها قلب الزعيم رابط الجأش، يواصل الخفقان، بينما كان ملقياً بجسده في السيارة الرئاسية الفخمة، الواقفة على البعد مزودة بأكثر العدسات قدرة على تكبير المشهد، وتمكين الجالس في داخلها من رؤية الحشرات وهي تدب على الأرض، في هذه اللحظة، أخذ الضوء يتوارى بانتظام، راحت خيوط الشمس التي قال عنها الأطباء الرسميون ان في اختفائها حماية للأجسام من الإصابة بسرطان الجلد، تختفي بتلكو حتى اندثرت.

وبعد انتظار نال من أعصابه، وأصاب شعبه الوفي بالقلق، اقتربت الأجزاء الأربعة، تلامست، التصقت، اندفع الخبراء بالمادة التي اخترعوها خصيصاً، وفي أعقاب ذلك، غطت الدائرة الضخمة حواف الجدران.

هكذا وبتصميم من الزعيم ووفقاً لإرادة عارمة بثها في قلوب أبناء الشعب، لم يعد رأس الوطن اعتباراً من تلك اللحظة التاريخية الفاصلة عارياً، معرضاً لبرودة قارسة ولا حرارة شمس لاهبة، بات للوطن العزيز في عهد قائده الخالد... قبة.

انطبقت السماء على الأرض، خيم ظلام دامس فور الانتهاء من لصق القبعة، فلم يكد الشعب يرفع حناجره مطلقاً صرخات الاستحسان، حتى ألفت العتمة بكامل ثقلها، حتى أن أي مواطن لم يعد يعرف من الواقف إلى جواره، ذلك ما منعهم من تبادل التهينة بالحدث الجلل، ورفع الحس الأمني لدى الزعيم، حتى في خضم لحظات فرح عارم كان قد اجتاحتها للتو، ودفع إليه شعوراً مشابهاً لذلك الذي يراود الطواغيت حين يحرزون انتصاراً.

ففى تلك اللحظة المظلمة، والتاريخية، صرخ في سائقه ليسارع بالانطلاق بعيداً، أدار مفتاح مصابحه، فعم المكان نور كان يكفي لـيخوض فريقين لكرة القدم مباراة حامية، أخذ الشعب الذي كان غارقاً في ظلمة المكان، يللم بعضه، يستعيد توازنه، على الرغم من أن مباغته سهم الضوء الرئاسي، تكفلت بإرماد مئات الأعين، كان ضوءاً هائلاً، اعتقده الكثيرون برقاً، سرعان ما سيعقبه المطر، نسوا في لحظة واحدة أنهم للتو شاهدوا القبعة تقبض فوق جدرانها، وان وطنهم المفدى أصبح معزولاً عن السماوات والفضاء وعن الظواهر الطبيعية التي عرفوها في السابق، وتعايشوا معها.

أدرك السائق ان وسواس الرعب من الاغتيال، سيطر على الزعيم، اندفع على الفور خارجاً، وعلى الرغم من أن إطارات السيارة الرئاسية، راحت في طريقها تحصد العشرات من الأطفال وكبار السن الذين لم تسعفهم أرجلهم الركضة، إلا أن ذلك لم يشكل سبباً يدفع الرجل الحنون لدعوة سائقه للتأني، واعتماد الحرص، إذ كان لديه حتى في الحالات العادية اعتقاد جازم بأن لا شيء يمكن أن يقف في طريق المسيرة، حتى لو كان الشعب لها

وقوداً، فما الذي يضير، في لحظة تاريخية كذلك، أن يقدم بضعة مواطنين أرواحهم قرباناً؟

تلك كانت الخطوة الأهم التي سيكون بعدها للبلاد شأن آخر، فمن خلال الحضانة سوف يتغير الحال، ستحدث نقلة نوعية مذهلة ليس في شكل الوطن الذي بات أقرب إلى صومعة هائلة، سوف يمنع عنها الهواء غير المعقم، بل ان التغيير المذهل سيكون في نوعية أبناء الشعب، طباعهم وعاداتهم، قدراتهم، وسلوكهم.

تلك هي الأهداف الوطنية المرجوة من حضانة ابتكرتها خلايا عبقرية في رأسه، فقطرها يصل إلى ما فوق التصور، ويتعدى محيطها أي مقياس معروف، لدرجة انه بات بالفعل يفكر في إدخالها ضمن موسوعة الأرقام القياسية.

أمر بإضاءة شوارع وحارات وبيوت البلاد، ما أذهل الأهالي الذين لم يخطر ببالهم أن الظلام يمكن أن يخترق حمى الوطن في منتصف الظهيرة، غير أنه ما دام القرار صدر من القصر الرئاسي، فإنهم لن يستطيعوا حتى مجرد التفكير فيه، ذلك انهم أصلاً لو تلقوه من رئيس عمال الكهرباء في إحدى الحارات، ما استطاعوا مخالفته، الأمر الذي دفعهم للطاعة، فانتشرت في البلاد الأضواء، تحولت إلى ساحات فخارية، انتهز الناس سطوعها فالتوت أعناقهم باتجاه واحد، إلى حيث تكمن القبة المقعرة، التي أصبحت سماء بديلة، للوطن، تغطيه، وتستر أبناءه، تحميهم من البرد والهجير، ومن عيون الحاسدين.

استوى الأمر، وفي اليوم التالي تأكد من مغادرة أفواج الفنانين وسائقي الرافعات وفرق العمل، عائدين من حيث جاءوا، وتيقن من أي من هؤلاء الجواسيس المتكرين، لم يستطيعوا الوصول لأسباب إغلاق الوطن.

عندئذ، قام بجمع بطانته، طالبهم بالاستعداد لتحول الدولة من النظام السابق الذي كانت تتبعه إلى نظام آخر تصبح فيه هي التي تتكفل بغذاء وإيواء وصحة وتنفس وتعليم وتربية وتهذيب المواطنين.

قال إن ذلك التحول الكبير، سوف يترافق مع كفالة تامة للمواطنين تستهدف رفع كفاءتهم، وتحويلهم من الخمول واللامبالاة والكسل والتمارض والتسيب والانبطاح إلى شعب أقل كسلاً وأقل نهماً، وأكثر أعمالاً للعقل، وتهذيباً مما هم عليه.

قال لمستشاريه، إن اللحظة التاريخية المنتظرة حانت، وإن التحول المطلوب في طريقه للتحقق، عندئذ، قام بتكليف الأطباء ورجال التربية والتعليم والإعلام والفقهاء بشقيهم الدستوري والديني، بمسؤولية صناعة الشعب الجديد، وتعديله وفقاً للدرجة التي ترضي الزعيم وتساعد فيه بعد على تكوين امبراطورية لا تغيب عنها، مهما حاولت، عين الشمس.

(15)

ما أن تم الانتهاء من بناء الحضانة، حتى أصبح الأطباء هم أصحاب الصوت المسموع، كانت المهمة التالية هي التركيز وفقاً للخطة الرئاسية المعدة، على توفير المناخ الملائم في الحضانة، لتعيم البشر، ورفع الكفاءة الصحية، استبدال الهواء الذي كانوا يستنشقونه بآخر تم معالجته بمواد عدة لجلب الصحة، ومنع الأمراض من التسلل للأجساد.

كانت تلك هي الخطوة المنصوص عليها في الخطة، والتي حرص الزعيم على استهلال مشروعه القومي بها.

بعد توفير المناخ الملائم لسكان الحضانة في جهاتها الأربع، كانت فرق كاملة قد أعدت نفسها لتنفيذ المهام الموكلة لها، راحت مجموعات التربية والتهديب وموظفوها المكلفون بالتأديب والإرشاد، والمختصون بالتوجيه المعنوي والنفسي، يعقدون اجتماعات يتواصل خلالها الليل بالنهار، خلية نخل، استنفر لها الوطن، وبجهود خالصة، باتت البلاد متغلقة على نفسها، مثلما أراد القيم عليها، فليغرق الجيران والأعداء في بحر ظنونهم، الحاقدون والطامعون، الذين ينقلب الحجر من بصيص أعينهم، وليظلوا أبد الدهر يضربون أحساساً في أسداس، فالخيرة التي باتوا عليها، هي من بين الأهداف التي سعى إليها الزعيم، بحرصه الشديد على كتمان ما ينويه، وعلى إضفاء أقصى قدر من السرية على مشروعه، ليس يهمه من بعيد ولا من قريب، ولا يعنيه، أن يطمئن هؤلاء الجيران الفضوليين إلى التطورات التي تشهدها بلاده، ليس يعنيه على الإطلاق أن يرضوا عنه، أن يثقوا في نواياه أو لا يثقوا، فبعد أن يتمكن من إكمال المهمة، وبعد أن يصنع شعباً مغايراً لذلك الذي كان ابتلي به، سوف لن يكون بحاجة لاستيراد سلعة واحدة منهم، لن يحتاج إلى مبادلتهم، وليس يعنيه حتى الالتزام بالتمثيل الدبلوماسي معهم، بل هو لم يكن في حاجة إلى ذلك أصلاً، من اليوم الأول لصعوده سدة الحكم، وقتها راودته فكرة الطلب من الدول سحب سفرائها حتى ينتهى من تنظيم وطنه، قال لهم إن المسألة لن تستغرق أكثر من شهر، سيتم إعادة البعثات الدبلوماسية إلى نفس أماكنها، لكن بعد أن تكون مقار السفارات قد تم بناؤها مجدداً، كانت تلك حيلة أراد بها طمأننة المخاوف التي بزغت لديهم، كان وقتها يود إبعادهم عن أي فرصة، يمكن أن يلتقطوا من خلالها خيوطاً، تدلهم على حقيقة ما يجري، في ذلك البلد العجيب.

سارع في الوقت الذي بدأت فيه الدول تسحب سفراءها، إلى استدعاء ممثلي بلاده في كافة الدول، بحجة التشاور، ذلك الميرر الذي تذكره في العادة وسائل الإعلام الحكومية، وهي تتلو البيانات الرسمية تلو البيانات، وعندما تم الانتهاء من تلك الخطوة، راح يلغي تصاريح اعتماد الصحفيين الأجانب ومندوبي وكالات الأنباء، ممثلي الشركات المتعددة الجنسيات، الخبراء القادمين من المنظمات الدولية، الاستشاريين والفنيين والخبراء الأجانب، كل من كان يقيم في البلاد وليس هابطاً من صلب رجاله، ولا خارج من أرحام نسائه، كان عليه أن يحزم حقائبه ويتجه مباشرة إلى المطار، حتى من قبل أن يتم البدء في لصق أجزاء القبة ووضعها فوق هامة الوطن.

المراسلون الصحفيون الذين عادوا إلى بلادهم، أدركوا فيما بعد أنهم طردوا، وإن الأكاذيب اخترعت لتمرير الأمر على دولهم، ومع أنهم راحوا يكتبون عما شاهدوه خلال الأيام التي سبقت خروجهم من هناك، وتحولوا إلى أعداء قساة لنظام الزعيم ولوطنه، إذ انحالت المقالات والتحليلات تتهم نبع حنان الأمة بالاستبداد، منقبة في الصفحات السوداء لتاريخه منذ أن وصل إلى الحكم، وجازمة بأنه يقود بلاده إلى كارثة.

لكن على الرغم من ذلك، فإن كل ما كتب، كل ما أريقت في سبيله الأحبار، وتطلب لأجل إيصاله إلى القراء، مجموعات هائلة من الأوراق، لم يستطع هز شعرة في الحاجب الأيمن لقائد الأمة، الذي ظل في طريقه، يردد بينه ونفسه، ويكرر أمام الحاشية:

- "إن القافلة سوف تظل تسير، حتى لو استمرت الكلاب تنبح".

كان يشير بذلك إلى الحملات الإعلامية، التي تصاعدت فيما بعد، إثر تأخر موعد إعادة السفراء، الأمر الذي حوّل الشكوك إلى حرب مكتومة.

ووسط تلك الهجمات الكلامية، كان المبجل يعيش أياماً أكثر حبوراً، إذ استطاع بناء الحضانة بالكامل، وواصل الأطباء وفقاً لتعليماته، تجهيز أنفسهم للقيام بعملية تعقيم الشعب، فيما قامت ممرضات الوطن بتعقيم الملابس التي سيكون على المواطنين ارتداؤها، وانبرى المكلفون الآخرون كل في بحاله يقدمون تقارير يومية، حتى من قبل أن يبدأوا عملياً ممارسة المهام المطلوبة، كل ذلك كان يحقق السعادة له، لا شيء سواه، كل الخطوات كانت ماضية، والطرق التي تم تمهيدها لذلك الحدث بإصراره، وحزمه في الكثير من التفاصيل، كانت هي التي تعنيه في المقام الأول، أما ما يدور خارج حدوده، فذلك أمر لن يكون له تأثير على خططه، ولا على إرادته الحديدية التي حلم بتعميمها يوماً ما على أبناء شعبه.

وقتها لن يدخل أي فرد من الدول الأخرى إلى بلاده، المغلقة، بل حتى الأضواء القادمة منهم لن تستطيع التسلل، لن يتمكنوا من مراقبة الوطن بأي وسيلة، إذ إن كل ما سوف يشاهدونه مجرد قبعة صلدة، لمكان مغطى بالكامل، يرتدى قبعة حجرية، فيما سيتمكن هو بيسر من متابعة ما يدور لديهم، عن طريق فتحات دقيقة تعمد استحداثها في عدد من الجهات، دقيقة، شديدة الصغر، بالإمكان إغلاقها دون أن يلاحظ الجيران، هو فقط الذي سيعرف ما لديهم، أما هم فدعهم في حيرتهم يتخبطون.

هكذا قرر منذ هبطت القبعة على رأس الوطن، أن يمنع الدخول إلى البلاد، فمع ان المطار الذي كان يربط بلاده بالعالم الخارجي أغلق

من وقتها، ولم يعد السكان يسمعون ضجيج الطائرات المارقة، تلك التي كانت تنفث سموماً دخانية في الهواء، فإنه قرر أيضاً إغلاق البوابة الوحيدة في الجدار، لمنع وصول القادمين من أي جهة، في الوقت الذي كان يعرف أنه في يوم ما سوف يأتي في النهاية، ويأمر بفتحها، لتسطلق منها جحافل متخيلة من جيشه العرمرم لغزو الدول الجارة، وإسقاطها واحدة بعد الأخرى، وتكوين الإمبراطورية التي ظلت تدور في رأسه كحلم كبير وهدف نهائي، إذ ليس من المعقول أن يكون زعيماً عبقرياً، له مثل ذلك الاحساس المتضخم بالذات، ويرضى بأن يكون نصيبه في الدنيا، رئاسة شعب بليد وخامل ومستكين.

الفصل الثاني

(1)

في الساعة التي انقطع فيها بث التلفزيون الرسمي، أصيبت إذاعة البلاد بالبكم، كان الثوري الجديد قد استعد لإلقاء البيان الأول، انتهى من اجتياح القصر الرئاسي، دون مقاومة، فمن كان بمقدوره التصدي، فيما سيد القصر والبلاد يناضل في مكان آخر، بعيداً عن ساحة الوطن.

وحين انتقل الزعيم الجديد للشعب إلى المبنى الوطني للإعلام، وفيما راح رجاله يجهزون له النص الذي سيلقيه بعد دقائق، ويسمع من خلاله صوته الشجي للشعب الطروب، في هذا الوقت شعر المواطنون الصالحون بالدهشة، إذ توقفت فجأة، عيونهم عن متابعة المطربات وهن يتمايلن رقصاً على إيقاعها، وتعطلت آذانهم عن سماع أغنية تعلقوا بها، كانت تذاع في ذلك الوقت، وتحدث عن والد الشعب وقائده وبطل الحرب والسلام، رمز الاستقرار والرخاء، ومحط إعجاب العالم وزعمائه، هكذا كانت الأغنية تقول، وكان الشعب من فرط ما بثت على موجات الإذاعة الوطنية، قد اعتادها حتى أنها اتخذت في النهاية مكانة مساوية لنشيد البلاد الرسمي.

لم تكن تلك هي الأغنية الوحيدة، إذ استطاعت أجهزة الدعاية التابعة للحاكم السابق - المطاح به فيما بعد بثورة مباركة قادها حبيب الشعب أيضاً، وقائده وبطل الحرب والسلام، ورمز الاستقرار

والسرخاء كذلك، ومحط إعجاب العالم وزعمائه هو الآخر، الزعيم المبجل المهيب، الأخ الرفيق، الركن - أن تحشد مئات الأغاني طوال العهد" البائد"، محشوة بكلمات تدور كلها عن الحاكم وأفضاله وأياديه البيضاء والمستقبل الزاهي الذي عاشته وتعيشه وسوف تعيشه البلاد، ألغت تلك الأجهزة حتى من دون أن تصدر قراراً رسمياً، الأغاني التي تتحدث عن الحب والجمال، وتداعب في البشر مشاعرهم، بات الحب موجّهاً باتجاه واحد، والتضحيات كلها لأجل واحد، والمشاعر الرقيقة والأحاسيس الإنسانية، الأحلام والأمنيات، التطلعات والطموحات، الأفراح والبهجة، كلها موجهة باتجاه الحاكم العبقري في ذلك الوقت، والذي تحوّل في عرف الأجهزة نفسها خلال ساعات معدودة، إلى خائن وعميل ومرتش وراعي للفساد، ساهمت تلك الأجهزة فيما بعد في تحويل المشاعر الشعبية إلى الجهة المعاكسة، تلك الدرجة التي اندفعت فيها جموع الجماهير إلى الميادين مطالبة بمحاكمة صارمة للحاكم السابق، الذي لم يكن أيضاً ينتظر تلك اللحظة، فقد انقذه قيام الانقلاب العسكري وهو خارج البلاد، يستمتع في أحد قصوره المنشورة في مدن العالم الكبرى، تؤنسه حيرة الساسة، المحالين على التقاعد، ونجوم هوليوود الأشهر.

في هذا اليوم الذي وصفته وسائل إعلام الحاكم الجديد على أنه تاريخي، توقف الناس عن سماع الأغاني بعد إدمان، امتعضوا بعض الوقت، استغربوا انقطاعاً لم يسبق أن حدث في جهاز دعاية الحاكم، تساءلوا بينهم عن السبب، ثم استسلموا للأمر، حين لم يجدوا جواباً.

لم يطل الوقت، إذ هل وجه القائد الجديد، الذي سيطلق عليه اعتباراً من تلك اللحظة أوصافاً عديدة، كلها في العادة خارقة، معلناً

عن قيام القوات المسلحة بإنقاذ الوطن من فساد الحاكم السابق، وواعداً بعهد جديد، يتحقق فيه الرفاه والتقدم، وينعم فيه كل مواطن بخيرات وطنه، ومعاهداً الشعب، ومشدداً بالقسم المغلظ على أن فترة حكمه الانتقالية ستشهد عملية نقل البلاد على أعتاب الديمقراطية، وإعادة الاعتبار للدستور.

وسرعان ما اختفت من الميادين والشعارات ومقار الحكومة ومؤسساتها الرسمية صور الحاكم السابق، والشعارات التي رفعت قبل وقت قصير، وكانت التنظيمات والجمعيات واللجان القومية، تؤكد فيها باسم الجماهير العريضة، تأييدها للأبد، وتجدد بها عهد الولاء والوفاء للحاكم.

تغيرت الأمور، والتهافتات التي أطلقت طيلة السنوات السابقة، النداءات والأناشيد، القصائد والمعلقات، كل ما صدر عن المهرجانات والمؤتمرات والندوات، تم محوه تماماً وفي أقل من رفة جفن.

في بداية الحكم الجديد استبشر الناس خيراً، فالزعيم الذي صعد بسهولة واستولى على كرسي ظل الحاكم السابق جالساً عليه لأكثر من ثلاثة عقود، سرعان ما اتخذ قرارات، دفعت الناس لإبداء الإعجاب، كان من بينها إصدار قرار يمنع بث أغاني عنه شخصياً، وإزالة الصور التي كان المتنافون الدائمون وماسحو الجوخ قد تسابقوا في رفعها على أبواب المؤسسات ووسط الميادين الكبرى، إلغاء لقب فخامة التي يسبق لقب الرئيس، رفض الإقامة في القصر الذي كان يسكن فيه الحاكم السابق، فمن غير المعقول أن يفعل الجديد ذات الفعل الذي اتخذ منه ذريعة للهجوم على المطاح به واتهامه بكل الموبقات المعروفة والمخترة، بالفساد والارتشاء والطغيان والاستهتار

بمقدرات الشعب، ليس من المعقول أن يقوم بذلك وهو يطرح نفسه كرجل القدر الذي جاء إلى البلاد كي ينقذه من حكم فاسد ومتحجر.

لم تكن تلك قرارات عادية، فالشعب الذي اعتاد طوال سنوات على حالة واحدة، ورجل واحد، كان يتصوره في بعض الأوقات أحد الأنبياء الصالحين، سرعان ما بعثت أمامه معلومات تؤكد كلها بشاعة الحكم السابق، الغارق في الملذات، والفتاح لحزائن الدولة للانفاق على رفاهيته، ثم أخذت وسائل الإعلام التي تقف في العادة إلى جوار المنتصر، وتلعن بإخلاص تاريخ الذين ينهزمون، تدل أبناء الشعب على ما يدفع إلى قلوبهم كراهية الحاكم ونظامه المقبور، فراح يتبادل حكايات بعضها حقيقي أضيف إليها بعض المبهرات، والأخرى لا تمت لما حدث بصلة، غير أن الأمر ظل يستدعي في حدث كهذا من المبالغات أقصاها، ومن الوقائع ما يشد انتباه السامعين، ويضطرب من أعتلى للتو سدة القصر الرئاسي.

كل ذلك، كان يصب في صالح تثبيت النظام الجديد، إذ كان سربح أي مقارنة، في ظل ما يقال عن تواضعه وبساطته، ونواياه الطيبة، وطهارة يده، في وقت لا تتردد عن غريمه إلا قصصاً فضائحية.

تحول الشعب بالتدريج إلى قائده الجديد، أحاطه بحب شديد، وبإعجاب انقطع نظيره، بات الزعيم مطمئناً، شعر بنجاحه في الخطوة الأولى، أبدى امتنانه لصديق عمره، قرر ترفيقه إلى رتبة عسكرية لم يسبق أن نالها أحد في البلاد، أصبح "مارشالاً" على الرغم من انتمائه إلى الجهاز الحكومي.

قرر أن يكون اللقب تقديراً للنصائح التي قدمها له بعد نجاح الانقلاب، إذ سرعان ما اتصل به، واهباً نفسه لخدمته، ثم أهدها نصائحاً رآها فاتحة جيدة لعهد الميمون، مؤكداً أن اعتمادها سوف يكون له مفعول السحر في كسب ود الجماهير، وإعطاء انطباع مؤثر عنه وعن حكمه لجموع الشعب، ثم ان أكبر الفوائد التي سيتم جنيها من ذلك، هي نحو أي ذكرى عطرة للحاكم السابق قد تظل باقية في قلوب المخدوعين.

تلك النصائح نفذها الزعيم بخذافيرها، ومنعت بموجها أي مظاهر لتمجيده، غير أن التي رفضها، وخاض لأجلها نقاشاً، كانت تدعوه إلى القول في أول خطاب، أن لا نية لديه، للبقاء في الحكم أكثر من مدة رئاسية واحدة، ليس هذا فقط، بل أبلغه أن من الأفضل ان يوهم الشعب بزهد في السلطة، وانه لا يريد أصلاً البقاء فيها سوى لفترة انتقالية محددة، يتم بعدها تنظيم انتخابات رئاسية، وتدشين مسيرة ديمقراطية، لم تعرفها البلاد طوال مدة الحاكم السابق، ومن ثم وصول رئيس جديد للبلاد عن طريق الانتخاب الحر المباشر، الذي يكفل للشعب اختيار حاكمه مثلما يحدث في الدول العريقة.

هنا وقف معترضاً، أصابه الذهول من جرأة صديقه الذي أصبح واحد من أهم مستشاريه الشخصيين:

• من أين جئت بهذه الفكرة السخيفة؟ كيف أعد الشعب بأن لا أكون رئيسه؟ هل كانت تلك الثورة المباركة لعبة أمارسها ثم أدعها لتسقط بأيدي من هم غير مؤهلين لها؟

- هذه مرحلة انتقالية، يا صاحب الفخامة، نريد أن تثبت فيها للشعب، ان نهجك مغاير لسلفك، يجب أن تكون لديهم قناعة بأن

القائد الجديد إصلاحى وديمقراطى وانه سوف يحقق لهم ليس الرفاهية ولا العدالة ولا حتى الكرامة، بل أيضاً الديمقراطية.

• لكن ذلك قد يورطنا في النهاية، حين نعد بما لن نستطيع من الناحية العملية تنفيذه، انهم فيما بعد قد يطالبونى بالوفاء بالعهد الذي قطعت، هل تتخيل وقتها، ما يجب عليّ أن أفعله؟

- من ذا الذي سيطلب؟ إن ذاكرة الشعوب ضعيفة، ثم..
أهناك أحد في هذا البلد لديه الجرأة على المطالبة، ها أنت رأيتهم يحولون ولاءهم في لحظات، وهم أيضاً سيكونون مستعدين لفعل ذلك مع كل من سيمسك بزمام السلطة.

• ولماذا نتظر حتى يحدث هذا؟ لماذا نمنحهم وعداً قد يساهم في زيادة الوعي؟

- هذا الوعد لن يزيد من انتباههم، فهم تعايشوا مع التسلط حتى لم تعد الحرية تجلب لهم فرحاً، هم فقط يريدون أن يساقوا كالقطيع، وهذا ما سيحدث، فقط نحن نريد أن نبعث برسالة مفادها ان الحاكم الجديد فيه المزايا التي يتمتع بها كل الحكام الذين يتولون السلطة في البلاد ذات النظم الديمقراطية المتقدمة، وبعد أن تعم الفرحة في البلاد، ويعتقد أبناء الوطن أن زعيمهم الجديد هبط عليهم من السماء، وتصبح يا صاحب السعادة بالتدريج لديهم بطلاً شعبياً أولاً، ثم بمرور الوقت ومع تكثيف الدعاية، تتحول من مجرد حاكم عادى إلى صاحب قداسة، سوف يضعونك في مكانة أقرب إلى الرسل، إن ذلك أمر يسير يا سيدي.

• وما الذي ستضيفه لي تلك المكانة، أنا الحاكم، ولا أريد بسهولة أن أتنازل عن مزايا حصلت عليها، بإقدام، وجرأة ومبادرة، أتوقع أن أترك ما حصلت عليه، لواحد من الرعايا تنتخبه رعاى؟

يمسك هو بالسلطة، وأجلس أنا من بعيد متفرجاً، إن حدث ذلك، فساكون أول الضحايا، سوف ينزل بي أفضع التهم، وقد يحاكمني أيضاً، من أجل تثبيت حكمه، وإظهار أنه الحاكم العادل؟

- الأمر لن يكون هكذا، ولن تفقد السلطة يا سيدي، إننا سنجعل الشعب هو الذي يخرج إلى الشوارع، ليطالب بعدولك عن قرار الزهد في السلطة، ستدفع الجماهير إلى الميادين لتتهدف لك، لتتوسل إليك كي تراجع عن قرارك، سنوجهها إلى مقر البرلمان لتقدم مطالبتها إلى النواب، بعد ذلك سيتولى نوابك المخلصون الخطوات الباقية، بذلك سوف تضمن المبايعة الشعبية كما لم تحدث حتى في الدول التي يضرب بها المثل في الديمقراطية واحترام الدستور.

• الدستور، هذا اللعين، هل هناك مادة تنص على ضرورة التنازل عن الحكم؟

- ليس هناك نص يجبر الحاكم على التنازل، وحتى لو كان موجوداً، فإن من يجيدون "تفصيل" القوانين وفق المقاس الذي تريد، موجودون، وجاهزون لتلك المهمة، الأمر لن يكون فيه أي صعوبة، فقط علينا في البداية أن نكتسب حب الجماهير، وأن نتمكن من إدخال الإيمان في نفوسهم بأن القائد الذي يحكمهم ملهم وقادر على تحقيق المعجزات، وإنه نموذج للعدل والتقى والصلاح، ونصير الفقراء والمساكين، والساھر على رعاية الشعب، والزاهد في مظاهر الدنيا، ورجل الإيمان، وراعي العلماء والمفكرين والرياضيين ونصير المرأة، وداعم الديمقراطية الأول.

• هذا أمر لا أعرفه أبداً، لست مضطراً لتجربته، لن أذكر التنازل في خطاب، ولكن بإمكانك دفع وسيلة إعلامية للإشارة إلى إمكانية تحقيقه، أما لو حدث ولم تكن النتائج جيدة، لو أدركت أن

ما ستقوم به سوف يساهم في زيادة وعي الشعب، ولو بأي قدر،
فإن عقابي سيكون شديداً.

(2)

لم يصدر بياناً يتعهد فيه بالتخلي عن رئاسة البلاد بعد انتهاء
الفترة الانتقالية، لم يشأ أن يتم هذا الأمر وفق الشكل الرسمي، مجرد
تكليف لأحد رؤساء التحرير في واحدة من صحف الدولة شفوياً،
ليلمح هو بذلك في مقاله الأسبوعي، وسيتكفل الشعب الذي
تستهويه النميمة بترديده، الأمر الذي سوف يتحول فيما بعد إلى
حديث متداول بين أبناء الوطن، سيظل ملتصقاً ولو بشكل مؤقت
بالذاكرة، وسبباً لجلب اعجاب الجميع وتقديرهم.

اعتقد الزعيم ان أمراً كهذا سوف يعود بإزعاج هو في غنى
عنه، فهو لا يريد من الشعب سوى التسبيح بسجاياه عند إطلالة
الشمس وفي المساءات، أما الإصلاح والديمقراطية والعدالة والتسامح
والزهد فمقولات لا تحمل عند الدول الزاحفة على بطونها، غير معاني
خائبة لا سبيل لتطبيقها على أرض الواقع، ثم انه في الأساس لم يأت
لإنقاذ الشعب من الفقر ولا المرض ولا الجوع، فقط جاء حاملاً
أجندته الخاصة، منذ أن باتت أحلام اليقظة تطارده في السنوات
الأخيرة.

كان يعلم أن طموحاته، لا يمكن من الناحية العملية أن تتحقق
سوى بالقبض على سدة الحكم والتحول إلى بطل قومي متقد، ثم
تجيش مواطنيه، ووضع إمكانيات البلاد لخدمه مشروعه
الإمبراطوري، ولو كان ذلك على حساب الجيران والأشقاء،
الأصدقاء، وكل بشر الدنيا أجمعين.

واصل الشعب إبداء إعجابه بالبطل المنتقد، الزعيم المحبوب صاحب الصفات الرحيمة، حبيب الجماهير ونصير الضعفاء والمظلومين، فارس الفوارس وأسد الضواري ونمر النمر، حامي العرين، وقاهر الحاقدين، ومفجر طاقات الشعب، وباعث فضيلة الاستخدام الأمثل للحناجر، موجه الجماهير والرجل المؤمن التقي الذي لا يخاف في "السحل" لومة لائم.

سار السيناريو وفق النظام الذي وضعه الوصيف المخلص، كاتم الأسرار، وبالدقة التي أذهلت فيما بعد قائده، وعمقت لديه شعوراً بضرورة وضع المزيد من الثقة في رفيق العمر.

جاءت الخطوة التالية، لتصب في اتجاه آخر، نصحه المارشال بتوسيع الدائرة المحيطة، على أن يتم إغداق الأموال والامتيازات على المنتمين إليها، أفهمه أن ارتباط هؤلاء بالنظام وإغداق المزيد من الامتيازات عليهم، سوف يجعلهم في النهاية جزء منه، يدافعون عنه باستماتة، مؤمنين أن سقوطه يعني سقوطاً لهم، وانتهاء للمزايا التي يتمتعون بها، والثروات التي ينهبونها من قوت الشعب وعرق جباه أبنائه.

قسم كاتم الأسرار، ناصح الزعيم ورفيق عمره، من سيحصلون على الامتيازات إلى أربعة اصناف:

- أمرو القوات المسلحة والشرطة والحرس الجمهوري ورجال جهاز الاستخبارات، وهؤلاء سوف تمنح لهم امتيازات في الأراضي والمساكن والمواصلات والأندية والجمعيات والشواطىء.

- الإعلاميون ورجال القضاء والفنانون والشعراء وعمداء وأساتذة الجامعات، وبعض رجال الدين، أصحاب الألسنة الذرية، وهؤلاء سيتم منحهم الكثير من الامتيازات العينية والنقدية، وتأمين

دخل مريح لهم، مع إعطاء حق الضمان الاجتماعي والمكانة اللائقة، والتناوب على إظهارهم بشكل دوري في وسائل الاعلام.

- رجال الأعمال المرتبطون بالرئاسة بشكل أو آخر، وهؤلاء سيتم الاتفاق معهم على أن يكونوا في بعض أعمالهم مجرد واجهة لإدارة مشاريع زعيم الأمة وأنجاله، واستثمارهم في داخل البلاد وخارجها، على أن تهيء لهم من أجل أداء هذا الدور كافة الإمكانيات، من تسهيلات بنكية، إلى امتيازات في الجمارك والأراضي والتوكيلات، وحمايتهم من التعرض لأية مضايقات داخل البلاد أو خارجها.

- الصنف الرابع يتمثل في الوزراء والنواب، وهؤلاء سوف يحصلون على امتيازات عديدة، من أهمها مساندة أجهزة الدولة، وتكوين حزب يسيطر على البلد، وينضم لرئاسته صدر الأمة الأعظم، فيما بعد.

عندما اقتنع الزعيم بمقترحات المارشال، أعطاه الأمر بترتيب الوطن وفق ما اقترح، لم يكن صاحب النظرة الثاقبة لديه أي تردد تجاه الرجل الذي حمل أسرارَه وقام بكتماُنْها.

كان مقتنعاً أن النجاح في جعل الشعب يمتنهن وظيفة واحدة هي التسبيح بمزايا الحاكم والدعوة له في آناء الليل وأطراف النهار، يعدّ مدخلاً جيداً له كي يسير في الخطط الفرعية الأخرى التي ستكون جسراً في النهاية يعبر عليه لتحقيق خطته الأكبر، حلمه الذي لن يتنازل عنه مهما كانت الصعاب ومهما لاقى في سبيله من عنت.

لم يخطر على باله مجرد خاطر، ما ينبهه إلى التناقض المزري الذي وقع فيه، عندما قام بالثورة على الحاكم السابق، مبرراً الإطاحة به بأنها تمت بدافع تخليص الوطن من الفساد والرشوة والمحسوبية،

و لضمان تحقيق العدالة لكافة الطبقات، وها هو اليوم وبعد أن استتب الأمر، يقوم بتكوين حاشية من المستفيدين، ويرهن الوطن لمجموعة جديدة أشد شرها للفساد.

ذلك كله أمر لم يكن يشكّل له سبباً لتأنيب الضمير، ليس هناك ما يستدعي منه أن يندم يوماً على مباركته لنصيحة المارشال، ما دامت الأمور تسير في النهاية في الاتجاه الذي رسمه لنفسه، ويحقق له أحلاماً، لم تفارق خياله في أية لحظة.

(3)

ظل ترتيب أوضاع الحكم شاغلاً لباله، ذلك الذي كان يعني له ضمان ميراث العائلة، وإعطاءها نصيباً من كعكة الوطن.

لم يكن هذا الترتيب، ليتم وفق رغبة القائد الفذ وحده، وهو المهموم بقضايا عظيمة هي في الأساس أكبر من التفكير في أمر تافه كهذا، من أجل ذلك أسند الأمر إلى عقله المدبر، صديق العمر، رفيق الدرب والمؤامرات الذي لم يتوان أيضاً هذه المرة عن تقديم الخدمات، إذ قام بتخصيص قطع من الأراضي المميزة تعادل ربع مساحة الوطن للأبناء، أقلها بأسمائهم الصريحة، وأغلبها اختفت وراء أسماء طبقة جديدة من رجال أعمال، وكانوا من قبل في زمرة المتسولين العاطلين.

لم تكن الأراضي وحدها التي اقتطعت لأفراد العائلة الموجودين في ذلك الوقت على ظهر الأرض، بل تم حجز قطع أخرى سوف تهدى لكل رضيع تجود به الحياة فيما بعد.

ومن الأراضي إلى سبائك الذهب التي راحت تتجمع من أرجاء البلاد، بعد أن اخترعت البطانة أوقاتاً في كل شهر، تحض فيها

المواطنين الصالحين، الساعين لنيل رضا الوالد المهيب على التبرع من أجل بناء الوطن، والمساهمة في رفعة شأنه، وإخراجه من التخلف الذي أغرقه فيه الحاكم السابق ونظام عهده البائد، اندفعت النسوة للإسهام في تلك الحملة بخلع ما حول الجياد والمعاصم، كضريبة لا بد منا لركوب موجة الوطنية، ولإبعاد الاتهامات بالأنانية والبخل والتقتير، وعدم إعاقة العملية الساعية للتنمية، أما الأخطر الذي خشين أن يتهم به فهو معصية أوامر المبحل، وهو اتهام سوف تضاعف أمامه كل الكبائر الأخرى، ما يعنى أن مصيراً أسوداً سوف يكون بانتظار من سوف تتهم به.

كل تلك الكميات الهائلة التي خرجت من نساء الوطن، وصلت إلى أيادي المارشال، دخلت في الخزائن التي لا تفتح إلا بالأرقام السرية، جمعها، قيمها، حمل أرقامها إلى مكتب القائد، وراح معه يوزع التركة التي هبطت فجأة بفكرة لا يقدر على ابتداعها إلا لص محترف، اقترح المارشال فوافق الزعيم، وتوزعت معظم الغنيمة على أفراد أسرته، وما بقي كان يمثل مكافأة مجزية لكاتم الأسرار ثمناً للاخلاص.

لم يكن الذهب والأراضي في داخل الدولة، ولا حتى القصور التي تبارى السماسرة في البحث عنها في الخارج، لإيجاد مأوى جيد للزعيم في أكثر من دولة، خصوصاً عندما يحدث ما لا يتوقع، ويفرك الشعب عيونه الناعسة، وهو أمر لا هو، ولا حتى أشد الناقمين على حكمه يمكن أن يتوقع حدوثه أصلاً، كل ذلك لم يكن كافياً لطمأننة زوجات الزعيم اللواتي رحن يطمعن فيما هو أكبر، بعد العمر الطويل، فمن من الأبناء سيكون الأجدد بخلافة الوالد، وكيف ستكون مكافأة "أم الوطن" وهي التي وقفت إلى جانب فعلها، منذ البدايات التي لم يكن فيها سوى صعلوك، تدرج فجأة بمغامرات

محسوبة، حتى نجح في أكبرها على الإطلاق، ووثب إلى السلطة، ولو كانت النتيجة فشل الانقلاب لصلب هو وزوجته، وأعدما على أعواد المشانق.

كيف يمكن لزوجة كتلك، أن لا يكون لها نصيب من الحكم؟ وكيف تأتي الأخريات لاقتناصه بيسر، حتى ولو كن أنجبن ذكوراً، وتوقف نسلها هي عند تلك الابنة، التي عانت عند هبوطها إلى الدنيا من مشاكل صحية، لا حصر لها؟

ذلك كان السؤال الذي يورق السيدة الأولى، التي راحت بكل ما امتلكت من سطوة، تلقي به أمام المغوار، فيصمت حيناً، ويسعى إلى إشغالها بأمور أخرى، غير أنها ظلت على الدوام يقظة لمثل تلك الألاعيب، كانت قد حفظتها عن ظهر قلب، للدرجة التي باتت معها تعرف ما هي الجملة التي سينطقها الزوج من قبل أن تخرج من طرف اللسان.

تشبثت بوعده خرج منه في حديث مرسل، أقر فيه بإمكانية إسناد بعض الصلاحيات للإبنة، في الوقت الذي أعطى أيضاً نفس الوعد لأمهات الأولاد، اللواتي أخذت أعدادهن تتزايد، منذ أن قرر رفد الوطن بذرية هائلة من أشباهه أصحاب الطلعة البهية.

لم يجد من يسر له بما يراه من شراسة نسائه، غير المارشال، كان هو الآخر الصدر الحنون، يجيد الاستماع، يقدم النصيح، حتى أصبح الزعيم، الذي يضع له الآخرون ألف حساب، مجرد لعبة، من الوزن الخفيف تتحرك وفق ما رغبت أصابع صديقه.

كل المواقف التي مرت به، صعبة أو تافهة، ظلت تدخل على الفور من فمه إلى مصفاة المارشال، هناك تتخلص من شوائبها، وتتيح

له الفرصة ليقوم بدوره البارع في تهدئة الرجل الأقوى، واعطائه بعض الحلول، التي دائماً ما يستحسنها ويعمل وفقاً لها، حتى ان معظم قراراته تصدر في أعقابها، بعد مناقشات يسعى من خلالها إلى استيضاح أمور، وتدارك تداعيات قد تكون لها على المستوى المحلي أو الخارجي.

هذه المرة توافقت اقتراحات كاتم الأسرار مع رغبة الرجل الأكبر، كان قد تحول بالفعل وفي خلال فترة قياسية، إلى طاغية حقيقي، بعد أن كان مجرد ثوري حالم بتغيير أوضاع متردية وصل الوطن إليها، بعد أن تحولت البلاد في عهد الحاكم السابق إلى واحدة من أهم أوكار الفساد، وتسيدت أخلاق الرشوة والتسيب على ما عداها، وتبدلت أوضاع الناس حتى وصلت أحوال المعيشة إلى ما تحت القاع، تحول البشر بسبب الاحتياج والخوف إلى مجرد أرقام تتحرك داخل القفص الكبير.

عادت الأمور إلى حالتها الأولى، بل أشد سوءاً مما كانت عليه، غير أن ذلك ترافق مع هزال عام راح يضرب أطنابه في هياكل أبناء الشعب، أخذت أجسامهم تضمر واحداً بعد الآخر، وراح الخمول يرتفع، وتحولوا مع مرور الأيام إلى مجرد أشباح تمشي على أقدامها، غير مدركة بما يجري حولها، حتى باتت الحناجر لا تبادر بالهتاف إلا إذ تم الإيعاز لها، ازداد الخنوع وتغلغل هذه المرة، بعد أن ساد الاعتقاد بأن ما يجري على أرض البلاد، هو أمر ضروري لإرضاء ملهم كالذي يستظلون تحت جناحيه، وان ما يشهده الوطن هو النعيم الذي تحسدهم الشعوب الأخرى عليه.

ظل الأمر، في بداياته يروق للزعيم، غير أنه في النهاية بات على قناعة، بأن ما لديه مجرد مجموعة من البيغاوات، تحولت بفعل القمع

وهراوات حماة الأمن، إلى فتران صغيرة منكشئة، فكيف له أن يأمل في تحقيق أحلامه، اعتماداً على شعب خائر، لم يعد قادراً على التفكير، فكيف به إذا حمل سلاحاً؟

تلك كانت واحدة من العضلات الأهم التي جالته، وهو يرسم خطته الكبرى، إذ أدرك وقتها أن تلك هي ثمار ما تم زراعته في أرض شعب تحول أفراده ليكونوا مجرد قطيع من مطيعين سامعين، وحشود من هتافين مرددين دون فهم، لأغاني تشيد، وشعارات تصوّر البلاد كالجنة الموعودة للصابرين، ونصوص اتخذت شكل القداسة تعتبره ضياء العين ونور الشمس ووجه القمر.

أدرك أن ما حدث حطّم في أبناء شعبه المبادرة، أي مسعى للخروج عن النسق، حتى باتوا يحكم الأمر الواقع مجرد أرقاء، يفرحون إن رفعت العصا، وينكمشون إن هوت على الرقاب.

أخذ يراجع ما حدث، وهو يسير في حديقته الرئاسية، فحتى لو لم يكن يريد أي شكل من أشكال المعارضة لحكمه، وأن يصل بالناس إلى قناعة بأنه حاكم لم يجد الزمان بمثله، ومهما كان كارهاً لما يمكن أن ينغص عليه أوقاته، فإنه في النهاية ظل يدرك أن معارضة خافئة، متفرقة، وعلى فترات متباعدة لن تفسد الطعام.

لم يتوقع أن يحدث هذا التغيير بسرعة كالتّي انطلق بها، وأن تصل الأمور في النهاية إلى درجة أصبح فيها من المستحيل، ضخ النبض في الروح الهاربة.

ومع أنه اجتمع مرات عدة بالمارشال، وعلماء النفس، الأطباء، والمحللين السياسيين ورجال الدين، وانطلق هو بنفسه إلى حديقته الرئاسية، يدور دوراته المتتالية، باحثاً عن حلول، فإن المحاولات لم تسفر عن شيء، ولم يستطع أحد من هؤلاء الذين أتى بهم أن يقول

له إنك أيها الملهم، قد قتلت في شعبك الحمية، انتزعت منه روح المسبادة، فتحولت الجموع التي راحت تَهْتَف لك، مؤمنة بأنك هبة إلهية للوطن، إلى مجرد قطعان راجفة.

لم يقل أحد ذلك، فقد تبارى هؤلاء في اعتبار أن ذلك من علامات الطاعة، ونصحهم آخرون بضرورة توجيه كلمة تحية إلى هذه الأمة التي يتمنى الحكام أشباهه العثور على مثيل لها، واعتبر آخرون أن عبقرياً مثله يستحق شعباً مهذباً كشعبه، أما الأطباء فكان لهم رأي مغاير، قالوا إنه ربما كان هناك فيروساً معدياً، اقتحم البلاد، وأصاب ساكنيه بجزال شديد، قتل الروح فيهم، وحولهم إلى عيدان مصوصة، وأرواح حافة.

أكدوا له أن ذلك هو التفسير لما جرى، استبعدوا أي أمر آخر من ذلك الذي قد يكون فكر فيه، أيدهم في ذلك الفقهاء، مؤكدين أن ما يقوم به في سبيل هذا الوطن سوف يجزي عنه حسنات في الدنيا ومقعد في الآخرة، وإن ما جرى قد يكون مساً من الشياطين، وتسببت فيه عيون الحاقدين، الذين يحسدون الشعب الوفي على زعيمه الورع، الساهر حتى أوقات متأخرة من الليل لرعاية مواطنيه، والذي لا تغمض عيناه إلا حين يطمئن عليهم، داعين له بأن ينال خير الجزاء، ورافعين الأكف في ضراعة، بأن تزول المحنة، وتنقشع عن الوطن تلك الغمة التي أرقت الرجل الحنون.

... عندئذ، وأمام هذا الإجماع من نخبة علماء الأمة، أيقن أن ماساورته من هواجس قد وردت إليه من وسوسة شيطان، وأن القمع والكبت لا علاقة لهما بهذا الشعب المحسود... استعاذ، فردد علماء الأمة من بعده، وانفض الاجتماع التاريخي بصب الدعوات القاصمة على ظهور الأعداء، والمبيدة لنسلهم.

(4)

بعد سنوات، من ارتباطه بأُم الوطن، اجتاح صاحب المهابة، قلق عارم، إذ أجمع الأطباء على أن الزوجة تعاني عوارض العقم، اعتبرها مزاعم، فكيف يمكن له أن يصدق، وهو الممسك في يديه مقادير البلاد، ومن له الأمر والنهي على من يدب فوق أرض الوطن، لم يكن يريد استيعاب حقيقة أن هناك أموراً تستعصى على البشر مهما امتلكوا السطوة والصولجان، وان الواقفين إلى جواره ولو بذلوا جهوداً خارقة ما تمكنوا من حل واحد من ألغاز يمتليء بها الكون.

كانت الصدمة مباغتة، حتى انه استسلم في النهاية لفكرة ان الزوجة التي ارتبط بها ولازمت أوقاته، الحلو منها والعقم، عاقر، وان أحلامه التي باتت تطفئ حين اكتشف أهمة السلطة، لن تتحقق قريباً.

وقتها راح يفكر جدياً في الزواج بمن يمكن لها أن تنجب ولياً للعهد، يرثه في بلاد دانت في غمضة عين، ولا يستطيع فيها شبح أن يتوجه إلى النوم قبل الدعاء للمفدى، ولا تستطيع عينا مواطن فيها استقبال النور الصباحي، إلا إذا استهل يومه بالابتهال لله أن يطيل عمر الزعيم، وأن يرزقه الذرية الصالحة.

لكن كيف يمكن أن يحقق ذلك؟ الذي تمتلك فيه تلك السيدة سطوة تحسدها عليها الملكان زنوبيا وبلقيس؟ كيف له أن يفعل ما يضره بغير أن تقف له "أُم الوطن" بالمرصاد؟ كيف له أصلاً أن يفتحها بما يعتزم، وهي التي تمكنت في العديد من المرات من توجيهه وفق ما تريده؟ يدرك انه أقوى من أنجبته أرض البلاد، وانه ذو هبة ورهبة كفيلة بإلقاء الرعب في قلب من يقف أمامه، لكن هذه السيدة

بالنسبة له تختلف عن كل نساء الأرض، هي الوحيدة التي تسوسه، تعرف نقاط ضعفه وتضغط بما عليه، لم يحدث إلا في أقل الحالات، إن رفض لها طلباً، لا قبل أن يتولى الحكم، ولا بعد أن أصبحت أرض البلاد وشعبها ومقدراتها طوعاً وبغيره، فكيف سيجرؤ هذه المرة على الخروج من ذلك المأزق؟ وكيف ستأتيه الجرأة ليصارحها بنية الزواج هكذا دون أن يتوقع منها ثورة عارمة وموقفاً شديد الحزم يفتح الباب أمام دوامة من عدم الاستقرار العائلي، قد ينعكس بدوره على مزاجه الشخصي، تتأثر به قراراته، بل إن الأمة بأجمعها، سوف تتأثر، إذا ما تعكر يوماً مزاج القائد.

كانت تلك هي المشكلة الكبرى أمامه، لكنه في النهاية، ووفقاً لطبيعته الأشد قرباً إلى حرباء، فإنه سوف يتمكن في نهاية المطاف من تجاوز الأمر، وسينجح في إقناعها، بعد أن يشبع فيها شره الامتلاك، وسيمنحها من مقدرات الوطن ما تريد، ما دام ذلك سيمكنه في النهاية من تحقيق رغبة يعتقد أنها مشتركة بينه وبين أبناء الوطن البررة.

في الوقت الذي استمسك بشجاعة لم يسبق أن ظهرت لديه أمام الزوجة، وقف الزعيم بمهّد الأمر حتى شعرت بالملل، صرخت في وجهه ليكف عن الدوران، ليتحدث مباشرة، أو يغرب عن وجهها.

أخذ قوى الشكينة يتلعنهم، قبل أن يتمكن من استرداد توازنه، يعيد إليه رباطة جأش كانت هاربة للتو، صمت وقتاً، قبل أن ينطلق لسانه دفعة واحدة، فيصارحها بما ينويه، وقتها نال تقريباً لم يتعرض لمثله من قبل، وانتشرت على وجهه فقاعات من شتائم اتخذت طريقها دون توقف، وسط شعوره بحرج، ومخاوف من وصولها إلى

أذان مسترقي السمع في القصر الرئاسي، راح يهدى ثورتها، دون أن يحرز نجاحاً، حتى هدها التعب، حمدت جمرات نيرانها بعد أن وصلت إلى الحد الذي لا يوجد فيه مساحة للمزيد، ألقت بنفسها بمجهدة على أقرب أريكة، راحت تلعن الزمن الذي وافقت فيه على الارتباط بمكذا مسخ، صبت المزيد من الشتائم على الحماقة التي دفعها لجماراته في جنونه، على قيامها قبل الانقلاب بتهيئة أجواء الاجتماعات، وإبصاها الرسائل للذين شاركوه، اقمته بالنذالة، بخيانتها وطعنها في الظهر، راحت تقول ان أي تفكير في الزواج من غيرها هو في البداية والنهاية، خيانة للوطن، تطبيقاً لنص المرسوم المعمم على جميع مؤسسات البلاد، الذي اعتبرت بموجبه "أما" للوطن.

ما جرى في ذلك اليوم، مثل لها نقطة فارقة في مسار حياتها مع الزعيم، حرّضها على الانتباه أكثر لنفسها، أيقنت هذه المرة أن هناك ضرورة لأن يكون لديها وريثاً للعرش الرئاسي، فمن غير المعقول بعد كل تلك التضحيات أن يأتي الآخرون ليقطفوا ثماراً لم يزرعوا أشجارها، ثم تقف هي بعد سنوات الصبر لتتفرج على الناهبين والمسيطرين، وفي ظل المتغيرات التي سوف تهب، ما الذي يمنع من أن تجدد نفسها وقد تحولت بعد ذلك من السيدة الأولى، زوجة زعيم البلاد إلى مجرد زوجة للحاكم.

عند تلك النقطة، قامت باستدعاء جميع أطباء النساء والولادة، طلبت منهم متابعة أحدث ما تم التوصل إليه في العالم من أبحاث، ولم تترك الأمر لهم وحدهم، إذ راحت تقوم بجولات على مراكز الاختصاص في الدول المتقدمة، دارت من مكان إلى آخر، دفعت من خزائن الدولة فواتيراً سخية، دون أن يجروّ أحد على معارضة الإنفاق الباذخ الذي راحت تنثره في كل دولة تحط فيها طائرهما الخاصة.

غير أن تلك الزيارات التي استغرقت شهوراً، منحت الزعيم الفرصة لانتقاء من سوف تكون زوجته المقبلة، إثر حصوله من الشريكة الأولى على موافقة مشروطة ذات بنود صعبة، ابتلعها كاللقم كي تطلق يده، لم تكن الجولة فرصة له وحده، فقد أسفرت في النهاية عن حل ناجع لمشكلة الإنجاب، إذ قرر الأطباء إجراء عمليات تخصيب لأم الوطن، استهدفت تنشيط جهاز الخصوبة، ليم بعد ذلك تلقيحها صناعياً.

لم يدم الأمر طويلاً، فسرعان ما أخذ جسد الأم يستجيب، وراحت النتائج تتحسن، حتى انه في النهاية وبعد عودة أم الوطن إلى حماه، جاء إليها الأطباء من بلدانهم، بمستشفى مجهز، كانوا على استعداد للتعامل مع ما يطرأ، بعدما تكفلت وزارة مالية الوطن برصد المخصصات اللازمة، مهما تسببت في إرهاب الخزانة، وأورثتها عجزاً ثقيلاً.

بات بالإمكان أن تقنع نفسها بأن عوارض الحمل الحقيقية قد بدأت تمل، وانما هذه المرة مغايرة لتلك التي ظلت تنوءها في فترات سابقة، والتي كثيراً ما أورثتها وزوجها خيبة أمل.

اختلف الحال عن السابق، هي الآن متأكدة من انها سوف تصبح أما أن سارت الأحوال عادية، سيكون لديها من يؤمن على الوطن العزيز، بعد أن ينتقل المهيب بعد العمر المديد إلى الرفيق الأعلى، وقتها عليها أن تعيد حساباتها، تراجع البنود التي قدمتها كشروط للموافقة على صفقة زواجه بأخرى.

سعت مراراً لدى الأطباء للكشف عن جنس المولود القادم، غير أنهم بإيعاز من الزعيم، كانوا يتعللون بصعوبة معرفة الأمر على وجه الدقة، نظراً لحالة حملها غير العادية، أكدوا أن من

الأفضل لها الانتظار حتى الولادة، فالمهم هو أنها باتت قادرة على الإنجاب.

أما الزعيم، فقد سار في الطريق الذي اختطه، متجاهلاً محاولات "أم الوطن"، لتأجيل تنفيذ الاتفاق، كان يتظاهر بالموافقة، يهز رأسه في كل مرة، غير أن ما ظل يستمع إليه منها، سرعان ما يخرج في ذات اللحظة مخترقاً سياج الأذن إلى الفضاء الرحب، مانحاً لها حق الثرثرة والأوهام، ولنفسه حق طرد الكلمات التي لا تروق... من الذاكرة.

وفي الوقت الذي سبق توليد أم الوطن، كانت البلاد قد حبست أنفاسها استعداداً للحدث الجلل، أرجأ الزعيم إجراءات الزواج الرئاسي الثاني، منذ أن ورد إليه نبأ نجاح عملية تخصيب الزوجة، ضارباً المثل لشعبه في احترام مشاعر صاحبة العظمة، غير أنه لم تكن لديه أية رغبة من الناحية الفعلية في تنفيذ تلك الخطوة، خصوصاً بعد أن أبلغه الأطباء بأن القادم فتاة، لم يرد وفقاً لطبيعته تكوينه، ترك أمر ولاية العهد للصدفة، فما الذي يضمن له أن لا تصاب الأم ولو في اللحظات الأخيرة بإجهاض، أو أن يأتي المولود القادم مشوهاً أو معاقاً، أبكماً أو أصماً؟ وما الذي يدريه أن جنينه سوف يتمتع بحياة طبيعية مثل غالبية الأطفال الذين يولدون عند كل جزء من الثانية؟

كان يريد أن ينفي عنه أي تهمة قد تلصقها به السيدة الأولى، فيما لو لم يكتمل الحمل، أو حدث مكروه، فحين يتزوج في هذا التوقيت فإنها ستسبب له أي إخفاق، ستقول أنه تسبب في تحطيم حالتها النفسية، الأمر الذي قد يعيق مخططاته، كان يرى أن التطورات الجارية في مجملها تسير في صالحه، الأمر الذي دفعه لقبول نصيحة المارشال بإرجاء الزواج مؤقتاً حتى تنتهى ولادة الأم.

قبل ثلاثة أشهر من الوقت المتوقع للولادة، تزينت البلاد، بما يليق بقدم أول مولود رئاسي، احتفالات لم تشهدها في تاريخها، كادت الشوارع ترقص من فرط البهجة، غير أن الأم فاجأت الجميع، الزعيم والأطباء، بآلام المخاض، ومع أن هيئة الاستشارات الطبية لم يكن لها من عمل سوى قياس النبض، وملاحظة نمو البطن، ودقات قلب الجنين، زيادة الوزن ونقصانه، طرق التغذية وأوقاتها، كل شاردة وواردة كانت تحت عيونهم، غير أنهم لم يستطيعوا التنبؤ بقرب خروج نبتة أبيه من بطن الأم، وهو ما أحدث إرباكاً لدى هيئة الرئاسة، والهيئة الطبية وفي استعدادات أجهزة الدولة.

في نهاية الشهر السابع، راحت الأم تتلوى فسرى الألم في شرايين الوطن، جاءها المخاض، أحاط بها الأطباء، لكن أحداً منهم رغم المحاولات المتواصلة لم يستطع إخراج الجنين، كان لا بد من وقت، وكان على السيدة الأولى أن تقاسي آلاماً لم يسبق أن شعرت بما يمثّلها.

سرى الخبر في أرجاء الوطن، امتلأت دور العبادة بالمصلين، راح الجميع يتهلّل، كي ترافق الأم البركة، وهي تحتاز أكثر اختبارات حياتها صعوبة، وفي الميادين جابت مظاهرات، نظمتها نساء يهتفن لها بعبور تلك المحنة، ويؤكدن في شعارات متناغمة على الولاء لها ولولي العهد القادم، الذي سيجلب السعد للبلاد، قالت بعضهن للإذاعة الرسمية، أمّن يتمنين لو يحملن عن أم الوطن عناء تلك اللحظات، قبل أن يستدركن في النهاية، ليقلن: إن ما يحدث هو جزء من التضحيات التي قدمتها هذه الأم الرؤوم طوال تاريخها المضيء، للبلاد وسعادة المواطنين.

وقف الوطن على قدم واحدة، بانتظار لحظة سينتهى فيها ألم الأم، ويشرق وجه الوطن، تلك التي سيغادر فيها مولود الزعيم سرير الرحم، ليحدثن عصرًا جديدًا في المسيرة الخالدة.

كان اليوم، بكل ما أحاط به استثنائياً، توقفت مصالح البلاد في وقت مبكر، وأحاطت بالقصر الرئاسي حيث نصبت أوتاد المستشفى الطائر، حشود هائلة من الشعب، حتى بدا للمراقبين أن هؤلاء الذين أتوا من كل فج عميق، قصدوا دياراً مقدسة، لا مكاناً ينتظر ولادة، يفترض أن تماثل ما يحدث للملايين الأمهات في أرجاء الكرة الأرضية، اللواتي حملن فولدن، فأعدن الكرة مرات دون ضجيج، ودون أن تصبح الشعوب فيها، ولو لمرة واحدة، كأسراب البجع.

راحت الهتافات تبالغ في ما تنطق، تسابقت الحناجر وهي تبدي مشاعر مفرطة، اختلطت الأصوات الناعمة بالخشنة فانطلق الجميع في النهاية دون اتفاق يرددون نشيداً، قام أحد شعراء المرحلة بتأليفه في أقل من خمس دقائق، أتاه الإلهام الذي عادة ما يأتي مداحي السلاطين، فانطلق ودون أن يتوقف حتى لالتقاط الأنفاس، ليذبح كلمات سرعان ما تلقاها من كانوا يقفون بالصدفة إلى جواره، وراحوا يرددونها، حملتها الذبذبات بسرعة البرق، وأوصلتها إلى أبعد منطقة، عندئذ راح الجميع ينشدون للزعيم وزوجته والمولود المبارك، ذلك الذي سيكون وريثاً في قادم الأيام.

من بعد ذلك أخذتهم الحمية، فانطلقوا يؤكدون أنهم بالروح والدم سوف يفتدون والدي الزعيم وأجداده وبقية العائلة الكريمة التي كان لها فضل إهداء الوطن هذا العبقري، الموهوب، المضحي بسعادته وهدوء البال في سبيل رفعة الوطن وعلو شأنه... هتفوا حتى هدهم التعب، فتحشرجت الأصوات، وتسلسل الأعياء، حتى من

قبل أن يفتدوا ولو بقطرة دم من ماتوا بعد أن أنجبوا للبشرية ذلك الزعيم وسلالته.

وفي الوقت الذي انضمت فيه موجات الإذاعة والتلفزيون، إلى الحشد في نقل الفعاليات، وراح مندوبو الصحف القومية يسألون الأهالي المحتشدين عن مشاعرهم في المناسبة الوطنية الكبرى، خرج من القصر الرئاسي من يشكر للجماهير ذلك التعبير عن الحب الذي يكونونه للعائلة الحاكمة، ويطالبهم بالابتعاد عن المكان، فالأم الكبيرة تعيش لحظة فارقة، وتحتاج إلى المزيد من الهدوء.

عندئذ لم يستغرق الأمر وقتاً، إذ راحت الجماهير المتحمسة تغادر، وفي دقائق معدودة كانت الميادين المحيطة بالقصر خالية إلا من جنود الحرس الرئاسي التي اتخذت مواقعها وأعادت انتشارها، فيما قامت فرق كبيرة من شركات التنظيف بإزالة مخلفات بشرية، امتزجت بشعارات تركها المغادرون، فأصبح مأواها المزابل.

في هذا الوقت، كانت الأم الرؤوم تقاسي، والأطباء الذين كانوا قد نبهوا إلى أن تلك الولادة لن تكن يسيرة، بحكم أنها الأولى لأم تقدمت في العمر، وعدوا يبذل أقصى الجهد لتمر الحالة بسلاسة، وقتها كان الزعيم قد بدأ يعرف أن جيروته، هالته، غروره الطاووسي، أحلامه الامبراطورية، غير قادرة على إنجاز عمل كهذا حشد له أقدر الأطباء، إنحنى قليلاً، لكنه سرعان ما أبعد شعوراً بالضالة راح يتسلل إلى مخاطره.

وما أن استغرق في حوار مع وزير الصحة حول تطورات عملية الولادة، حتى خرج كبير الأطباء، تتفاخر الفرحة في عينيه، بارك للزعيم وصول المولود، توقف الكلام، تركزت النظرات، تلك هي اللحظة المنتظرة:

- إنها طفلة كالقمر، لم أر في حياتي أجمل منها، حين نزلت من رحم الأم سطع في الغرفة المظلمة نور، معجزة تلك التي حدثت، لكنني رأيته بعيني، وانبهر جميع من في الغرفة، هذه بالتأكيد ليست رضيعاً، ليست بشراً، بل ملاك.

• ولكن ماذا عن أم الوطن؟ هل كل شيء على ما يرام؟

- بخير يا سيدي، إنها تتعافى الآن، لقد عانت كثيراً، كان الأمر صعباً، غير أننا قمنا بواجبنا، تعاملنا مع الحالة بما يناسبها، ستأخذ الأم وقتاً للشفاء يا سيدي، لكنها سوف تعود إلى الحالة الطبيعية التي كانت عليها قبل الولادة.

(5)

ظلت الأم لوقت، تعاني من تبعات ولادة صعبة، غير أن الأشد ألماً كان إصرار الأطباء على انتزاع الفتاة منها، وإدخالها في حضانة بجهزة خصيصاً للأطفال ناقصي النمو، ممن يعانون في العادة حين يأتون إلى الدنيا، من قصور في الأجهزة الداخلية.

حين أفأقت، ومدت يدها لتحس جسد رضيع كان إلى جوارها قبل الغفوة، انتبهت مصدومة، فلم تلامس اليد سوى لحماً طرياً، فتحت العينين بلهفة، نظرت إلى الممرضات الواقفات إلى جوار سريرها، سارعن لإبلاغها أن المولود الذي انتظرت، انتقل إلى دفء آخر، تم إعداده لضمان المزيد من الرعاية لمن يشأ المكوث داخل الرحم، فر من قبل أن يحين موعده هارباً إلى دنيا، كان عليها أن تكون جاهزة لاستقباله.

في ذلك الوقت، ظل الزعيم في مكتبه الرئاسي، وعلى الرغم من أن الوقت قد تأخر، فإن التقارير تواصلت أولاً بأول فيما الأم الغارقة

في نعباس، راحت الكوابيس تداعبها، أخذت تصرخ في أحايين وتبكي، ثمّذي بأسماء يختلط فيها من هو معروف بمن لم يسمع به من قبل، ما أربك الممرضات الواقفات على بعد خطوات، واللواتي تعرف الواحدة منهن ما يجب عليه فعله مع حالة رئاسية كذلك.

لم يجد صاحب المشاريع القومية، وسيلة للخلاص، غير الخروج من قوقعته، ومتابعة أحوال رضية هي أول المتتمين إلى صلبه، رؤيتها وهى داخل حضانتها، والاطلاع على استعدادات بلغت ذروتها للتعامل مع رضيع ناقص النمو، ما دعاه إلى ترك هموم البلاد والانتقال حيث مكان المستشفى الطائر الذي يحتل إحدى مساحات القصر الرئاسي، هناك وقف يستمع إلى شرح مفصل عن حالة الإبنه، والأسباب التي كانت وراء اختيار الأطباء للحضانة مكاناً لتعيش فيه نبتة قائد البلاد.

وحين استفسر عن الوقت الذي سينتهي فيه هذا العمل، عرف أنه يتوقف على سرعة استجابة الجسد، واتجاهه إلى النمو الطبيعي مثل باقي الأطفال الذين ينزلون إلى الدنيا من بطون أمهاتهم أصحاباء.

استدعى رئيس الفريق المشرف على الحالة، طلب تقريراً مفصلاً عن التطورات التي جرت منذ ما قبل الولادة، وما يتوقع أن تشهده في الأيام المقبلة، أراد معرفة ما الذي يمكن أن يقدمه الأطباء لإعادة الرضية إلى طبيعتها، أن تعيش مثل باقي الأطفال.

أثارت حكاية الحضانة فضوله، دفعته للتفكير فيما هو أبعد، غير أنه كان مثل كل الأباء تجاه أطفالهم المرضى... متلبساً بالهواجس، خشي فقدان من انتظر طويلاً لحظة وصوله إلى الدنيا، ازداد رعباً من احتمال أن تعاني من إعاقة لا علاج لها.

في تلك الحالة، ما الذي على زعيم خارق مثله أن يفعله، حتى لو كان كل هؤلاء البشر خاضعين لإشارة من سبابته المقوسة، ولو كانت تسخر لرغباته إمكانات الوطن، وتحقق له الأنفاس أنى شاء؟

ما الذي يمكن أن يفعله سوى الرضوخ لتعليمات الأطباء، هؤلاء الذين يخضعون في الأصل لتعليمات وزير في حكومته؟ لم يضع وقتاً، حين نبتت في ذهنه الفكرة، سرعان ما تضخمت فامتلكته، أخذته بعيداً عن المكان والوقت، عن الحدث الذي توقفت له حياة مواطنيه الصالحين، تركهم في همه الخاص يفرقون، واستغرق في ما هو أهم، استدعى وزير الصحة، هرول كالعادة حاملاً ارتجافاته، قبل أن يدلل على كونه وزيراً مهذباً، ولديه براعة في ثني الركبتين:

- سيدي إنها بخير، ستكون على ما يرام.
• لا أسألك عن هذا، إهدأ قليلاً، كن متبهاً، لترد بدقة على التساؤلات.

- أمرك سيدي، أنا طوع البنان.
• كف عن هذه العبارات قليلاً، أسألك عن الحضانة، ألا تصلح لغير الرضع؟
- هي تستخدم هكذا للرضع الذين يهبطون إلى الدنيا قبل أن يكملوا 37 أسبوعاً من الحمل.

• وما الذي ينقص هؤلاء عن غيرهم من الذين أكملوا المدة؟
- سيدي، إن الجنين أثناء وجوده داخل الرحم، يحصل على الأوكسجين اللازم للتنفس عن طريق الحبل السري من الأم، لكنه حين يهبط خارجاً من العنمة، ومع أول شهيق له عندما يبدأ بالبكاء

فإن رئتيه تمتلئ بالهواء، هذا بالنسبة للتنفس، أما عن دورته الدموية، فإن الدم القادم من قلبه وهو في داخل الرحم لا يصل إلى الرئتين بسبب زيادة الضغط في الأوعية، لأجل هذا فإن الدم القادم من القلب عبر الشريان الرئوي ينتقل إلى الأورطي من خلال فتحة بين الشريانين، أي أنه يحدث اختلاط بين الدم المؤكسد في الجهة اليسرى للقلب، مع الدم غير المؤكسد في الجهة اليمنى له.

• هذا في داخل الرحم، فما الذي يحدث عند الخروج؟

- عند الولادة، سيدي، وبعد انفصال الطفل عن الأم، في أعقاب قطع الحبل السري، ومع أول شهيق، تمتلئ الرئتان بالهواء، ويتلاشى اختلاط الدم المؤكسد بالدم غير المؤكسد، وتبدأ الدورة الدموية الطبيعية، عندئذ يتحول لون الطفل من الأزرق إلى الوردي.

• ولماذا تحدث المشاكل الصحية إذن؟

- الجنين يا مولاي، يبدأ من الأسبوع الثاني والعشرين من العمر في تكوين مادة دهنية، تكون وظيفتها تغطية السطح الداخلي للحويصلات الهوائية، وتساعد على البقاء منتفخة بعد أول شهيق، الأمر الذي يسهل عملية التنفس، وهذه العملية بالتحديد تكتمل في الأسبوع الرابع والثلاثين من الحمل.

• من لا يكمل تلك المدة إذن يفقد تلك المادة الدهنية؟

- نعم، ولذلك فإنه يكون عرضة لمشاكل في التنفس، مما يستدعي توصيل الطفل بجهاز صناعي، لمساعدته على عملية التنفس.

• المشكلة في التنفس فقط؟

- لا، فهناك أعضاء أخرى أيضاً قد تكون غير مكتملة النمو، مثل المخ والكليتين، والجهاز الهضمي، وهذه قد تسبب مشاكل متعددة مثل نزيف في المخ، وفشل كلوي، بل إن الالتهابات المعوية

الحادة التي قد تكون ناتجة من عدم قدرة الجهاز الهضمي على امتصاص الحليب تؤدي في الكثير من الأحيان إلى وفاته...

• ووزن الطفل، ماذا عنه، ألا ترى أن جسد ابنتنا هزيل؟

- سيدي، وزن الجنين يبدأ في الزيادة بشكل لافت بعد الأسبوع الرابع والعشرين من الحمل، ثم يتضاعف هذا الوزن عندما يبلغ الأسبوع الثلاثين أسبوعاً، ويزداد أكثر في الأسابيع التالية، في الوقت الذي يتم تخزين المواد النشوية في الكبد وتخزين الدهون تحت الجلد خلال الأسابيع الأخيرة من الحمل، وإذا حدث وهبط الطفل قبل هذه الفترة، فإنه يكون عرضة لانخفاض في درجة حرارة الجسم، وأيضاً انخفاض في نسبة السكر في الدم، الأمر الذي يؤدي إلى التأثير سلباً على الطفل.

• وما الذي يمكن للحضانة أن تفعله مع من هبط إلى الدنيا ولديه كل تلك المشاكل؟

- سيدي، حين يكون الجنين داخل الرحم يكون بحاجة إلى مقومات معينة كي يستمر في النمو، ومنها الغذاء الكامل، الذي يصل إليه عن طريق المشيمة، وأيضاً درجة الحرارة المناسبة، وإبعاد الجنين عن المؤثرات الخارجية، كالميكروبات، فإذا تمت ولادة طفل مبستر فيجب على الفور مثلما حصل، مع ابنتكم المبجلة، أن يتم وضعه في الحضانة.

• ألم تدرك معنى سؤالتي؟ كف قليلاً عن الارتجاف، وأخبرني بما يمكن للحضانة أن تفعله؟

- الحضانة يا سيدي، هي جهاز يوفر ظروفاً مشابهة للرحم الطبيعي، إذ يستطيع ضبط درجة الحرارة بما يناسب الطفل المبستر، ويمنع المشاكل الناجمة عن قلة الدهون تحت الجلد والتي منها تبخر الماء السريع، وما قد تؤدي إليه نقص السوائل في الجسم من فشل كلوي

وهبوط في ضغط الدم، كما أن بقاء الطفل داخل الحضانة يعده عن الميكروبات والجراثيم الموجودة في الجو.

• ما دامت الحضانة قادرة على توفير ظروف ملائمة لإعادة الأطفال إلى الحياة الطبيعية، فهل يمكن أن يسري ذلك على من أهم أكبر عمراً؟

- إنما للأطفال الذين يولدون لتوهم، ناقصي النمو.

• وإذا كان هناك كبار يعانون أيضاً من نقص النمو، ألا تصلح الحضانة لإعادة تقويمهم، لإزالة السلوك السيئ منهم وتقويم سلوكهم، أعني إعادة صياغتهم بشكل أفضل؟
- سيدى، الحضانة للصغار.

• فلنجعلها للكبار، عليك دراسة الأمر، بما يجعل هذه الفكرة تتحقق؟

أصابت الدهشة الوزير فانعقد لسانه، غير أنه لم يجرؤ على الإفصاح بما اضطره داخله، كان المسموح له محدداً بالاستماع، ثم الموافقة على ما قد يطرأ في ذهن الملهم من جنون، فتعيينه ومن أسندت إليهم المناصب، تحدد بإبداء الطاعة، والاستماتة في جعل المستحيل من الهواجس مجسداً، والخيالي ممكناً، كان المطلوب منه، تقديم دراسة وافية ومحددة عن إمكانية استخدام الحضانة في علاج من تخطوا سن الحلم.

راح يحشد إمكانات الوزارة، أصدر أوامره بأن تكون القيادات في حالة انعقاد دائم، حتى يتم التوصل إلى نتائج تصب في النهاية باتجاه واحد، يحقق ما خطر على بال هي الطلعة، على الوزارة وكل أجهزة الدولة تسخير ما لديها لأضغاث أحلامه، تلك التي عادة ما تكون في أقصى درجات جنوحها.

لم يستغرق الأمر وقتاً، فمع إصرار الوزير على إنجاز المهمة، تحول المبنى إلى خلية نحل، تفرغ كل من فيها، للمهمة الوطنية. وقبل الموعد المحدد، كان يحمل تقريراً كاملاً، مشمولاً بدراسة تفصيلية لمشروع تجرى بموجبه التعديلات، كي تصبح الحضانة قادرة على التعامل مع الكبار.

ابتهج الزعيم حين تسلم التقرير، وراح يستمع إلى ملخص وافٍ، وجدده يصب في الاتجاه الذي خامره منذ تابع تفاصيل الوضع الصحي لابنته.

استند على هذا التقرير، أبعد عن ذهنه ما يشغل، أزاح هموم الأمة وأحداثها، وتجاوز حضانة ابنته إلى ما هو أكبر، توجه سريعاً إلى حديقة القصر الرئاسي، راح يدور هناك، دورات عدة، مستغرقاً بكامل حواسه في هدف وطني جديد، بزغت في ذهنه العديد من التفاصيل، راح يلور الأفكار، نجح في نهاية الأمر في بلورة تصور لقرار بات يضع له اللمسات الأخيرة، هنا لا بد من دراسات قانونية وفقهية، وأخرى تتناول الأبعاد التي يمكن أن تنتج عنه، التأثيرات الدولية والتوازن الداخلي، ثم التنبؤ بما قد يترتب عليه فيما بعد من نتائج.

(6)

الزعيم الذي غرق في تصوراتهِ لمستقبل الوطن والمواطنين، تناسى في لحظات اعتبرها فاصلة في تاريخ البلاد، أمر زوجته كانت لا تزال تحت الرعاية الفائقة، لم يأبه كثيراً بما وصله من أخبار حول تطورات صحتها، وهو ما دعاها حين أفاقت للمرة الثانية، للسؤال عن بعل كهذا مستغرق في أمور أخرى، بعيدة الصلة عن من وضعت للتو أول أطفالهما، أو مات إلى اقرب طبيب

كان يقف إلى جوارها، طلبت منه ابلاغ الزعيم برغبتها في رؤيته.

على وجه السرعة جاء، لم تستطع في وضع كالذي كانت عليه، أن تكتم غيضاً ظل يتفاعل داخلها، سألته حين رآته يومئذ لمن في الغرفة بالخروج، إن كان يتابع حالة الابنة التي يفترض أن تشغل تطوراتها الصحية الخطيرة جانباً مهماً من اهتماماته، وجهت له لوماً غاضباً على الرغم من كلماتها الواهنة، راح ينظر إليها، غير آبه، لكنه لم يكن قادراً على إظهار ما يبطن، إذ لم يكن تفكيره ليتوقف في ذلك الوقت، عند حالة تضع فيها الأم طفلتها، بل أحوال الوطن الذي ضربت فيه المواطنين موجة استكانة واصفرار، فيما كان الأطباء يرجعون السبب إلى فيروس غير مألوف اخترق البلاد منقولاً عبر هواء خارجي، قادم من دول تضرر شراً للوطن.

أكد الأطباء أن هذا الفيروس هو المسؤول عن حالة إعياء مست أبناء الشعب بمختلف أعمارهم، الأمر الذي يتطلب اتخاذ قرار عاجل، يكون كفيلاً بوقف رخاوة أخذت تنتشر كالنار في الهشيم، وتساهم في تفاقم البلاء وفقدان الحمية.

كانت الحالة التي اجتاحت الوطن غير خافية، فتطوراتها تصل إلى الزعيم أولاً بأول، وكان في قرارة نفسه يتصور أن الأمر يعود إلى صفات جينية لدى الشعب، تمنعه من إبداء الاستياء، جعلته يتماشى طيلة السنوات الماضية مع كافة الظروف، وممالة من تلقى بهم مصادفات العالم الثالث في مقاعد السلطة.

فسر الأمر أيضاً بأنه راجع للتسابق على إبداء فروض الطاعة، طمعاً في عطايا وكفاً لشورور، قد تنتج يوماً عن تقرير أممي يكتبه

أحمق، فيأخذ البشر بالنوايا، ويتسبب حتى لمن هم في أقصى درجات المسألة بأذى.

تطلب الأمر، اتخاذ القرار الذي ظل يتداول صيغته خلال جولاته في الحديقة الرئاسية، في أعقاب حصوله على تقرير الوزير، ذلك القرار الذي بزغ في الذهن وقت أن رأى الرضیعة ممددة فوق سرير معقم، محاط برعاية لا تغيب عنها طرفة العين.

رأى المحاليل تعطى للرضیعة من الأنف، تابع الفحص اليومي لوزنها، ترك زوجته تلقي باللوم كيفما شاءت، هكذا اعتاد، هذه المرة تعيب عليه عدم الاهتمام بآبنة هي الأولى في سلسلة أبناء قرر أن يهبهم للوطن، كي لا يتركه - بعد عمر طويل - في مهب الريح.

ليدعها تقول ما لديها، حتى تحين الساعة التي تشعر فيها بالإفهاك، فتميل رأسها أي جهة، وتنام، أما هو، فيعرف ما الذي يجب عليه عمله، التفكير في هذا الشعب، والبحث عن طريقة يمكن بها إنقاذه، حتى لو استغرق الأمر وقتاً، كان يوهم ما حوله بعبارات خادعة، بينما لا يريد في حقيقة الأمر من هذا الوطن ولا من مواطنيه إلا ما يساعده على تحقيق أحلامه، لتذهب الأمة إلى الجحيم، وليذهب أفرادها وقوداً في أي معارك قد يتفتق عنها ذهنه، المهم أن يكون الشعب قادراً على تحمل مسؤولياته التاريخية بكفاءة.

ما أن سمع صوتها يتحول ببطء إلى حشرة، حتى أدرك أن الفرج بات قادماً ولو بعد دقائق، غير أن الأمر لم يستغرق سوى لحظات مالت بعدها الرأس نحو جهتها المفضلة، وراح الوطن وأمه في سبات، انتهز في أعقابها الزعيم الفرصة، ليمضي خارجاً، متجهاً على الرغم من الوقت المتأخر إلى مكتبه الرئاسي لاستكمال تفاصيل جديدة، لاحت له وهو يرى زوجته على سرير المرض.

الصور تكاملت، اختلطت ببعضها الأفكار والمشاريع، الأحلام والاختراقات، والخطوط العريضة التي وضعها، والتفاصيل التي قدم شرحاً لها كل جنود الوطن المخلصين: الأطباء المتخصصون والمهندسون، رجال القوات المسلحة، وفقهاء السلطان، رجال التوجيه البارعين في تعبئة الجماهير، كل الأمور اختمرت في ذهن الداهية، وبقي عليه في الخطوة التالية، أن يتكرم بتحديد ساعة الصفر، تلك الساعة التي لا يجب أن يقف أمامها عائق حتى ولو كانت ابنته الرضيعة التي انتظر، أو كانت امرأته، أو نبت تلك العوائق من دول خارجية تواصل مراقبتها لتطورات الوضع.

في تلك اللحظات بزغت سراً، فكرة بناء حضانة كبيرة تدور أركانها حول زوايا الوطن، تمنع عنه الهواء الملوث، وتمنح أبناء الشعب رعاية سريرية متكاملة، وخدمة فندقية فائقة، يوضع بموجبها جميع الأفراد داخل وحدة هائلة للعناية المركزة، يتعاطون فيها الغذاء والدواء، وجرعات مكثفة من التوجيه المعنوي، والدروس الدينية، متزامنة مع حصص للتربية والتهديب، تكفي لإعادة صياغة البشر، وتعيد إلى عروقهم نبضها، تساهم في دفعهم للإكثار من عشق الوطن، وتلبية نداءات القائد مهما كانت، لأن في تلبية إرضاء له، ومنفعة في الدنيا.

كانت تلك هي المهمة التي حين أسر بها فيما بعد لكبار مستشاريه، باركوها، اعتبروا أنها لم تخطر من قبل على مخيلة بشر، فكرة عبقرية، من تلك التي يجود بها الزعيم كل فترة، لتنضم إلى رؤى مبدعة، يقدمها خدمة للوطن ومواطنيه.

أصبح الطريق ممهداً، من كل الجوانب، فقرر إصدار القرار، على أن يكون في مراحله الأولى مجرد سر، غير قابل لأن يعلم به

أحد من خارج الدائرة القريبة جداً منه، حتى لو سعت أعتى أجهزة التحسس لكشفه.

(7)

ما أن انتهت عملية الولادة بسلام، حتى بات عليه أن يفكر مجدداً في أمر خلافة المقعد الرئاسي، كانت التقارير الطبية التي تابعت مرحلة إخصاب، ثم حمل الزوجة قد خلصت إلى نتيجة واحدة، هي أن هذه السيدة التي امتدت أنشطتها الاجتماعية في مجالات عدة، وارتبطت بشكل أو آخر بمصائر العديد من الأسر المتوسطة والفقيرة، واكتسبت عبر ذلك شعبية جارفة، لا تتجاوزها إلا المكانة المحفورة في أفئدة الشعب لرعيه، هذه السيدة وفق التقارير لن تكون قادرة على تكرار الحمل، وإنجاب الأطفال، لم يعد من الممكن إعادة تكرار الجهود الكبيرة، التي استنزفت من خزانة البلاد تكاليف باهظة، كما أن جسدها لم يعد بعد رخاوته، يتحمل المزيد، عليها أن تعرف هذه الحقيقة، وعلى الزعيم إدراك أن الأمل في إنجاب ذكور منها، تحول إلى سراب، وأمنية من تلك التي تذروها الرياح بعيداً.

ومع أنه منذ البداية كان على اطلاع تام بالأمر، فقد فضل أرجاء اتخاذ قرار، إلى الوقت المناسب، مراعاة لشعور زوجة، يضع لغضبها ألف حساب، ولا يريد إعطاء انطباع لمواطنيه بأن زعيمهم لا يعرف للوفاء قيمة، وأنه في لحظة واحدة، وحين اكتشف جفاف ينابيع الخصوبة، سرعان ما غدر بأمر الشعب.

يعرف أن انطباعاً كهذا لن يستطيع مهماً فعل أن يمحوه من ذاكرة الأمة، ولن تقدر الفتاوى، ولا بحار الحبر على تغيير ما علق بالذاكرة في وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى رص الصفوف.

ومع أنه بين يوم وآخر، ووفقاً لما تمكّنه المسؤوليات، كان يقوم بزيارات للحضانة، حيث تقبع الطفلة، إلا أنه كلما انتقل إلى هناك، بزغت في ذهنه تفاصيل راح يضمها إلى أخرى، اختمر المشروع تماماً في ذهنه وتشبث به، بات يؤكد لنفسه أنه لا سبيل سواه لتعديل الطباع.

ولما جاء وقت المواجهة بين الزعيم وأم الوطن من جديد، فإن الاتفاق الأول الذي تم كان ينص على امتيازات سوف تحصل عليها من الأشياء العينية والنقدية، كي توافق له على الارتباط بزوجة أخرى تنجب له وريث المنصب الرئاسي، غير أنه بقدوم الابنة إلى الحياة، حتى وإن كانت قابعة في عناية فائقة داخل حضانة، فإن المعادلة هذه المرة باتت مختلفة، رأت أن هناك حاجة بعد تلك التطورات، لأن يكون الاتفاق مختلفاً، وأن يدخل عليه طرف ثالث لم يكن عند التوصل له قد جاء بعد إلى الدنيا، كان الزعيم هذه المرة أشد لباقة وهو يقول لها:

• تعرفين أنني ما كنت أرغب أن يرث السلطة من بعدي، من لا يكون خارجاً من رحمك الطاهر، لكنها الأقدار، كانت بالمرصاد لأحلامنا، وتعرفين أنك ستبقين الزوجة والأم، وستظل مكانتك لدى أكبر من أي مكانة، لكن هناك ما يضطريني إلى حماية كرسي الرئاسة، وألا أتركه يذهب إلى أحد الدهماء، وأبناء السوق، أنت لا ترضين بعد كل هذا التعب، وبعد التضحيات التي بذلناها من أجل الوطن، أن يأتي "جربوع" ويتولاها، وفي تلك الحالة، إذا كان كريماً معنا فإنه سوف يتركنا نعيش بنفس طريقة هؤلاء الكسالى الخائبين الذين يشكلون غالبية الشعب، إن هذا كما أنا أعرف، لن يرضيك.

- ولكن، أيرضيك أنت أن أتحوّل إلى "الزوجة القديمة" بعد كل التضحيات التي قدمتها؟

• هذا كلام اتفقنا عليه، وانتهى الحديث فيه من قبل أن تولد ابنتنا، مكانتك ستظل محفوظة، وامتيازاتك كما هي، لا شيء سيغير ما رتبناه.

- ولكن هناك أمور استجدت الآن، لا تحاول أن تمنحني انطباعاً بأنك لا تفهم مغزى ما أقول، هناك الإبنة، أليس من الضروري أن نوفر لها ضمانات لاثقة بابنة زعيم مبجل؟

• لا اعتراض لديّ، ولكن اتركي هذا الأمر إلى الوقت المناسب.

- أي وقت مناسب، تقصد إلى أن تفعلها وتزوج؟

• نعم ليكن الزواج أولاً، وبعدها سنرى تطور الحالة الصحية للإبنة، ثم نقرر بعد خروجها من العناية المكثفة.

- هذا ما لا يجب أن يحدث، فلا يمكن أن نتطلق إلى الزواج، قبل أن نتفق على تربيّات جديدة سوف نتعامل بها مع الإبنة، لن أنتظر حتى تخرج من الحضّانة، لتتكلم الآن.

• وما الذي تطلبينه لها، ما الذي يجعلك ترضين بإغلاق تلك القضية، كي تتفرغ لمهامنا.

- أطلب لها نصيباً من الثروة، ومن السلطة، اتفاق واضح، لن أقبل بوعود، ولا بكلمات مخدرة، أريده مكتوباً بنسخ متعددة ينفذ في الوقت المحدد، وعليه شهود.

• أي سلطة لرضيعة لم تكمل أياماً معدودة، أي سلطة وهي لا زالت في العلاج، لماذا لا تتركين هذا الأمر لوقت آخر، أعدك بتحقيق ما تريدين، ولكن كيف يمكن أن نحدد أنصبه، بينما الذي سوف نخصص لها لم يكّد يصل إلى شاطئ الدنيا؟

- المفروض أن الكلام حول هذا الشأن منذ كنت حاملاً فيها، كان يفترض أن ينتهي، وارجاء ذلك كان تقديراً مني للظروف التي كنت مشغولاً فيها.

• ليكن، أنا أعرفك جيداً، ما دام الأمر داعب مخيلتك، فإنه سيكون من الصعب أقناعك بغيره.

- كأني أتحدث عن ابنتي فقط، أليست هي ابنتك أيضاً؟ لماذا لا تهتم بها؟ ألا يكفي أنك لم تعط لمجيئها العناية اللائقة بأب تجاه مولود؟

• من المفروض أنك على معرفة بالهموم الرئاسية التي لا تترك لي وقتاً، للاهتمام بالأمور الشخصية، كنت أتوقع منك تقديراً لهذا.

- كل الحكام لهم ما يشغلهم، لكن هناك أمر من الضروري أن تنتبه له، هو أن ظروفاً تستجد، منها ماهو خاص بالعائلة، وأظن من المهم حين تلد المرأة أن ترى في عيون زوجها الלהفة، والخوف عليها.

(8)

في تلك اللحظة كان يدرك أن لا شيء هناك سوف يخسره، عليه أن ينهي جدلاً أدخلته فيه زوجته، تلك التي لم تكف قبل إنجائها باقتناص لقب "أم الوطن" تعويضاً للحرمان، ها هي حتى بعد أن أنجبت، لم تعد قانعة، وتريد المزيد، وعلى الرغم من أنها السيدة الأولى وأم الشعب والوطن بكل ما يحتويه، تساوم على امتيازات جديدة لها وللصغيرة التي لم يكذبوا عيناها يريان ضوء النهار بعد، لم تصب الزعيم اندهاشة، فهو يعرف ما الذي يدفع بالزوجة للاكتثار من مطالباتها، يعلم أن لا حدود لأطماعها.

طلبت منصباً للإبنة فمنحها وعداً، ثم تعهد كتابة في عقد شهد عليه شخصان من كبار العاملين في المكتب الرئاسي، باعتلاء الإبنة سلم الدولة وبما يضمن لها التساوي في المناصب العليا، مع الأبناء الذين قد ينضموا يوماً إلى أفراد عائلته، وأن يكون لها نفس السلطات، وأن يتم استشارة أم الوطن والأخذ برأيها في التعيينات التي يختار لها أبناء من صلب الحاكم.

كان هذا الاتفاق، هو الأغرب في تاريخ الأسر التي حكمت دولاً في العالم، لكنه جاء في سياق القوانين والقرارات التي مهرها الزعيم بتوقيعه، والتي كان من بينها فرض الحراسة على العديد من الأسر لمجرد أن أبلغته الجهة التي تراقب أجهزة المواطنين التنفسية، أنها أقامت أعراسها في الوقت الذي كان هو فيه قلقاً، وكانت أم الشعب فيه تعاني من قسوة الولادة، وكان من بينها القانون الذي كان يمنح لرئيس البلاد الحق في اعتقال أي شخص في أي وقت وبدون إبداء أي سبب ولأي مدة، دون أن يكون لهذا المعتقل الحق في التظلم أمام أي جهة.

وفي ظل هذا، كان الاتفاق العائلي لتوزيع التركة التي اختطفها الزعيم ذات يوم بإعانة دبابة وبعض الجنود، مجرد نقطة في بحر مساحر قوانين قام الخائنون بتفصيلها لتواءم مع طموحاته وتحوله بتدرج من قائد محبوب، يتظاهر بالتواضع، يعف عن الهتافات، إلى زعيم مغرور، تحتفي عيناه وراء نظارة سوداء، ويتحول من ادعاء الزهد، إلى حض معاونيه على نشر أكبر عدد من المجسمات، وحرص الشعارات الداعية له بطول العمر، في الشوارع والميادين.

أعاد الأغاني إلى سابق عهدها، فأعمل صناعات القريحة، وعاد اسمه يصدح في الإذاعة الرسمية، بعد أن اعتقد الناس أن حبيب

الملايين، ورجل الإيمان وصاحب الطلة، ليس أكثر من مجرد طاعية، ينتشي بمن يهتفون له، ويمنح العطايا والمناصب، الحقايب الوزارية، وأنواع المدد المالي والمعنوي للقادرين على زيادة جرعات النفاق. كأن شيئاً لم يكن، عادت البلاد إلى حالتها، على مستوى الأمة، وعاد أبناء الوطن يستيقظون مبكراً، يستهلون يومهم بالدعاء أن يحفظ الله للشعب ملهمه، أن يطيل له العمر ويوفق خطواته.

ولما حقق للأم الخالدة ما أرادت، انفتح الطريق أمامه لترتيب الحكم، وكان الهدف التالي هو الزواج بأخرى، وبذر أقصى ما يستطيع إنتاجه من الحيوانات، في تربة خصبة، تعوضه عن الأيام التي أضاءها حارثاً في صحراء.

وهكذا في اللحظة التي وقّع فيها على الاتفاق، خرج مسرعاً من جناح الزوجة إلى حيث كان ينتظره كاتم أسرار، ومتعهد تزويجه، يطلب منه إعداد عش الزوجية، لمن اختارها في التصفيات النهائية للمسابقة، ساحرة العينين، مليحة القد، باذخة الجمال، التي ستصبح الزوجة والأم المفترضة للوالي المنتظر، ذلك الذي سوف يخترع له البارعون في أساليب البلاغة، بمجرد بزوغه، بركات وفضائل لا عدد لها ولا انتهاء.

لم يجد المارشال هذه المرة ضرورة للاستعجال، دعاه للتريث حتى تمر الإبنة من المحنة، قدّم إليه نصحاً بارجاء الزواج ذاته تقديراً للظروف الحالية، ومشاعر أم الوطن، وقلق الشعب، أكد له أن التأجيل سوف يحسب لصالحه.

وللمرة الثانية، وجد الزعيم نفسه، يرجى ما كان اعتزمه، وجدها فرصة للاطلاع، كلما سنح الوقت، على أحوال الإبنة داخل

الحضانة، طلب من المارشال استدعاء وسائل الإعلام لتصاحبه في تلك الجولات، أمر أن يتصدر خبر كل جولة عناوين الصحف ونشرت الأخبار وأن يعاد بثه طيلة اليوم في برامج في الإذاعة والتلفزيون، كان يريد استغلال الأمر في الدعاية، لا بدافع الأبوة، بل لإشباع رغبة لدى شعب، يزداد إعجاباً به كلما أطل عليه من شاشة التلفزة، ورأه يتجول في المستشفيات، كان يزداد اقتناعاً بمزايا قائده العطوف، الودود والمحب لمواطنيه، المتابع لأحوالهم، سيرونه في تلك الجولات أباً من النوع الفاخر، يقوم بنفسه بالانتقال من غرفة إلى أخرى داخل القصر الرئاسي، حيث ترقد في إحدى الحضانات، فلذة كبده، وأمل الأمة، الإبنة التي جاءت بعد طول انتظار.

هكذا جاء التحول، من قائد ظلت صورته الرائجة تشير إلى الزهد والبساطة، التواضع والحكمة، إلى حاكم مثل كل المتحكمين في الدول القابعة فوق أجزاء من الخارطة، يعشق الاستعراضات، ويجيد التعامل مع الحسناوات، وتجتاحه النشوة ان أطلقت إحداهن ذات لحظة ضحكة غنحاء.

لم يعد يضع أي حساب للشعب، لا في عشقه الوله، ولا في بغضه المكتوم، ولا في اعتماد البلاهة حتى في الحالات التي تتطلب تفاعلاً.

أخذ يتابع حالة الإبنة بشكل مكثف، هذه المرة كان يزور المكان بين وقت وآخر، وحتى في الأيام التي لم يكن يذهب إلى هناك، فإن تقاريراً صباحية ومسائية كانت تصل إليه بتطورات الحالة، بالفحوصات والتغذية وإمكانات التحسن، والأجواء المحيطة بها، وهذا هو الأمر الذي أسعد أمماً سبق أن أقمته بإهمال الإبنة، بات الآن حتى دون أن يقصد أباً مثالياً، وهو ما زاد من تقديرها، ومن زيادة تمسك

الشعب به، لكنه هو نفسه كان يهدف من تلك المتابعة، إلى معرفة كل ما يمكن أن يحدث في حال الإقدام على مشروعه الكبير، الذي سيتمكن فيه من جعل تلك الحاضنة الصغيرة، التي تكاد تتسع بصعوبة لطفلة لا يتجاوز طولها عدة سنتيمترات ولا يزيد وزنها عن ثقل كرة قدم، إلى مشروع أكبر، أشد اتساعاً، وأن يكون النزيل فيه هذه المرة ليس مجرد عدد من المواليد الهابطين لتوهم من دفء الأرحام.

كان الهدف أكبر من الأحلام التي مرت على مخيلة البشر، فكرة لا تنبع إلا من عقول زعماء أفذاذ مثله، لا يستطيع أن يجاريهم في درجتها، إلا هو، حيث لا منافس، ولا مفكر، ولا أحد.

هو الزعيم العبقري، أمل الأمة ومصدر كرامتها، فخرها واطمئنانها، ها هو هذه المرة يستنبت فكرة عبقرية، انطلقت في لحظة متابعته لابنته، لتأخذ أبعاداً أخرى، تحولت من مجرد حاضنة لرعاية طفلة، إلى سجن صحي كبير لإعادة تقويم شعب.

(9)

ما أن استوى الأمر، وبدأت الحضانة واقعاً، حتى وزّع حصص البلاد رسمياً على الأبناء، أعطى لكل واحد منهم واحدة من الشطائر، ولاية منفصلة عن الأخريات لكنها مرتبطة بالكامل بوطن أصبح يتكون من أربع ولايات لكل منها حاكم وحكومة وبرلمان، على أن يكون الزعيم هو حاكم الجميع، والقائد الأعلى للجيش الموحد، الرئيس الأعلى لكل السلطات في الدولة، وهو في الوقت نفسه رئيس المجلس الأعلى للرياضة والمجلس الأعلى للصحة والأعلى للتعليم والمالية والإعلام والآداب والثقافة، والمجلس الأعلى لحماية القيم.

كل السلطات الأساسية والهامشية اجتمعت في يديه، أمسك
بزمam البلاد، وما يتحرك فوق أرضها، كل حومة لطائر، ديب
لحشرة، أنه لمريض، وشهقة لكائن من الكائنات التي تقع تحت رعاية
حامي الحمى، وباعث الأمن والسكينة في النفوس.

وما دام الحال كذلك، لم يكن ليضيره أن يتنازل عن بعض
السلطات الشكلية، على أن يتم صب الجهود، في نفس المسار الذي
اختطه منذ البداية، تأمينا لسلوك الشعب ومراعاة لخصوصياته، ونأيا
به عن ما يحدث لدى الآخرين من ممارسات غير راشدة، إذ كان
يزعجه في الكثير من الأحيان ما يقرأه في صحف الدول الجارة من
دعوات للمزيد من الحرية، والشفافية، والضرب بيد من حديد على
الفساد ورموزه، ومن مطالبات بمزيد الحقوق للمواطنين في التعليم
والصحة والترفيه، دعوات إلى اقتسام السلطة، والسماح بمأمش أكبر
للتعبير في الجامعات ووسائل الاعلام، والإقرار للتيارات السياسية
والنقابية بالتظاهر والاعتصام السلمى، بل وحرية تشكيل الأحزاب.

لم تكن مثل تلك الكتابات تروق لزعيم مثله يقود شعباً وديعاً،
يفضل معظمه الابتعاد عن الشر، ثم الغناء له، إذ كان لديه يقين لا
يتزعزع بأن الشعوب التي تقع في المنطقة، قاصرة وناقصة للعقل
والدين والحصافة، وإن هكذا شعوب، لا بد أن تقاد بالخيزران
أحياناً، وحيناً بالاغداق الذي يسد العينين فلا ترى، ويغلق الأذنين
فلا يعود لها السمع، إلا حين تجوع.

تلك هي القوانين التي يعتمد عليها حكام ابتليت بهم بلادهم، وهي
التي يتبعها المفدى، ويواصل بها الحكم، وهي الوصايا التي لا يمل من
ترديدها على مسامع الأبناء، الذي أصبحوا حكماً حتى من قبل أن
يدركوا أي معنى للقيادة والحكم والسياسة وارتداء القمط.

كانت الابنة هي الأكبر قليلاً بين الحكام، على الرغم من عدم مرور وقت على خروجها للحياة، لكنها منذ أن جاءت الدنيا وأمها التي هي أم الوطن، تعتبرها مشروع حاكم، وترى أن وجهها منذ لحظة الميلاد كان يحمل قسما حاكم.

تلك الفتاة، وفقاً للاتفاق المبرم بين الأب والأم وبشهادة الشهود، منذ الأيام الأولى لولادتها، تشرفت بها أكبر الولايات مساحة وأكثرها اكتظاظاً بالسكان، بعد أن قام الزعيم بمحشد عشرات المستشارين إلى جوارها مع رجال الدولة الذين جرحهم بنجاح في كثير من المواقف، ممن يمتلكون رزمة من المواهب، من أهمها المقدرة على معرفة ما يتغيه، من قبل أن تصدر عنه إيماءة.

هؤلاء كانوا هم حكام الولاية بالنيابة عنه، يعودون إليه في كل صغيرة وكبيرة، فيما كانت الابنة مجرد صورة داخل الإطار المرسوم، وهو الشكل الذي ارتضته الأم كي لا تخرج من "مولد" التوريث بلا غنيمة، وكي لا تقول كل تركة الوطن إلى أبناء الزوجات اللواتي انفتحت شهية بعلها هن، على الرغم من أن الصغيرة التي كانت لا تزال تعاني بين الحين والآخر من توابع هبوطها من رحم الأم خديجا، وانتظاراتها الطويلة في داخل الحضانة، حتى تلك اللحظة التي رأي فيها الأطباء بعد سنوات، ان بالإمكان إخراجها من تابوت الأحياء، على أن تعيش تحت الرعاية الفائقة، وألا تترك تحت أي ظرف عرضة لعوامل جوية أو تقلبات بيئية.

هكذا أصبحت حاكمة لجزء من شعب وضع بأكمله في إقامة جبرية داخل حضانة متسعة، اسمها الوطن، وهو ما اعتبره الجيران عقب انفضاح الأمر، من سخرية القدر، إذ أصبحت فتاة كتلك في منصب الحاكم لأكثر شظيرة، ولأكبر عدد من السكان، غير أن تلك

الدول نأت بنفسها عن التدخل في الشؤون الداخلية، واصلت هذه المرة مقاطعتها للحضانة، واستطاعت التكيف مع الوضع الجديد، واعتبرت العلاقات أمراً لا يستحق عناء النقاش.

انقطعت دولة الحضانة عمّا حولها، قرر الزعيم أن يزرع الأرض بسواعد شعبه، ان يستغل الطاقات الممكنة للخروج من حالة النبذ، فلا صديق أو شقيق عاد يترك الأبواب، منذ أن قرر الرجل المهيب اعتبار مواطنيه خدجا، اتخذت الحكومات موقفاً، تطور فيما بعد إلى مقاطعة شاملة، نأت جميع الدول بنفسها عن التعامل مع شعب اعتبرته الشائعات أجرباً، مسلولاً ومصاباً بكل الأمراض، تآثر اللغظ في كل الأرجاء مفسراً القرار، وإلا فكيف يمكن تبرير الأمر؟

تطورت الأمور، على عكس ما كان يتبغي والد الشعب، إذ لم يخطر على ذهنه أن بلاده سوف تجرد نفسها في النهاية معزولة، بعد أن استوت القبة في مستقرها، وأظلم الوطن، واحتجبت شمس.

لم يكن الأمر يسري على المطار فقط، إذ أصدر أوامره بتنفيذ ما تتطلبه خطة الحضانة، من إغلاق البوابة الوحيدة أمام العابرين من داخل الوطن إلى خارجه، توقفت المواصلات والاتصالات بين بلاده والعالم الخارجي لا شيء يدور إلا في داخل الوطن، فالنهر الوحيد صنع له جداراً، كان كفيلاً هو الآخر بمنع عبور الأسماك المشاغبة، وتطلب الأمر توليد طاقة تكون قادرة على تغطية الحاجة من الكهرباء بعد أن تم الاستغناء عن حرارة الشمس، وبالقدر الذي يكفي لتشغيل أجهزة الحضانة، والا فإن نتائج انقطاعها ستكون كارثية، وكل الجهود، والخطط التي سهر عليها، وتلك الدورات التي قطعها في حديثه الرئاسية وأعمل فيها فكره، ستسفر إذا ما تعطل جزء واحد من أجزاء المنظومة، عن ضياع هائل وخسارات فادحة، قد تهدد آمال

قائد الأمة وتقضي على مشاريع، تعد الحضانة رغم كونها عملاً جباراً، مجرد خطوة واحدة مطلوبة للوصول إلى تحقيق الحلم المستهدف.

بعد وقت من إقامة الحضانة، سارت الأمور وفق ما ابتغى، استسلم الشعب لفكرة انه ناقص النمو، راح تحت تأثير الدروس التي اضطلع بها فقهاء الحاكم، ومقالات الصحف، يؤمن أن ما فعله القائد يأتي من باب الحرص عليه، وان تلك الطريقة التي اختارها للتعامل معه، تحسدهم الشعوب الأخرى عليها.

أيقن المواطنون الصالحون في النهاية بعد أكبر عملية غسيل دماغ انهم قاصرون وفي حاجة للأدب، وان عليهم لاستكمال الفضيلة، واللحاق بالعصر ومسيرة الشعوب الراقية، ان يستمروا في إبداء الطاعة التامة لما يأمر به الزعيم، وما يراه، فهو العارف بما يناسب، وما ينفع في الدنيا والآخرة، وما عليهم إلا الاستماع للتعليمات، وتنفيذها حرفياً، "فإن في ذلك فلاحاً ومنجاة"، وفيه طاعة أيضاً لولي الأمر، الذي وهبه القدر لهم.

ومع ان الشعب تماشى مع التطورات الجديدة ورضخ للأمر الواقع، إلا أن مشكلات أخذت في الظهور، لم تكن بعد قد خطرت في الذهن العبقري، أو مرت على بال من حوله من مطأطي الرؤوس استحساناً للدرز الطالعة دائماً من فمه والمختلطة بدخان سيجاره.

أخذت المشكلات بالظهور مع مرور الوقت، بدت في أول الأمر مثل بثور صغيرة، سرعان ما تورمت حتى صارت ثآليلاً، امتلأت على الفور بصديد، لم يتمكن لا هو ولا مستشاروه أمامها، إلا الوقوف مذهولين.

ظهرت أولى المشكلات، مع العالم الواقع خارج حدود الحضارة، فالوفود التي أرسلها الزعيم عقب تنفيذها، لتشرح الفكرة، بعد وقت من الإخفاء، والتصريح بمبررات كاذبة، والتي راحت تطلب إعادة العلاقات في أقرب وقت، قد رجعت لقائدها الممام برد واحد وان اختلفت صياغته من دولة إلى أخرى:

"إن طلبك يا سيادة الأخ الرئيس مرفوض، فكما أن من حقل أن تغلق بلادك وقت تشاء، فإن من حقنا نحن أيضاً، إبلاغك بأن من مصلحة بلدنا النأي بنفسها عن التعامل مع دولة منكوبة، تضم شعباً مصاباً بأمراض خطيرة، وأن علينا أيضاً حماية شعبنا من التعرض للإصابة بالفيروسات المنتشرة لديكم والتي استدعت وضع وطن بأكمله داخل بوتقة".

أسقط في يده هذه المرة، إذ لم يتصور أن يرفض حاكم، من الذين تربطهم بشعبه وشائج الدم والقربى والمعتقد، يده الممدودة، لم يكن يتخيل يوماً أن يرسل موفديه إلى الحكام شارحين السبب وراء إنشاء الحضارة، ويقومون هم بالتشكيك في صحة المبرر، معتبرين ان من كذب في البداية، يجب أن لا يصدقه أحد في النهاية.

فكّر الزعيم أن يقوم هو بنفسه بجولات مكوكية إلى تلك العواصم، على أن يبدأ بزيارة الدول الشقيقة، ثم ينطلق بعدها إلى الصديقة، التي يمكن الاعتماد عليها في المساندة داخل المحافل الدولية، خصوصاً عندما يقوم بإطلاق العد التنازلي للبدء في مشروعه الامبراطوري.

لكن الزعيم المهيب، ما أن أبلغ رغبته إلى إخوانه الأشقاء من القادة، حتى سمع منهم رفضاً مباشراً، وآخر مبطناً، كأنه قط أجرب يجب على الأرناب أن تبتعد عنه، وألا تسمح له تحت أي ذريعة

بالاقتراب منهم، على الأقل فلا حوار ولا كلام ولإلقاء، يسبق وضع نهاية لحكاية تلك الحضانة، وإعادة الأمور الطبيعية إلى بلاده.

أما الدول الصديقة، فقد رأت انه من السابق لآوانه التباحث في مثل هذه الأمور، معتبرة ان الزيارة لا معنى لها قبل التأكد من شفاء شعبه، وما إذا كان الزعيم نفسه، وهو الذي عاش كل ذلك الوقت داخل الحضانة، يتمتع بالعافية هو الآخر أم لا؟

ليس هذا فقط، بل ان الحكم على كفاءة الشعب ومقدرته على التعاطي مع الحياة بشكل طبيعي - وفق ما أبلغه قادة تلك الدول - لا يجب أن تتم بواسطة الزعيم ولا مستشاريه ولا حتى الأطباء التابعين له، بل عبر لجنة دولية تحددها المنظمة الأمية التي تنتمي إليها دولته، فهي المنوطة بذلك، وهي القادرة على الحكم بمجدارة على مدى أهلية بلاده للعودة إلى صفوف المجتمع الدولي؟

كانت تلك الشروط تشكل ضربة قاصمة للزعيم، الذي كان يتصور أنه بات نموذجاً، يجب أن تحتذى به شعوب العالم النامي، وأن تسانده أحزاب العالمين، غير أنه الآن يكتشف، أن الشعوب في واد، والخيالات التي ظل يحشو بها عقله الباطن في واد آخر، لكن المكابرة، قاتلها الله، ظلت صفة راسخة لديه، توغز له بضرورة المراهنة على يقظة الشعوب وانتباهتها، وقدرتها على كسر الأغلال التي قام أعداؤه في غفلة من الزمن بترسيخها لديها، أوهم نفسه أن الشعوب سوف تتمكن يوماً من محاكمة جلاديهما، الذين يتسبون في قهرها ليلاً ونهاراً، متناسياً أنه الذي ساق شعبه كالأغنام وهو يحدثهم عن أحلام الثورة، في الكفاية والعدل، والديمقراطية، عن كسر الأغلال، والحرية، عن الرخاء القادم، والتوزيع العادل للثروة على جميع فئات الشعب وقواه العاملة، هو الذي بحت أصواقهم وهم يهتفون

له اعجاباً، حين كان يعدهم بالتححرر من ربقة الظلم، فيما كان
يسهر الليالي وهو يخطط لوضعهم في أكبر سجن سمع عنه في الدنيا
أحد!!

(10)

لم يقف الأمر عند اتخاذ دول الجوار تلك المواقف الحادة، فالأمر
ازداد تفاقمًا في الداخل بعد أن أصيب مواطنو الزعيم بانتكاسة
كبيرة، إذ سرعان ما أخذت أمراض العظام تنتشر بينهم، الأطفال
اجتاحهم الكساح، والكبار استشرت فيهم الهشاشة، وامتدت
خطورتها لتكتسح في طريقها العدد الأكبر من النساء.

لم يتوقف الأمر عند العظام، فأجهزة البشر التنفسية ازدادت
ضيقاً، سعل الوطن بأكمله، فارتجت من موجات السعال أرجاء
البلاد، خربت الصدور، وكادت الأوجاع تحطم أقفاصها.

لم يكن هناك من تفسير، سوى اعتبار ان الحضانة كانت وراء
ذلك، فهي التي منعت الشمس من دخول البلاد وملامسة أجساد
العباد، حتى أصبح الشعب بمرور الوقت مقعداً، الأمر الذي استدعى
ارتفاعاً في عدد من يحتاجون إلى كراسي متحركة.

عندئذ استشعر الزعيم خطورة الأمر، راح يفكر في ما يجب
اتخاذ، وهو يرى حلمه الأمبراطوري على وشك الانهيار، إذ كيف
يمكنه وضع أحلام التوسع فوق أكتاف شعب بات في معظمه كسيفاً،
وكيف يمكن لهؤلاء أن يجتاحوا دولاً، وهم لا يستطيعون الانتقال من
مكان إلى آخر إلا على مقاعد ذات تجهيزات خاصة.

إلى هكذا آل الأمر، بعد كل الترتيبات التي اتخذت، وتم خلالها
صب الجهود لإعادة ترتيب الأوضاع الصحية والغذائية، وبعدها بذل

لرفع الحماسة وتوحيد المشاعر خلف القيادة التاريخية، وما قام به التبرويون من إعادة صياغة لأفكار ورؤى أبناء الشعب، في الوقت الذي أدت فيه كل الجهات المكلفة بمهام مصيرية ما أسند إليها بكفاءة لصالح مشروع الحضانة، الأمر الذي أعطى نتائج مبشرة في بداياته، وأدخل البهجة إلى نفس الزعيم، وزاد من حجم الغرور لديه.

في وقت كهذا، جاءت مشكلة الكساح لتلقي بظلالها على المشروع بأكمله، وتضع منذ تلك اللحظة علامات استفهام في وجه مشاريعه الكبرى.

بعد أن اطلع على العديد من التقارير الطبية التي تخص صحة رعاياه، والسياسية منها التي تدور حول رصد مواقف وردود أفعال الدول الشقيقة والصديقة، وبعد أن تراكت المشاكل الداخلية والخارجية، راح يطلب اجتماعاً عاجلاً لمجلس الأمن القومي، وضع أمام الحاضرين حجم المشكلة، حدّد تصوّره لما يجب أن يكون عليه العمل في تلك الأوقات العصيبة، وهي نفس الخطوط التي يكون في العادة من واجب أعضاء المجلس السير وفقاً لها، والتي يستعيز خلالها هؤلاء من الشياطين إن لاحت في عقولهم الباطنة مجرد فكرة مغايرة، غير أن الأمر جد خطير هذه المرة، والبلد الذي تصوّر أبنائه وفقاً لوعود القائد وأمانيه الخضراء، إن المسافة التي ستحوّلهم إلى أنموذج تقتدي به شعوب الأرض، أقصر من حبل الوريد، بات الآن يقف على كف عفريت، ويواجه تحديات بعد أن اتخذت كل دولة على انفراد قراراً بقطع العلاقات، في وقت تناقص فيه المخزون الاستراتيجي من المواد الغذائية، وكادت قطع غيار محطات توليد الطاقة داخل الحضانة، تقترب من لحظة التوقف، بدت كل الأمور

بعد شهور من الاحتمال، على حافة الانهيار، تناقص عمرها الافتراضي بشكل متسارع، وباتت الحاجة للاستيراد من الخارج في أمسها.

في هذا الوقت وصل الرهان على الشعب المقعد إلى آخر درجات اليأس، لم يعد هناك من يمكن أن يراهن عليه، لا في الوقوف بصلابة في مواجهة التحدي، وفي الصمود أمام المحنة، أو حتى انتاج بدائل محلية.

دخل الأمر إلى مرحلة ما قبل التسليم بالفشل، إذ لم تستطع العقول مسلوبة الثقة، ولا الأجساد الفاقدة للعافية، ولا الأرواح التي انتزع منها بصيص الأمل، بحجارة رغبات الزعيم، لم تفلح في حقيقة الأمر - رغم المكابرة - محاولاته للاستغناء عن الخبز بالكلمات الحماسية، كما لم تنجح مساعي الجاهزون لكل حادثة، في دفع البشر للصمود حتى آخر رمق، مقابل وعود بأن الثواب الأكبر والأجدي، الأنفع والأصلح... مؤجل القطاف.

عند تلك النقطة وقف الزعيم وللمرة الأولى، يتجرع الكأس شديد المرارة، يفكر في الحال التي وصل إليها، والمآل الذي انقلب سعيراً في النهاية، ها هو يرى بأم عينيه، الأمور وهي تزداد سوءاً، فلا الشعب قادر في ظل الكساح على التقدم لخطوة، ولا تمكن المستشارون بالسنتهم المقطوعة، وعقولهم المرتجفة، من تقديم النصائح بما يمكن عمله، ولا تركته دول كان، لجعلها تركع عند قدميه، يعبر المرحلة التي تصوّر أن ثمارها باتت دانية.

وجد نفسه يقبع وسط المتاهة، داخل مأزق صنعته يده، وعليه وحده أن يجد نفقاً في نهايته ليتسلل، أو متسعاً لقبر يحويه.

(11)

بمرور الأيام كانت الإحصائيات تشير إلى تصاعد المصايين
بمشاشة العظام، هذه الدولة التي أراد الزعيم مباهة العالمين بها،
تتحول إلى عكس ما كان يتبغي، فأى خيبة أمل يشعر بها، وهو يقرأ
كل يوم بيانات تصيبه بالغم، وتزيده إحباطاً؟ ما هذا؟ ولماذا حدث؟
وكيف لم تضع جيوش مستشاريه هذا الاحتمال في الحسبان؟ لماذا لم
يتم في الأصل اتخاذ الاحتياطات الكفيلة بالتعامل معه؟

يحدث هذا في الوقت الذي ترفض فيه دول العالم التعامل معه،
تعتبر أن الاقتراب من وطنه المحبوس داخل الحضانة، فعل محظور على
مواطنيهم ارتكابه، تشترط قبل التفكير في إعادة العلاقة، الحصول
على تأكيد من جهة محايدة، بأن البلد السجين أصبح خالياً من ولاء
ضرب مناطق، واستدعى إغلاق أجوائه، منع شعبه من الاختلاط
بالبآخرين، أو الخروج من البوابة الوحيدة.

ضاقت الخيارات على الزعيم، في وقت بات على يقين من أن
الوقت هو العدو الأول، إذ بمروره سوف ينفذ مخزون الغذاء، الوقود،
الأدوية، قطع الغيار ومواد الصيانة، الحركة في الوطن سوف تتوقف،
ما لم تأت امدادات من الخارج.

اقرب رهانه سريعاً من درجة الخسارة، ذلك الرهان الذي صبه
على شعبه، ضحّ في أرواحهم الشعارات، دعاهم للشعور بعظم
المسؤولية، بالتحدي الذي ألقاه التاريخ على عاتق الأمة، طالبهم دون
خجل بالارتقاء إلى مستوى التحديات، والوصول إلى الدرجة التي
تستطيع فيها البلاد الاكتفاء ذاتياً، الاعتماد على إمكانياتها في توفير
الغذاء والكساء، الأدوات والأجهزة، إدارة المصانع وبناء الوطن

وتجهيزه للوقوف بصلاية، والتصدي للقوى الطامعة في مقدراته، لكنه الآن رغم النجاح الأولى في تكريس مشروعه، واستمراره لفترة محدودة في إثبات جدارة الوطن والمواطنين، بعد هذا الوقت الذي وصفه في خطابات كثيرة ألقاها أمام حشود الجماهير، بأنه مثال لقدرة الشعوب على التصدي والصمود، ومقارعة الأخطار المحدقة، بالعزيمة والإصرار، وإعطاء أدلة للأعداء المتربصين على مدى صلاية الجبهة الداخلية، والتفافها حول قيادة بايعها الشعب، وزكاها بجميع قطاعاته وأجياله، وأرسلها القدر في ليلة سعد، كأجل هدية لوطن معطاء، وشعب من الميامين، لا تلين لهم قناة، ولا تفتري عزيمة، ولو كره الخاسئون.

ها هو الآن لا يصدق إنه فعلاً دخل إلى عمق نفق، هذا الرجل الأشبه بطاووس، الذي تلون كالحرباء، منذ أن كان طالباً، إلى أن فضل الالتحاق بالقوات المسلحة، ليتحول إلى ضابط نظامي، وهو ما أتاح له البقاء الدائم فيه، ليتمكن بعد ذلك من إعداد إنقلاب شديد السهولة وبمساعدة عدد قليل من الضباط، سرعان أيضاً ما تخلص منهم في أقرب فرصة، لم يشأ وقتها أن يضيع الفرصة، تحججاً بوفاء، أو نأياً بالنفس عن الاتهام بالغدر، فتلك كلمات لم يكن معترفاً بها في قاموسه الشخصي، بل إنه كان يرى إن الذين يتعاملون بها هم السذج، وعديمي الطموح، هؤلاء الذين يكتفون من الدنيا بالعيش خلف ظلال.

احتار مستشاروه، ما الذي يمكن تقديمه لإنقاذ الموقف، بعد أن أخذت الأمور تتجه نحو مزيد من التدهور؟ ما الذي يمكن قوله، وهم يرون الشعب الذي راهن عليه الزعيم، غير قادر على التحلي لفترة أطول بروح متحدية، سرعان ما أصابه الملل، قبل أن يضرب جسده

الكساح، راح المفدى يصرخ في هؤلاء الذين توافدوا، اكتظت بهم قاعة الاجتماعات الكبرى في القصر، أطباء وخبراء في كل المجالات، كبار رجالات النظام ووزراء الحكومة، هؤلاء الذين يحصلون على امتيازات جمّة، وقفوا هذه المرة عاجزين عن إيجاد حلول ملائمة للحدث الجلل، ما دفع الزعيم إلى خبط المكتب الرئاسي بقبضته مرات عدة، صرخ في وجوههم، أن ينطقوا:

• ألسنم أنتم الذين قدّمتم التقارير؟ ألم تستحسنوا فيها فكرة الحضانة؟ ألم تذكروا أنكم قمتم بدراسة المشروع من جميع جوانبه؟ فلماذا استشرى المرض إلى هذا الحد بين الناس؟ لماذا أقعد الكثيرين منهم، وما زال يواصل زحفه دون أن تتمكن محاولاتكم من وقفه؟ أخيراً نطق أحدهم، كان الطبيب الأكبر سنّاً:

- إن منع الشمس يا سيدي، من اختراق الحضانة لمدة طويلة، كان وراء إصابة البشر بهذا المرض.

التفت الزعيم، يعلو وجهه الغضب، باتجاه وزير الصحة، الذي ابتل جسده عرقاً، صمت الجميع، فواصل أكبر الأطباء عمراً الحديث، أكد وكأنه يضع رقبته بين اليدين اللتين قد تقبض عليها بشدة:

- إن الشمس ضرورية لإمداد البشر بفيتامين (د)، ذلك الذي يكمن تحت جلد الإنسان، إنها تحفره، حين تسلط أشعتها فوق النفسجية، فيندفع لتغذية العظام، أما الحضانة التي صادرت هذه الخيوط ومنعتها من الوصول إلى جلود البشر، فقد كانت السبب المباشر في المشكلة.

• ولكن هناك المشاكل التنفسية، لقد أصيب الشعب بأمراض الصدر، هل هي أيضاً نتيجة لغياب الشمس؟

- الاستهابات الرئوية والربو، أغلبها ناتج من التأثير السلبي للضغط المستخدم في أجهزة التنفس الصناعي، التي لم يكن لأحد أن يتنفس دونها.

- أين متابعتكم الدقيقة إذن، أين الكلام المتحمس لبناء الحضارة الذي ذكره تقريرك؟

خرج الوزير مضطراً من انكماشه، جاهد حتى تمكن من تجميع بضع كلمات، رتبها في عبارات متصلة، فقال:

- سيدي لقد فعل الجميع ما تم تكليفهم به، لكن العواصف تسير في بعض الأحيان على عكس ما يشتهي الملاحون.

- هذا كلام يصلح لتقوله في سوق للشعر، لا في مأزق مثل الذي أصبحنا نعيش فيه، اعتبر نفسك مقالاً، وفي الغد توجه إلى أحد الأقفاس التي يختفي فيها الوزراء الفاشلون.

ارتفع فجأة نسيج الوزير مختلطاً، بنداءات استرحام، لم تجد لها أذنًا صاغية، فاستدار، مبتعداً وهو ينطق الشهادتين، فيما كان الملهم يواصل الصراخ، متوعداً بأنزال أقصى العقاب على كل من ساهم في إيصال الأمور إلى هذه الهاوية.

- سيدي إننا في حاجة للبحث عن حلول، حتى وإن قاسية، فأعداد الأطفال المصابين بالكساح يزداد، والمهاشاة تنتشر بين الكبار، حتى لم يعد هناك من ليس لديه كسور في الوركين والعمود الفقري والمعصم... قال الطبيب.

• وما هي هذه الحلول؟

- أن نرفع القبعة، يا مولاي؟

• أهذه نصيحة أم مصيبة؟

تقدم المارشال هذه المرة، قال:

- ذلك ما لم يعد هناك مفر منه، يا مولاي؟
- أنا أرفض هذا الحل، ابحثوا عن وسائل أخرى، لوقف زحف هذا المرض، ألا توجد أغذية، أدوية، للإنتقاذ العاجل؟
- سيدي، نصحن الأطباء بضرورة إمداد الشعب بالألبان والأسماك، بالبيض واللحوم والخضروات... لكن.
- لكن ماذا؟
- لكننا، كما تعلم، لم يعد لدينا ما يزرع، توقف المزارعون عن فلاحه الأرض، واعتزل الصيادون العمل.
- كيف حدث هذا؟
- سيدي، الزراعة تحتاج إلى المياه، وتحتاج النباتات الشمس، ونحن منذ منعنا خيوط الشمس من الدخول، لم يعد هناك إمكانية لزراعة ولا لصيد.
- إلى هذا الحد وصل الأمر؟
- نعم، ولدرجة أن اللحوم والبيض لم تعد تتوفر، فلا أبقار تعيش، ولا دجاجات منذ أن تم وضع القبعة.
- ألا توجد حلول أخرى...؟؟؟
- للأسف، سيدي، لا حل إلا بدخول الشمس إلى ساحة الوطن.
- أتريدني أن أأمر برفع القبعة؟ كيف، ما الذي سيقوله الآخرون، الجيران والدول الأخرى؟؟ كيف يحدث هذا؟ وفي عهدي أنا؟؟ لماذا لم يستخدم الأطباء الأدوية؟
- سيدي، إن هذه الحلول جربناها، فشل الأطباء في وقف زحف الأمراض، لو استمر الشعب على هذا الحال، لن تجد هناك شعباً لتحكمه، في نهاية الأمر، إن الحل المطروح هو إيجاد منفذ للشمس فقط، مع الإبقاء على الحضانة.

• ولكن ألن يؤثر رفع الغطاء على الرعاية التي نقدمها للمواطنين؟ ألن ينتهي الهدف الذي أقيمت الحصانة لأجله؟ ألم تقولوا لي أن الهواء الذي يقدم لهذا الشعب معقم؟ كيف يمكن أن نضمن تعقيمه، بل كيف يمكن حماية رأس الوطن، إذا رفعنا القبة؟

- نفتحها لمدة ساعة في اليوم، ويتم تعريض أبناء الوطن لأشعة الشمس، ثم نغلقها بقية الساعات.

• ادرسوا الموضوع جيداً، وقدموا لي تقريراً بما توصلتم إليه خلال 24 ساعة، وإلاّ كان قراري بالنسبة لكم صاعقاً.

خبط بيديه القويتين فوق مكتبه الفخم، فتحولت نثارات الزجاج إلى ما يشبه أمواج تتلاطم في بحر، كان لا يزال يشعر ببعض القوة إذ لم يصبه الدور في طابور الكساح، ولا أصاب أحداً من الحاشية، هؤلاء الذين ينساهم المرض في العادة، بعد أن يكون قد افترس بقية المواطنين.

اجتاح الزعيم شعور بالحسرة، فليست تلك هي النتيجة التي توقعها، ولم يكن قد قرأ في أي تقرير، قدمه هؤلاء الذين يطلبون له دائماً ويصفقون، كلمة واحدة عن النتائج السيئة المحتملة، لعزل بلاده عن الدول المجاورة، وعن دول العالم الأخرى، لم يشر أي تقرير لنتائج ابعاد عين الشمس عن مصافحة رؤس أبناء شعبه، ولعل هذا ما أغاظه، وما دفع الغضب ليجتاح كيانه ضد المستشارين والأطباء والخبراء، وحتى الشعب بأكمله.

مأزق كبير وجد نفسه في داخله، لم يتصور يوماً أن الأمور سوف تصل إلى هذه الدرجة، وانما ستتفاقم حتى تكاد تهدد أحلاماً بناها على مدى سنوات بالانقيار، لكن ليس الآن أمامه وهو المهاب،

الوائق من قدراته إلى درجة الغرور، سوى أن يتعامل مع الأمر، بطريقة تشابه مع ما سبق أن تجاوز به أكثر الأزمات تعقيداً.

وهكذا ما أن انقضت الساعات التي حددها للاجتماع الخاص بأعضاء مجلس الأمن القومي، حتى انطلق مجدداً إلى مكتبه، ليرى جوقه المستشارين وقد انتظموا في مقاعدهم بانتظار طلعه المشرقة، التي ما أن أطلت، حتى انتفضوا مثلما في كل مرة، يؤدون واجب الانحناء.

قدموا تقريراً جديداً، وضعوا فيه احتمالات عدة، حاولوا هذه المرة تخفيف المشكلة، كانوا يعرفون أن قول الحقيقة بكاملها سوف يمنع المبرر لتطير رؤوسهم، ذلك ما استنتجوه من نبرات صوت القائد حين حملهم المسؤولية بالكامل عن تقديم تقارير وردية، لم يتم التطرق فيها إلى سلبيات يحتمل أن تنتج عن الحضانة.

لم يرد أي واحد منهم أن يتحمل المسؤولية في ظل غضب عارم اجتاح الزعيم، قالوا إن فكرة بناء الحضانة كانت صائبة وعبقريّة، لكن المشكلة أنهم لم يعرفوا منذ البداية أن هذا الشعب الذي طالما شكك حاكمه في قدراته، تصل به درجة الرخاوة إلى حد لا يستطيع معه الاستغناء عن ضوء الشمس.

حملوا المسؤولية كاملة فيما حدث من تداعيات لشعب لا يصح الاعتماد عليه، اعتبروه غير جدير بالمهم ولا بأفكاره العبقريّة.

• لكن، ألم يكن عليكم أن تضعوا من البداية احتمالات كذلك؟ ألم تعرفوا أن الحضانة سوف تحجب ضوء الشمس عن البلاد؟ وألم تتوقعوا الآثار التي يمكن أن تحدث من ذلك المنع؟ كيف لكم أن تبرروا ما حدث؟ كيف يمكن أن تشرحوا تلك التداعيات الخطيرة؟ ثم في الأصل ما الذي اقترحتموه للخروج من ذلك المأزق؟

- الحل يا سيدي، يكمن في عمل أربع فتحات في قبعة الوطن، في كل شطيرة يتم استحداث فتحة قابلة للإغلاق، على أن يتم تجميع المواطنين القاطنين في كل واحدة منها صباحاً، لإعطائهم جرعات متساوية من الشمس، وبعد أن يتم توزيع الضوء بالعدل، تغلق كل فتحة حتى اليوم التالي، وبذلك ينال جميع مواطنيك نصيباً من الأشعة.

• وهل ستكون تلك الطريقة ناجعة في معالجة المقعدين؟ ألن

تؤثر على سير الأمور في الحضانة، مثل التعقيم والرعاية والنمو؟

- سيتم تحديد ساعة واحدة في اليوم، هي المسموح بتمرير الضوء خلالها، أما ما تبقى فإنه سيكون مخصصاً للعمل العادي داخل الحضانة، من الدروس التعبوية إلى الرعاية الصحية والتأهيل المهني، والتدريب والتعبئة القتالية، كل الأمور سوف تسير بيسر، ولكن أمر علاج الكساح والهشاشة سوف يحتاج وقتاً.

- كم الوقت الذي سيستغرقه هذا العلاج؟ وهل سيؤثر ذلك على آلية العمل؟

- الأمر سوف يتحسن بعد فترة، لكن من الضروري مواصلة تعليم الشعب، وتأهيله على الأقل من الناحية النظرية أثناء فترة العلاج، علينا أن نعلمه كيف يتمتع بالصلابة حتى في أشد لحظات المحنة.

• إذن، كيف سيتم التعامل مع الحكومات الأخرى، لقد أصبحنا الآن شبه معزولين، إن لم نكن قد تم عزلنا فعلياً... إلى أي حلول توصلتم؟

- رأينا، بعد تدارس الأمور من كافة جوانبها، أن هناك طريقتين يمكن بمهما التعامل مع الأزمة، الأولى أن تعاود فخامتكم المحاولة من جديد، بالاتصال شخصياً مع بعض أصدقائكم من

الرؤساء والقادة، تدعونهم لزيارة دولتنا، فإن نجحت المحاولة، وجاء إلينا حاكم واحد، فإن الحاجز النفسي سوف ينكسر لدى الآخرين وسوف نضمن أن يأتوا إلينا في أعقاب ذلك، إن المسألة هي في الأساس نفسية وبنسبة 99 في المئة.

• وهل هناك غير هذا الاقتراح؟

- نعم يا سيدي، إن لم تفلح تلك، فبإمكاننا اللجوء إلى الطريقة الأخرى، وهي استخدام سلاح الامتيازات، مثلاً أن نمنح لشركات إحدى الدول المؤثرة في صناعة القرار العالمي عقداً لتطوير أحد الحقول لدينا، إن هذه الشركة سوف تقوم بالباقي عندئذ وستمارس هي ضغوطاً على حكومة بلدها لصالحنا، وهكذا كما ترون عظمتكم، فإن كل الحلول تبدأ من القدرة على إحداث ثغرة في الجدار.

• عدنا إلى الثغرة مرة أخرى!!

- نعم، يا سيدي، ما نقصده، إن فتح ثغرة في كل شطيرة من شطائر الوطن، سوف يتيح لنا علاج المرض الذي انتشر في عظام المواطنين. وفي الوقت نفسه فإن حل مشكلة العزلة التي باتت مفروضة علينا، يكمن أيضاً في قدرتنا على كسر تلك الحلقة، إن من المهم أن ننجح في إشغال ما فرضه الآخرون علينا، منذ أن رفعنا جدارنا بطول الوطن، وأنجزنا مشروعنا الحضاري العظيم الذي أصبح مثار فخرا، ومصدر عزتنا.

• لست أرى أن هناك ضرورة لكي يأتي الآخرون إلينا الآن، لا أريد لأي أحد أن يرى وطني الذي أفنيت عمري لأجله في هذا الوضع، أفضل إرجاء النظر في اقتراح من تلك الاقتراحات إلى ما بعد تجاوز تلك الانتكاسة، لا أريد للآخرين أن ينظروا إلينا

بعطف، علينا أن نظهر أنفسنا أقوياء، فنحن كذلك بالفعل، وإن كانت قد مرت بنا تلك المحنة، فإن كل الشعوب قد مرت بمحن أشد فظاعة، لكنها تجاوزتها، وانطلقت، ونحن سوف نخرج منها أشد قوة.

- وما تراه فخامتكم الآن، ما الذي يمكن عمله؟

• سوف أنتهز أقرب فرصة، يتم فيها عقد أي اجتماع دولي، وأشارك فيه، إن لقاءاتي بالزعماء سوف تساعد في تجاوز تلك المقاطعة غير المبررة، وسوف أستطيع وقتها كسر العزلة، ان علينا الآن وفي المرحلة الأولى أن نخرج من نفق المرض الذي يهدد بتحويل الشعب إلى أصحاب عاهات، وهو ما يمكن أن يهدد مسيرتنا، ويمنع طموحات وطننا العزيز من الانطلاق.

- لكنكم تدركون أن المخزون الاستراتيجي بدأ في النفاذ، وان الأمر يحتاج إلى تحرك عاجل لدى الدول التي تمدنا بما نحتاج إليه.

- أعرف، وأعرف أكثر ان هذا الشعب الخامل خذلني للمرة الثانية، فلم تكد الحضانة تعطي بعض الثمار، وما كدنا ننتهي من المرحلة الأولى من إعادة تأهيل الشعب، وتقويم مساره، حتى جاء الوباء، ليعطل زحف الوطن إلى العلا، ويضع عقبات في طريق المسيرة المباركة، لكن هيهات، إنكم وهذا الشعب بل وجميع شعوب العالم، تعرفون أن الزعيم ليس يعترف بالمستحيل ذاته، تلك عشرة صغيرة، سوف نتجاوزها، وننتقل، أليس كذلك؟

- كذلك يا مولانا بالفعل، نحن قادرون على التحدي والصمود مدى العمر، إنهم لا يعرفون عزميتنا، ولذلك فسوف يفاجأون عندما نخرج من تلك العثرة المؤقتة وننتقل إلى الأعالي، بفضلكم.

انفض الاجتماع، لكن فخامته كان قد وصل إلى قناعة بأن عليه أن يستدعي حكام الشطائر، ومع كل منهم أمهاتهم اللواتي يقمن عملياً بدور الأوصياء، عليه أن يناقش أمر الوطن، والمستجدات التي باتت تشكل حاجساً مقلقاً له، في لقاء عائلي أولاً، قبل أن ينتقل فيما بعد إلى اجتماع موسّع، سوف يشارك فيه أعضاء الهيئات الاستشارية الأربع التي تقدم النصح والإرشاد، وتقوم في الوقت نفسه بمتابعة عملية تنفيذ قراراته في كل جزء من أجزاء وطنه.

لم يكن في اللقاء الأول متحمساً لإذاعة أي إعلان، يشير إلى أن الأبناء سوف يرتقون إلى مستوى المسؤولية، لكنه في النهاية رأى أن حالة الوطن والمنعطف التاريخي الذي يمر به تتطلب ذلك، فقرر أن تنشر وسائل الإعلام القومية خبراً عن الاجتماع الطارئ له مع حكام الولايات، يشير إلى أنه تم تدارس كل ما يخص الوطن وهموم المواطنين، وأنه أسفر عن قرارات مصيرية، سوف تغيّر مجرى تاريخ الأمة، ان لم يكن تاريخ البشرية أجمع.

ذلك الشكل كان مطلوباً فهو يقدم رسالة إلى الداخل، يرى الزعيم أنها ضرورية، وتساهم في الإيحاء، بأن هؤلاء الأطفال أيضاً، قد أصبحوا حكاماً مثل بقية الحكام، وأنهم قادرون رغم أعمارهم الصغيرة على مناقشة كافة الأمور التي تم الوطن، وبل واتخاذ قرارات مصيرية أيضاً.

وفي الوقت الذي انبرت فيه كل واحدة من الأمهات الحاضرات في كيل الاتهامات للأخرى بالسعي للاستحواذ على النصيب الأكبر من المزايا، وهو ما مهد الطريق لمن وسط صمت الزعيم، إلى صب الانتقادات اللاذعة ودونما تنسيق عليه هو ذاته، ما دفعه إلى الإسراع بفض الاجتماع، وطرده الحكام مع أمهاتهم إلى خارج القاعة، ثم

العدول عن قرار كان سيدعوهم بموجه إلى المشاركة في اجتماع موسع مع الهيئات الاستشارية الأربع.

أبلغ هؤلاء ما لم يستطع أن يقوله إلى الحكام وأماهم، أمرهم باستحداث ثقب في كل جهة من جهات القبعة يسمح للشمس بالدخول للوطن في ساعة محددة، قبل أن تعود مجدداً لتغلقها بقية اليوم.

لأنقاش، ولا استفسار، فقط تطبيق ما يقول، وحتى دون علم الحكام الصغار وأمهاقن اللواتي لا يلتفتن كثيراً لخزعاته التي تتغير كل ساعة بتغير المزاج، كان الهم الأساسي هو الحصول على أقصى ما تستطيع الواحدة منهن اقتناصه من كعكة الوطن، أما الأشياء الأخرى فهي متروكة بكاملها لأوصياء الحكم، الذين يفضل الزعيم إطلاق لقب المستشارين عليهم، والذين يعتبرهم عيونه على الوطن، وعلى من يتحرك في إطاره، وفي مقابل ضمان الولاء الكامل، كان ييسر قبضته بين الحين والآخر ليغدق عليهم من عرق الشعب.

بات الكساح شغله الشاغل، هاجسه الذي يسعى لإيجاد وسيلة تقضي عليه، لن تنفعه ما تبقى من دورات الحديقة الرئاسية هذه المرة، تلك التي كان يلجأ إليها كلما داهمته فكرة واحتاج إلى بلورقما، أو وقع في مأزق، نتيجة لتسرع، وهوسه بالمفاجآت.

هذه المرة كان عليه أن يفعل ما فعل، أن يستمع إلى الأطباء الذين يتابعون حالة الشعب، ويقدمون في كل يوم تقارير عن صحته، وعن النجاح الذي تحققه الحضانة، كان يستبعد من ذهنه حقيقة لجوئهم إلى تضخيم النتائج، اللعب بالألفاظ، لإرضاء غروره وهوسه بتحقيق نتائج جيدة لكل ما يتحمس له، وهو ما أوصل الأمور إلى حافة مأساة أصابت في النهاية الوطن، ووضعت زعيمه في مأزق.

لم يكن يريد أن يسمع إلا ما يروق له، وكان على هؤلاء الذين وقعوا بين قطبي الرحي، أما اختيار الفوز بذهب المعز، أو الخضوع للجانِب الأَكثر إظلاماً، حيث ينتظرهم سيف الحاكم الباطش.

لكن المآزق سرعان ما ازداد، إذ إن الخوف من إعطاء الصورة الحقيقية للحاكم، إبلاغه بما يجري في الواقع، فاقم الأمر مع مرور الأيام، حتى أن القائد ظل سادراً في الخديعة، يعاقر أوهاماً صورت له الفشل إنجازات لم يشهد الدهر مثيلاً لها، فيما كان الرعب يلحم مستشاريه، يدفعهم لتعليق الآمال على مرور الوقت، وهو الرهان الذي كان يتجه نحو الخسران، بتوالي انضمام أعداد جديدة إلى قائمة المقعدين.

وعلى الرغم من أنه، أراد لتلك المرحلة أن تمر في هدوء، ليعالج المآزق دون إعطاء أعداء راهنوا على فشل مشروعه، فرصة للشماتة إلا أنه بات يكتشف أن المحيطين به يضلّلونه، يخبثون عنه ما يجري، ويعطونه بدلاً من الحقائق الأليمة نتائج وردية.

عندئذ بات قرار الاستغناء عنهم جاهزاً، بانتظار الوقت المناسب، تماماً كما كان يرى أن هناك ضرورة لمعاقبة الأوغاد الذين خدعوه، والذين لا يجب تركهم ينعمون بما فعلوا.

لم يخطر على باله في تلك الأيام، إن الخوف الذي أنزله في قلوب شعبه، كان السبب، لم يقم بمراجعة النفس ليعرف أن طغيانه كان وراء التباري في إظهار النفاق، والسعي المحموم لاسترضائه، بعد أن بات الوطن بجميع من فيه يدور حول رجل واحد، يأتمر بأمره، ويرضى برضائه، يفكر بالطريقة التي رسمها له، ويمارس تفاصيل حياته وفق المسار المحدد مسبقاً.

وعندما ألقى المأزق بنفسه على البلاد والعباد، وبعد أن وصل الأمر إلى حد الخطورة، وجد الزعيم نفسه أمام ساعة الحقيقة، كان عليه أن يلجأ لهؤلاء الجبناء، لأنه على الرغم من ثقته الزائدة في نفسه، ليس يستطيع أن يتعامل مع وباء اجتاح الشعب، ويواصل زحفه على بيت الحكم.

كان عليه أن يتلغ طعم الحنظل، أن يلجأ إلى من لم يعد يثق في رجاحة تفكيرهم، على الرغم من وصوله إلى درجة التشكك في مدى مصداقية ما قدموه من تقارير، ومنها تلك التي نصحوه فيها باستحداث فتحات في قبعة الوطن تسمح بتسلل الشمس، بل إنه أيضاً بات متشككاً في جدوى ذلك، غير أنه وهو المهاب، السادر في التصلب، محقق المعجزات ومبدع الخوارق، هذا الذي لم تلد مثله أم في البلاد، ها هو الآن يجد نفسه خالي الوفاض، من أي خيارات مغيرة.

(12)

كان البشر في ذلك الوطن، الذي هو هبة من هبات المفدى قد باتوا يوقنون أن ما حلّ بهم راجع إلى عدم رضا الرجل المبجل عنهم، باتوا يسترجعون ما قاموا بعمله طيلة السنوات الماضية، ما اقترفوه من نوايا، وما مرت في أذهانهم من أفكار هي في الأصل رجس من عمل الشيطان، وتحريض شائن منه للبشر على اقتراف معصية الشك في نوايا الحاكم.

لم يجدوا في الحال الذي أصبحوا عليه اختلافاً كبيراً، سوى في القيد الذي أخذ يكبل تحركاتهم، بعد أن بات عليهم الانتقال من مكان إلى آخر فوق كراسي متحركة، الأمر الذي أحدث بتوالي عدد

المصابين أزمة كبرى، إذ تناقص مخزون الوطن الاستراتيجي من الكراسي ذات التجهيز الخاص، حتى بات هناك الكثير من المقعدين لا يجدون ما يتحركون به، قرروا رفع أصواتهم ولو على استحياء لسمعها من يجلسون على كراسي الحكم في الولايات الأربع، ما دام المسؤولون فيها لم يتحركوا بالشكل المأمول، غير أنهم في النهاية تراجعوا، خشية أن يصب الزعيم غضبه عليهم.

ومع انضمام أعضاء جدد إلى مقعدي الشعب، باتت الأزمة تستحكم، حتى لم يعد هناك مفر من التعامل معها بالسرعة المطلوبة، ما دفع المجل إلى إصدار أوامر بضرورة تصنيع الأجهزة التي تحتاجها البلاد على الفور في الورش المحلية، غير أن نوبة شجاعة نادرة، دفعت وزير الصناعة إلى إبلاغه بصعوبة تنفيذ ذلك بواسطة شعب يعاني معظمه من الكساح، فمن غير المعقول أن يقدر هؤلاء الجالسون فوق كراسي متحركة على تحقيق رغبته السامية، ومنذ ذلك اليوم لاحظ الجميع أن صورة الوزير اختفت، وأن اسمه لم يعد مطروحاً، كأنه اعتباراً من ذلك اليوم، لم يعد كائناً يدب في الحياة.

أسقط في يد الزعيم، أدرك أن الشعب الذي راهن عليه، لا يستطيع تصنيع كرسي متحرك واحد، فكيف ينتظر منه فعل المستحيل؟ قام والحال كهذا، باستدعاء وزير التجارة، الذي عندما جاء مهرولاً، دعاه إلى المسارعة باستيراد الأجهزة اللازمة في أسرع وقت ممكن، قبل أن يجد نفسه في النهاية قائداً لشعب في معظمه، من المقعدين.

لم يستطع الوزير التلفظ بكلمة واحدة، كان ما صدر أمراً واجب التنفيذ، فما الذي يمكنه عمله، في وضع كهذا وجدت فيه البلاد نفسها، غير أنه ما كاد يخطو خارج المكتب الرئاسي، حتى عاد

لاهثاً مستأذناً، وقد طرأت في ذهنه فكرة أراد تحذير الزعيم من مغبتها، كان في الواقع يريد أن ينحو بنفسه، وأن يعيد إلقاء الكرة في ملعب شخص آخر هو وزير الصناعة الجديد الذي تم تكليفه خلفاً للمأسوف عليه الذي ذهب في مهمة رسمية لاستكشاف ما وراء الشمس، وما أن تم السماح له حتى راح يبلّغ الزعيم بمخاوفه:

- يا سيدي لو أننا اتصلنا بالدول الموردة للكراسي وطلبنا منها تلك الكمية، فإنها سوف تتيقن من أن الوطن أصيب بوباء، عندئذ سترتفع درجة الشائعات، ستصبح في نظرهم مؤكدة وهذا ما لن يكون في صالح مساعيكم لإعادة دمج الوطن في العالم الخارجي.

• نحن في مشكلة ويجب أن نتصرف بالسرعة الكافية، لا أريد أن أرى الشعب كله مشلولاً، على الأقل دعوه يسير ولو على كراسي متحركة.

- إن استيرادها سوف يؤثر على سمعتنا الخارجية، سوف يجعلنا في النهاية بلداً يتجنب الآخرون التعامل معه، سوف تعزل تماماً يا مولاي.

• لا حلّ إلا في اعتمادنا على أنفسنا، تلك هي الطريقة التي يمكن بها تجنب الإساءة إلى بلدنا في الخارج ونستطيع بها إبعاد ظنون الذين يتربصون، ويريدون لنا سوء، ولكن من تريد أن نعتمد عليهم مقعدون، ما الذي يمكن أن يقدمه مقعد في معركة التحدي التي يخوضها الوطن؟

- الكثير يا مولاي، إن المعاقين لدينا مصابون في عظام الأرجل، لكن الأيدي صحيحة والأذهان لم يصبها السقم، ونحن في معركة التحدي من أجل الاكتفاء الذاتي ووقف الاعتماد على منتجات الغير لن نحتاج إلا ليدنين ولعقول مدركة، ويمكن أن نشحذ الهمم لدى هؤلاء برفع الروح المعنوية ومنحهم الثقة في النفس.

أصاب الزعيم الضجر، وصل إلى درجة اليأس من الوزراء، أحدهم يتحجج بأن الوطن سوف يصبح علكة في فم الحكومات الأخرى، لمجرد أن يطلب من الدول المصنعة مقاعد إضافية، والآخر يتحجج بأن الشعب لا يمكنه تصنيع احتياجاته بنفسه، أضمر لوزير التجارة قراراً صاعقاً، غير أنه عاد عن التنفيذ، فليس من المعقول أن يقوم بإزالة العقاب على من نجوا حتى الآن من الكساح، قرّر إعطاء فرصة أخيرة، فقد رأى أن عليه التمهّل في تلك الظروف العصيبة في اتخاذ قرارات حادة، خصوصاً وأنه بات في حاجة ماسة إلى جهود مساعديه، خصوصاً في ظروف وطن بئس كهذا ونادر الكفاءات.

خذلته النتائج التي تحققت في الواقع من فكرة الحضانة، على الرغم من التقارير التي ظلت ترفع له طيلة الوقت، تخبره عن التقدم الذي يتم إحرازه في كل ساعة، وتشير إلى أن ما تحقق يفوق بمراحل جميع التوقعات، تقارير وراء تقارير، جعلت نشوة الفرح تصيبه بغرور، وها هو في نهاية الأمر يكتشف حجم الكذب الذي نشرته الحاشية، ها هو يواجه واقعه المرير، وعليه أن يتعامل معه، فهو في النهاية المسؤول الأول عن الوطن، ليس أمام هذا الشعب المستكين، الذي لن يخرج من بين جنباته في أي يوم من يسائله، بل من الدول التي ترصد ما يدور في داخل سجنه الكبير الذي بسببه قرّر هو مقاطعتهم، قبل أن يعود مجدداً طالباً الود.

اتجه أبناء الوطن البررة فوق مقاعدهم المتحركة، إلى المكان الذي سوف تتسلل منه خيوط الشمس، يحذوهم الأمل في نيل جرعات منها، غير أن ما تمّ تحديداً لهم أخذ في التناقص مع ازدياد أعداد المصابين، وتدافعهم باتجاه الثقب الشمسي.

لكن الأزمة الجديدة حلت، ففي الوقت الذي تكاثرت فيه أعداد الذين يسقطون ضحايا لأمراض هشاشة العظام، تناقصت أعداد الكراسي بشكل حاد، حتى أن تلك التي تنفصل عنها إطاراتها، يجد أصحابها صعوبة في إعادتها إلى حالتها الأولى، تصاعدت المطالبات، وانحالت أوراق التوسل إلى الوزارات المعنية تطلب مزيداً من الكراسي، وقطع غيار لها، ظل الوطن المعطاء في حال عجز تام، لأول مرة تصيب الزعيم مثل تلك الحالة التي كادت تعطل حواسه عن استيعاب خطورة الموقف، ولأول مرة أيضاً يجد الشعب البائس نفسه يعيش المأساة وحيداً، دون أن يرى المهيب كما في كل مرة من أوقات التحدي، طالاً من شاشة التلفاز يجلجل صوته عبر موجات أثير الإذاعة الوطنية، مؤكداً على جدارة الشعب الكسيح بالحياة.

بات المواطنون المقعدون ينظرون إلى بعضهم، تعلوهم خيبة أمل كبيرة، في كل ما يدور، حتى وإن فضلوا كما في كل مرة، الاكتفاء بالنظرات.

كان لسان حالهم يتساءل: إذا لم تكن الدولة بكافة أجهزتها، بعقريّة زعيمها، غير قادرة على الصمود في معركة الكراسي المتحركة، فأين ذهبت إذن شعارات التحدي للأعداء، وردّ كيدهم إلى نحورهم؟

وفيما أخذوا بعيونهم يتساءلون، كان شعور حامي الحمى يتزايد كل لحظة بأنه أصبح في ورطة لن يخرج منه إلا قرارات صعبة، عليه أن يبدأ دون إبطاء، فالوقت أصبح يداهم، والأمور كلما تأخرت، تزداد تفاقمًا، بات عليه أن يتحرك وحده، أن يفكر دون الاستعانة بالوزراء المرتجفين، الذين يقدمون حقناً مسكّنة في كل مرة يحتاج إلى مشورتهم، سقط من دائرة الثقة وزير الصحة، ومن بعده الصناعة

فالتجارة، كلهم خدعوه، ولا يوجد لديهم ما يقدمونه، ليسوا من أصحاب القرارات، هم في النهاية مثل كل وزرائه مجرد موظفين عاديين، لو استبدلهم ببعض الكتبة في أجهزة الدولة فلن يخسر شيئاً، غير أنه في هذا الوقت الصعب لا يريد لأحد من حاشيته أن يستشعر نواياه، ليدع الأمور تسير على النمط الحالي، على أن يكون لكل زمان مقال.

ومع تزايد أعداد المطالبات التي راحت تستعطفه، تدعوه للإسراع إلى إيجاد حلٍّ لمشكلة الكراسي المتحركة، قرّر أن الوقت قد حان ليشترك جميع أبناء الوطن في تحمّل أعباء المرحلة التاريخية، كي يشعر كل مواطن بما تواجهه البلاد من تحديات ويشترك في التصدي لها.

عندئذ أصدر قراراً بفرض ضرائب باهظة على الواردات، وعلى الرغم من أنه لا أحد في العالم بات يوافق على تصدير أي سلعة لوطن موبوء، فإن هذا القرار لم يجد اهتماماً، غير أن الضربات القاصمة للمواطنين حدثت عندما قرّر قدر الأمة رفع أسعار السلع الاستهلاكية، بحجة أن الإيرادات المتحصلة من تلك الزيادات سوف تصب في صالح رفع كفاءة المواطنين، ودعم المجهود الوطني.

وفي خطوة استغرمها المواطنون الصالحون أصدر أبو الوطن قراراً تاريخياً:

"تطبيقاً للعدالة والمساواة وعملاً بضرورة تعميق الإحساس بروح الجماعة، فإن على جميع أصحاب الكراسي المتحركة الصالحة للعمل استضافة إخوانهم من المواطنين الذين أقعدهم المرض العدو، فوق كراسيهم، على أن يتم منع استغلال الأوضاع الطارئة التي يمر بها الوطن في تأجير أجزاء من تلك الكراسي، وأن تكون الخدمة

بجانية خالصة، وسوف يقوم معالي الأستاذ الدكتور وزير الصحة
بالنيابة عن الزعيم المحبوب المفدى بتخصيص تلك الحصص في قرار
سوف يصدر في وقت لاحق".

استغرب المواطنون الذين اختاروا قبل سنوات وظيفة الشلل
الاختياري لألستهم، أن يصدر قرار مثل هذا من أبو الوطن، فقد
اعتبروا في وقت من الأوقات ووفقاً لما استتجوه من خطابه
وكتاباته التي حفظوها عن ظهر قلب، أن الكراسي المتحركة مثلها
مثل الغذاء والمحاليل الطبية والحفاظات والملابس المعقمة والشراب،
باتت حقاً مكتسباً، يجب المحافظة عليه مثل المال والعرض والولد.

لم يصدقوا أن يصدر قرار كهذا، تشككوا في الأمر منذ
اللحظات الأولى لإذاعته، غير أنه بتوالي إلحاح وسائل الإعلام على
تكرار بثه باعتباره بياناً هاماً، مترافقاً مع جملة القرارات الاقتصادية
والتعبوية والثورية، تأكد لهم بما لا يدع مجالاً للشك، أنه صادر
بالفعل من حبيهم البديع، وأن عليهم السمع والطاعة، فلعل في ذلك
حكمة لا يعلمونها هم. يعرفها الصحافة وبعد النظر.

بات الوطن منذ اللحظة التاريخية، التي صدر فيها هذا القرار،
يسير على إطارين كبيرين، غير أنه بعد صدور توابعه، تلك التي تم بها
تحديد من يحق لهم التشارك في الكراسي المتحركة، أصبح الوطن أكثر
بجعة، إذ أصبح على كل مواطن مقعد أن يحمل على ركبتيه الهشتين،
كسيحاً آخر، وعليهما الاثنين، أن يواصل كل يوم مسيرة الزحف
إلى حيث تهب الشمس من صنورها.

بات الوطن أروع مما كان، وازداد الجميع ثقة في إلهام الزعيم
وقدرته الفائقة على التفكير الصائب لصالح الوطن وأبنائه،
ومستقبل أجياله القادمة، غير أن المسيرة ازدادت تعقيداً مع عجز

السلطات عن إيجاد حلول ناجحة لحالة أمة باتت تتطلع إلى الشمس بنظرات كسيرة، فيما الآلام المبرّحة تكاد تقشم العظام، إذ كان البشر ينطلقون للعلاج بعد أن يكتسروا في الطريق إليها بآلام هائلة، لكن مسيرة كتلك أرادها الزعيم، وتصورها حلاً لمشكلات الوطن، سرعان ما واجهت عقبة أخرى، نتجت هذه المرة عن زيادة الأثقال، وانعدام العدالة في توزيع الأجساد المشلولة على الكراسي، فما أن كاد الحامل والمحمول يطلق صرخات الأنين، حتى راحت الكراسي تتلوى، انفصلت إطاراتها وهزلت راكضة بعيداً إلى جهات الطرق، تاركة المرضى يطلقون صرخات، ليس لها أن تسمع أحد في وطن، كل من يعيش فيه اختار الصراخ المكتوم، والعيش في الدنيا مقطوع اللسان.

(13)

باتت كل الاحتمالات مفتوحة، غير أنها في النهاية كانت بحاجة إلى تضحية مؤلمة، ولأن الزعيم بطبيعة تكوينه لم يكن يرضخ للاستسلام، فإن المعاندة ظلت هي الطاغية في معالجته لتلك الحالة. لو أنه كان في وضع أقل خطورة مما وجد نفسه فيه، لانتخب قراراً أولاً يقضي بتصفية كل من حوله من أفراد الحاشية، هؤلاء المرتجفين، الذين يصبون كل الحلول في اتجاه ما يرضيه، طمعاً في مكاسب أو خشية غضب، غير أن ما قصد به مرضاة الزعيم، انقلب في النهاية وبالأعلى عليه وعلى شعبه وعلى النظام بأكمله.

انطلق، مع تزايد أعداد الذين راحوا ينضمون يومياً إلى قوائم المصابين، يبحث في جميع دفاتره عن ما يخلصه من وضع صعب، لم يكن قد مرّ بخاطره يوماً أنه سوف يواجهه، انطلق مرات عدة إلى

حديقته الرئاسية، راح يذرع جنباتها جيئة وذهاباً، اجتمع بمستشاريه عشرات المرات، سهر الليالي كما كان معتاداً في بدايات الحكم، استنفر حواسه، أطلق ما كان كامناً في تلافيفها، لكنه في النهاية وقف عاجزاً عن إيجاد حلول، تخرجه من هذا المأزق بأقل الخسائر، وكلما حاول الهروب، عاد مجدداً إلى الحل شديد المرارة الذي راح يطرأ على الذهن مهما سعى إلى إبعاده، قرّر هذه المرة التفكير جدياً في وقف المشروع الذي طالما راهن عليه، وحشد له موارد البلاد، وضع لأجله البشر والكائنات التي تضمها بلاده، في حالة طوارئ قصوى، حيث لا عمل ولا تفكير ولا مهمة للجميع سوى التفرغ الكامل لأجل الحضانة.

وفيما أخذ الضباب يتكاثف أمام عينيه، وتزداد الظنون بالتدريج مع قراءته للتقارير الواصلة بانتظام، أخذت عيناه ترشق نظراتها على الأرقام التي كانت في الغالب توضع في المنتصف بعد الدياجة المعتادة، تلخص له ما ذكرته المقدمة الطويلة، التي تستهدف في الأصل قميئته نفسياً قبل سرد الأخبار السيئة.

كانت البيانات دليلاً على أن المشروع الكبير آخذ في الأفول، وأن عليه أن يختار بين طريقين، إما الاستمرار في تجاهل ما فيها من إشارات مخيفة، وهو ما سوف يحول المأساة إلى كارثة وطنية هائلة تأكل الأخضر واليابس وتقضي على الشعب، ثم تنصبه بعد ذلك سلطاناً على دولة من الخراب، أو أن يحتكم إلى لغة العقل التي لم يعد أمامه من مفر سوى إمعان النظر فيها، ثم اتخاذ القرار الشجاع الذي سبق أن اتخذته قادة سارت الرياح بعكس ما كانت سفائنهم تستهي، سواء كان الوصول إلى النهاية، عبر سلسلة أخطاء فادحة ارتكبوها، أو بفعل متغيرات خارجية، وظروف محلية.

كان إذن قد وصل إلى ساعة مواجهة الموقف، وهو ما بدأ بالفعل يميل باتجاهه بعد مكابرة.

لم يقتصر الأمر عند حدود الأرقام المخيفة التي كانت تصدر على شكل تقارير، بل إن هناك شروطاً راحت تفرضها الدول المحيطة، كي تستجيب لدعوات ممثليه الذين أرسلهم، لفك عزلة مضروبة على الوطن، ومحاولة استيراد المواد الغذائية وقطع الغيار والمعدات المطلوبة لتسيير الحياة في بلاده.

لكن الأمر حتى لم يقتصر على الدول الشقيقة ودول الجيران، فقد عاد إليه موفدوه من دول العالم الكبرى برسائل تحذير، تفيد بأن صيرهم طال على هלוساته، وتهدده في حال استمرار إغلاق الحدود، بإحالة ملف تلك القضية إلى مجلس الأمن ليصدر قراراً ينبذ فيه دولته، ثم استصدار قرار يتيح للمجتمع الدولي التدخل لتطبيق ما ينص عليه ميثاق حقوق الإنسان، وإنهاء الاحتجاز القسري الذي يقوم به لشعبه، وإعادة فتح البلاد أمام الجميع من مختلف الأجناس والأعراق والجنسيات.

بات الخطر، موزعاً على عدة جبهات، طلب الزعيم اجتماعاً للمجالس الاستشارية العليا، تلك التي كانت تدير من الناحية العملية، تفاصيل الأمور في الولايات الأربع بعد الرجوع إليه، وضع أمامهم آخر التطورات، أبلغهم أنه سوف يتعايش مع الوضع القائم، وبما تتطلبه المرحلة الحالية، قال للمرة الأولى وببرة ران عليها الانكسار، إن المواقف الكبيرة تحتاج إلى خطوات جريئة، ولذلك فإن عليهم اعتباراً من انفضاض ذلك الاجتماع ولمدة أسبوع أن يقوموا بالتمهيد للقرار الذي سيعلنه وسيقول فيه إنه استجاب للدعاءات الدولية التي تواصلت تناشده فتح أبواب وطنه أمام أبناء الشعوب

الشقيقة والصديقة المولعين بترابها البديع، والمعجبين بحرارة الود التي يحملها شعبها، والمهائمين بمناطقها السياحية ومناظرها الخلابة، وشمسها الذهبية، وبحالة الأمان التي يستشعرون بها في كنف حامي الحمى المبجل.

قال إن إيجاد مخرج مناسب أمام الشعب، وأمام العالم لن يكون أمراً صعباً، لكنه لا يفضل أن يأتي الأمر بغتة، لذلك فإن المهمة الأساسية الموكلة لهم هي العمل كل في المجال الذي يخصه، للبدء بحملة ضخمة في المدارس والجامعات، الجمعيات، ووسائل الإعلام المقروءة منها والمسموعة والرئية، حملة لا تهدأ ولا تتوقف قبل انتهاء الأسبوع، الذي في نهايته سوف يخرج هو نفسه، بشحمه ولحمه على الناس، كما خرج في أول مرة، سيلقي بياناً هاماً كما هي عادة كل ملهم، يعلن فيه عن تفضله بقبول المناشدات، وأنه لن ينتظر اللحظة التي ستأتي فيها وفود من عدة شعوب للوقوف عند بوابات الوطن التماساً لتقبيل يده الطاهرة، من أجل أن يوافق.

هذه المرة كان على الشعب الذي بات كسيحاً، أن يستمع إلى ما ترده جوقه الزعيم دون مبالاة.

في المرة الأولى التي راح القائد يستخدمهم فيها لترويج فكرة الحضانة، كانوا بلا عيون ترى، ولا لسان يحتج، هذه المرة باتوا على كراسيهم المتحركة يستمعون لما يجري، بعد أن فقدوا حتى الرغبة في مواصلة الحياة، نفوس مقعدة، وقلوب أكثر هشاشة من العظام الواهنة، كان حجم الانكسار المتدلي من الجفون أكبر من حدود البوح، ولذلك فإن الدعوة التي راحت في اتجاه مغاير هذه المرة، لم تكن تعنيهم لا من قريب ولا من بعيد، كانت تخص زعيماً اكتشفوا للمرة الأولى منذ تجرعوا كؤوساً مريرة من سابقين له، وملهمين أيضاً

مثله، أنهم في نهاية المطاف، مجرد خيط ضئيل في منتصف الشمعة، مطلوب منه أن يتحمل أكثر ويشع، كي يرضى الزعماء عنه، بضع قطرات من الزيت، ليس لها من وظيفة سوى التجمع لتعبيد الطريق الذي سيمر من فوقه المبجل ويعلو، لكن، على الرغم من قيامهم بكل ما طلب منهم في عهود عدة، بل وأكثر من المطلوب، فإن مصيرهم في النهاية، وضع في يد حاكم أهوج، استخدمهم وقوداً في البداية، وها هو يعود مجدداً لنفس اللعبة، بعد أن لم يتبق في روحهم مكان شاغر لمزيد من الندوب.

نفس الوقائع التي عايشوها قبل سنوات، هي التي تتكرر في أرجاء البلاد، نفس السيناريو، وإن اختلفت الكلمات هذه المرة وتبدلت الشعارات، بات عليهم تجرّع ما تردده الحملات الموجهة في منتصف الوقت الفاصل بين جرعة الدواء ووجبة الطعام، وشيئاً فشيئاً تقلصت دروس العادات الحميدة، وتقلصت معها الساعات التي كانت تخصص يومياً لتعليم الشعب كيف يكون مهذباً ولبقاً وأرياً، كيف يجمع بين الطاعة الواجبة لولي أمرهم، والرضا بالقليل ثم انتظار الجائزة الأخرى، القادمة على وجه اليقين بعد الممات.

وفيما توقفت نهائياً الدروس الخاصة بتنمية العضلات وتنشيط الذهن وتحفيز حاسة التفكير، تلك التي كانت تقدم لأمة الخدج بالتلازم مع التدريب القتالي، باتت الحضانة أشبه بالمصنع الذي تعطل فجأة عن العمل بسبب عطل شديد الاستعصاء، انهارت أحلام الزعيم فجأة، وأخذت الأحداث تزيد من شعوره بالورطة، قرّر أن لا يتوقف عن الشحن المعنوي وإن بجرعات أقل، إذ كان يدرك أن شعباً لن يكون محتشداً وراء مشروع كبير، سوف يتجه مباشرة إلى التفكير في التمرد على الحاكم، راح يقرأ في التجارب التي مرت في

العالم، أدرك أنه لا يوجد شعب في أية لحظة تاريخية، كان مضمون الجانب، أيقن أن حكماً اعتقدوا أنهم تمكنوا من وضع شعوبهم داخل لفافة، ثم ألقوا بها في قعر جيوب بزائهم العسكرية، قد صحوا من الغفوة على حقائق مريرة، أطاحت بهم في النهاية وبأحلامهم وألقت بها في صناديق القمامة.

كانت لديه ثمة قناعة بأن تلك الحوادث لا تنطبق على حالته مع شعب كالذي يقوده، مختلف تماماً عن بقية الشعوب، مستكين إلى درجة أثارت استمزازة هو نفسه في بدايات صعوده، قانع بكل ما يلقي إليه، حتى في اللحظات التي لا تتحملها أشد الشعوب صبراً، مطواعاً وليناً وخجولاً، مطأطي الرأس حتى أن قرص الشمس الذي كان يسطع يوماً في سماء الوطن، لم يكن قادراً على ملازمة شوارب رجاله.

ومع أن الوقت الذي ثارت فيه تلك المواجهات في ذهن الزعيم، تزامنت مرحلة اجتياح الوباء لأجساد المواطنين، فإنه رأى أيضاً أن الوقت يسير في صالحه، فالأبناء الحكام مع مرور السنوات تزداد خبرتهم، وسوف يأتي في النهاية، ذلك الزمن الذي يتحول فيه هؤلاء الصغار، الذين يحتاجون إلى من يوجههم للمكان المناسب لقضاء الحاجة، إلى الاعتماد على أنفسهم، والاستغناء عن جيوش من مستشارين هم من الناحية العملية يسيرون كافة شؤون الولايات الأربع، وإن كان ذلك الأمر يتم تحت أسماء المساحيط، ورعاية الأب القائد، ووفقاً لتوجيهاته.

لم تداخله شكوك، في عدم إمكانية تحوّل الشعب الخامل ذات يوم، ولو بعد أن يتم شفاؤه، إلى الثورة على الحاكم، لا عليه هو، المحبوب الذي تحمد سجايه طيلة ساعات اليوم، ولا في الزمن الذي

سيتحول فيه الأبناء إلى ورثة، وفق النظام الذي كان قد حدده في الوصية، والذي سيتم بموجبه تداول سلطة البلاد، بين الأبناء، وفقاً لتدوير سيعتد في الوقت نفسه صعود أبناء جدد إلى سدة حكم الولايات، كما يمكن في الوقت ذاته من إعادة تقسيم الوطن، وتوسيعه، بل وإضافة ولايات جديدة، كلما كان هناك ضرورة توجيهها زيادة المنحدرين من صلب الزعيم، ويصبح من الضروري، أن يتم توزيع أجزاء الوطن بالقسطاس عليهم.

كان أمر الوطن لا يسبب له أية هواجس، فهو على قناعة بأن شعباً كهذا لن يخرج من أصلايه يوماً من يسعى للاستيلاء على السلطة، كما أنه موثق من هيام الشعب به، ومن أنه لن يسمح لأي من كان بارتكاب حماقة كذلك، أو بأي تشكيك ولو همساً في مدى حرص الزعيم على الوطن، وتصور أن هذه البلاد يمكن أن تقوم لها قائمة، إذا لم تكتحل عيون شعبها كل يوم بوجه الملهم وإطلائه البهية من على شاشة التلفاز.

لا شيء كان يزعجه من الداخل، كان الأمر الذي راح يثير الهواجس لديه آتياً من هؤلاء الملاحين المتربصين له في خارج البلاد، هؤلاء الذين أغاظتهم فكرته العبقرية، ويظنون أنه في تلك البوتقة، يدرّب شعبه على القيام بالدسائس ضد الجيران، لا يعرف هؤلاء البلهاء أن رهاناته حصدت فشلاً ذريعاً، ولا يدركون أن الذي راهن على انتشاله من الخمول، قد بات قعيداً، وأن الزعيم لا يستطيع الانتصار بمثل هكذا شعب على سرب من الفئران.

أدرك بعد وقت طويل من المكابرة، أن أحلامه انتهت، وأن عليه في الخطوة التالية أن يفعل ما بوسعه لإبعاد الوباء عن مواطنيه، والعمل في الوقت ذاته على جلب الشفاء لمن افترس الوباء أجسادهم،

على الأقل فإن تلك الخطوة يجب أن تتم قبل أن يقرر الرضوخ عملياً للمطالب الخارجية، تلك التي إن نفذها، فسوف تعني فتح البلاد من جميع الجوانب، اعتباراً من رفع القبعة عن رأس الوطن، إلى إعادة فتح البوابات الحدودية، بل وحتى الوصول في مرحلة لاحقة إلى خطوة إزالة الجدار العازل مع الجيران.

كان عليه أن يخرج من هذا المأزق قبل أن يعرفه القاصي والداني، ففتح بلاده قبل جلب الشفاء، سيكون معناه أن المهيب سيصبح مصدر إضحاك للشعوب الأخرى، سوف تتبادل دول العالم النكات عليه باعتباره زعيماً كاريكاتورياً، مسخرة متعددة الجوانب، لتسلية الشعوب وقادتها في أرجاء المعمورة، وستتحول أحلام اليقظة التي كثيراً ما دأبته في مكتبه الرئاسي وحديقة القصر إلى نكات من العيار الثقيل، إذ إن أمر الإمبراطورية سينكشف، سوف يفصح عنه أحد رجال الحاشية المنافقين، إذا ما أغراه أي حاكم حاقد بالمال والأمان.

سوف تمسك أسرار ما كان يدور على أرض الوطن، سيتم معرفة التدريبات التي كانت تهيئ الشعب لمعركة التحدي، وستتفصح تفاصيل الحملة التعبوية الضخمة التي اعتمدت لتحفيزه، سيرفع النقاب عن دروس التوجيه الديني المحفزة للقتال والصمود والتوسع وفداء الوطن والزعيم بالروح والدم، سيرف الجميع بما تم إعداده، وبالهدف من وراء بناء الحضانة، عندها لن يستطيع الدفاع لا عن نفسه ولا عن بلاده إن وقعت في بؤرة أطماع الكبار.

لكن الزعيم أيضاً، وفي خضم ساعة الوقوف أمام الحقيقة، كان يدرك أن لا بدائل متاحة أمامه، فات الوقت الذي كان يمكن فيه التحرك لدرء الخطر القادم، منذ أن حاصرت أرقام أعداد المواطنين،

وهي تتساقط مع مطلع كل يوم في شراك المرض، كانت جبهة العدو الداخلي قد انفتحت بشدة، وهبت معها بالتزامن، جبهة الأعداء من الخارج، ساعية لانتهاز فرصة لم يسبق أن كانت سانحة، إلى هذه الدرجة من قبل.

أيقن تحت ضغط التطورات المتسارعة، أن التهديد بقدر ما هو موجه للوطن، فإنه في الأساس يقصده شخصياً، وأن هؤلاء المتربصين لن يتركوه هذه المرة دون تنازلات موجهة، إن حدثت فقد تشفع له عندهم للبقاء في مكانه، وفي إمداده بالدواء اللازم لعلاج الشعب الكسح، وبالكراسي المتحركة التي ستمكن المواطنين من التوجه إلى الميادين العامة للاستماع إلى خطبه ومشاهدة طلعه البهية، أما عدا ذلك، من رفع القبة قبل أن تنتهي المهمة التي أقيمت لأجلها، أو إعادة فتح البوابات الحدودية، أو حتى أن وصل الأمر إلى إزالة الجدران المرتفعة، فإن تلك تفاصيل صغيرة تتضاءل أمامها مهمتان اثنتان: حماية استقرار الزعيم فوق الكرسي الرئاسي، وتوفير الكراسي المتحركة والدواء وأشعة الشمس، للشعب الذي بات يتكوّن معظمه في العهد السعيد من كبار رضع.

وفي الوقت الذي انطلقت فيه وفود جديدة إلى مختلف شعوب العالم ممهدة الطريق للقرار التاريخي، ومحاولة الحصول على مكاسب ولو من الناحية الشكلية، يمكن بما حفظ ماء وجه الزعيم، فإن الاستعدادات كانت تجري على قدم وساق داخل حدود البلاد، مصحوبة بحملة دعائية ضخمة وشديدة التركيز، تمهّد الأجواء لليوم الموعود الذي سيعلن فيه قراراته القاسية، هذه المرة عليه هو وحده، بعد أن نال الشعب نصيبه بقرارات صدرت في وقت سابق، دافعة إياه إلى شدّ الأحزمة على البطون الخاوية، والتشارك في الكراسي المتحركة.

تزامنت التحركات على الجبهتين الداخلية والخارجية، استنفرت البلاد بأكملها، كانت خلالها المشاركة الشعبية بأطراف العيون، والقلوب الراجعة، وكان الزعيم يجهز نفسه لكل الاحتمالات، اعتباراً من إعداد أكثر من طائفة خاصة له وللأسرة الكريمة، إن تطورت الأمور إلى ما لا يحمد عقباه، وتهيئة المواطنين الصالحين للدفاع، بقدر ما يستطيعون، عن الوطن وزعيمه حتى آخر قطرة من دمهم رخيص الثمن، حتى لو تطلبت المعركة استخدام آخر كرسي متحرك في الوطن الصامد، معتبراً أن ذلك هو الدليل الحقيقي للشرف الرفيع، الذي لا يسلم من الأذى في العادة، ما لم يراق على جوانبه دماء الضعفاء.

ربضت الطائرات في المطارات السرية، فيما انتظرت السيارات المصفحة في مرآب سري على بعد خطوات من جدار الوطن، كل التجهيزات استكملت لإنقاذ الزعيم وأسرته المبعجلة إذا ما تطورت الأمور إلى الأسوأ، أليست حمايته في حد ذاتها من ضرورات الأمن القومي؟ وأليست تضحيات الشعب بحياته فداء لأبي الأمة وسيلة معتمدة للحكم على صلاح المواطن؟

شعر المقعدون على كراسيهم المتهالكة، وفي ظل ازدحام مروري خائق، تزيد من صعوبته اكتظاظ كراسيهم على الطرقات، بأن هناك تحركات غير عادية، ولأول وهلة تبادلوا تحريك الشفاه وتعبيرات الوجه، غير أنهم كانوا يطرحون أسئلة، ولا يستطيعون إيجاد أجوبة عنها، كأن الوطن لم يعد هو ذلك الذي اعتادوه.

تحركات متسارعة لبشر قليلي لم يصل إليهم الدور في قائمة المرض، يركضون يمينا ويساراً، ييحثون عن مخرج، عن ثقب يمكن أن يكون منسياً في الجدار العازل، يعودون منهكين في النهاية دون فائدة، ينتحبون على قارعة الطرق، وقد باتوا موقنين أن لا فائدة

سوى الرضوخ للأمر الواقع، ينطلقون مجدداً نحو المخازن العامة، إلى محلات بيع الكراسي المتحركة، يعودون مثل المرة السابقة محبطين، يستجهون إلى القصر الرئاسي يكتبون عرائضاً طويلة يملأونها بالدعاء بطول العمر لقائد الأمة، وفي نهايتها يكتبون سطرًا واحد يستجدون منه العطف، توفير كراسي متحركة، لتساعدتهم حين يصل المرض إلى أجسادهم، يرددهم الحرس، يلقي بهم بعيداً، يحذرهم من عقاب صارم إن فكروا في المرة القادمة بالاقتراب.

فجأة يرى المقعدون الشوارع شبه خالية من الشرطة، يتوقعون أن الوباء وصل إلى أفرادها، استطاع هذه المرة أن يخترق الطوق الحديدي الذي يتمتعون به، ويساويهم - في الشعور بالحسرة - بالفقراء.

يبحثون بعيونهم عن أفراد الجيش النظامي، قواته المسلحة، التي ظلت دائماً مستعدة لفرم من يجرؤ على منع حنجرته من الهتاف للرجل الملهم، أو التباطؤ في تنفيذ ما يدعوهم للقيام به.

ليس هذا هو الوطن الذي اعتادوه، إنه وطن يهرول فيه الأصحاء، وينحشر مقعدوه في كراسي لا تكاد تدور إطاراتها، إلا ويتصاعد الأنين منها ومن يمتطيها، فيما وسائل إعلامه تواصل ضخ المواعظ، والدعوات للذين كبّلهم المرض، بعدم الخوف، بضرورة امتلاك قلوب صلبة، وإرادة لا تلين في مواجهة الظروف، في الوقت الذي تشير بين وقت وآخر إلى أن هناك أمور راحت تستجد في المسيرة، وتطلب إعادة النظر في ما تمّ إنجازه حتى الآن، وتقييم الموقف وفق المعطيات المتاحة.

بات مشروع الحضانة الذي هلّل له الزعيم وجوقته في البداية، محلاً لإعادة النظر بعد الوقت الذي قطعه، وها هم البشر الذين لم

يفهموا في البداية سر الحماسة له، يسمعون بأذانهم عبارات تؤكد أن مشروع الأمة سوف تجرى له إعادة تقييم، دون أن يفهموا مجدداً ما الذي تعنيه.

عادت الوفود من الدول الكبرى، حمل القادمون رسائل محددة، الزعيم الذي انتظر وقتاً حتى يكتمل وصولهم، قرّر عقد اجتماع مع رئيس كل وفد على انفراد.

لم يصدق أذنيه حين استمع إليهم، كأنهم التقوا معاً، فالرسائل القادمة من كل دولة تكاد تتطابق، والطلبات تتشابه إلى حد كبير، لكل منها حزمة من المطالب، لو نفذ واحد منها، لقضي على أحلامه، ولدفع جيرانه إلى صبّ الاتهامات ضده بالخيانة والعمالة، لم يصدق أن يسمع ذلك بعد أن تمكن من امتلاك قلوب الجماهير، بعد هذا المشوار الذي حشدتهم في المشروع الهائل، وكان على وشك قطف الثمار، ندب حظه، فلولا مدهمة الوباء، لكان لديه شعب من الأسود، يخوض بهم البحر ويبترح المعجزات، وقتها لم تكن أي دولة مهما كانت، ستجرؤ على إبلاغه برسالة كالتى أبلغها له موفدوه.

كيف لتلك الدول أن تطلب منه ما طلبت؟ كيف لها أن تنسى تاريخه النضالي، ومبادئ ثورته المباركة؟ كيف يمكن أن يرهن عمره كله لمحاربة الاستعمار والاحتلال، وهم بكل صفاقة يريدون منه أن يكون وكيلاً لمخططاتهم في تلك المنطقة الحساسة، البعيدة جداً عن ديارهم؟ ثم في الأصل، كيف قام هؤلاء المتضاربو المصالح بتنسيق جهودهم هكذا ضده؟ كيف اتحدت كلماتهم، وتوافقت مصالحهم، وهو الذي كان يتصور حين أرسل موفديه إليهم، أنه سوف ينجح في اللعب على التناقضات؟

(14)

ها هو يقف وجهاً لوجه أمام ساعة الحقيقة، عليه أن يتعامل مع لحظة شديدة التعقيد من عمر بلاد اعتبرته منقذاً من العهد السابق، وآمنت بشعاراته، ورهنت مستقبلها وصدقته، خرجت للميادين تحتف له، وها هي الآن، قد بات مطلوباً منها أن تتحمل وحدها نتائج مغامرات وأفكار غير مدروسة، أن تماشى ما يجري، إذا وجه سفيتها يميناً، أو أمر بحارتها بقيادتها نحو المجهول.

لكن ما أزعجه، كانت الشروط القاسية التي قدمتها تلك الدول، كي توافق على مساعدته في علاج مرضاه، في الوقت الذي كانت فيه دول الجوار من الأشقاء والأصدقاء، ترفض مجرد النظر في طلبات قدمها لإمداد بلاده بمواد استهلاكية، بعد أن كاد المخزون الاستراتيجي يقترب من النفاذ، وبعد أن أيقن من استحالة قيام أبناء الشعب، بتحقيق الاكتفاء الذاتي.

كان يهدف من وراء إرسال الوفود التي غطت جميع أرجاء العالم، وقطعت مسافات طويلة في الطائرات، إلى تحقيق أقصى قدر من التعاون مع الدول الكبرى، بعدما راودته الشكوك في إمكانية أن ينسى الجيران له القرار المنفرد بإقامة الحضانة.

كان أيضاً يدرك أن الأمصال المطلوبة لوقف انتشار المرض، والتجهيزات لا يتم تصنيعها إلا هناك، تلك أمور كانت شديدة العجلة، في الوقت الذي لا يملك من وسيلة أخرى ليوقف تدهوراً، راح ينتقل من بيت إلى آخر ومن جهة واحدة، لجهات عدة.

وبعد أن وصلت الأمور إلى حافة الخطر، بات عليه أن يقدم تنازلات مؤلمة، ذلك هو المقابل المرير الذي لا بد من تجرعه، وإلا فإن

المشاكل سوف تتفاقم، ولن يتمكن أي تحرك في الوقت غير المناسب من إنقاذ الموقف.

في نهاية المكابرة، وافق على جميع الشروط التي وضعتها الدول الكبرى، مستبعداً في ذلك الوقت ما طالب به الجيران، إذ كان يثق في أن إقامة علاقات مع الكبار، سوف تتكفل بفك أي حصار تمّ ضربه حول بلاده، وعند هذه النقطة، قرّر إلقاء خطابه التاريخي، عبر التليفزيون الرسمي، بعد أن بات إحضار المواطنين المشلولين إلى الأستاذ الوطني أمراً صعباً، لأنه ليس يليق به كمهيب أن ينقل التليفزيون الحكومي صورته وهو يلقي خطابه التاريخي بحماسة المعروفة وسط قوم مربوطين إلى كراسي متحركة.

عندما جاء اليوم الموعد، الذي سيتجه بكلماته المنتظرة إلى شعبه، كانت وسائل الإعلام قد ملأت الأثير بصداع اسمه "الخطاب المصري"، حتى أن الناس أصابها الملل، وتمت أن يأتي ذلك اليوم وينتهي، في الوقت الذي كانت تدرك من تجارب سابقة، أنه بعد انتهاء الخطاب، سوف تصعد نوبة صداع جديدة، يتم خلالها تحليل الخطاب وما ورد فيه من حكم، لم يسبق إليها الأولون ولن تخطر على بال الآخرين، سوف تنبري وسائل الإعلام الرسمية في مطاردة الناس ببرامج يتصدى فيها محللون سياسيون يجيدون تكرار نفس العبارات، مع تعديل الصياغة، وسوف تخرج الأغاني التي تمّ طبخها على عجل، وسيعيد التليفزيون الخطاب وفقراته، في الوقت الذي سيكون على المواطنين انتظار صحف الغد التي كالعادة ستخصص وعلى مدى أيام صفحاتها لاستطلاع رأي الخبراء والمشاهير والمواطنين المنتقين بعناية، للإشادة بالدرر التي نطق بها المجلد دام عمره، وسمي مقامه.

(15)

على الشاشة الفضية، أطلّ وجه الرجل الذي تفتديه جموع شعبه بالروح والدم والسيقان الكسيحة، فانخطفت القلوب مثلما يحدث في كل مرة، راح يشيد بالوطن الذي أثبت صلابته على مدار الأزمان، والذي قدم منذ القدم التضحيات المتتالية، وأثبت للعالم أنه جدير بالحياة وقادر على إعادة صياغة التاريخ.

استطرد الزعيم مشيراً إلى أن ذلك التاريخ سوف يكتب في صفحاته بحروف من نور، تضحيات أبناء الوطن، والتفافهم حول ثورتهم المباركة، وافتدائهم لها بالأرواح، ومدى تجاوبهم مع الدعوة الصادقة لبناء مستقبل مشرق للوطن وأجياله القادمة.

بعد تلك المقدمة، التي حشد فيها عبارات منحوتة بعناية، وإشادات التي لم يكن في قرارة نفسه يؤمن بكلمة واحدة منها، قال لشعبه الكسيع:

- "يا شعبي الصامد الصابر، أيها الشعب الذي استطاع التحكم في الشمس والقمر، يخفيهما وقت يشاء ويسمح لهما بالسطوع أن أراد، أيها الشعب الذي صنع المعجزات، والذي تقف له جميع شعوب العالم احتراماً وإعجاباً وإكباراً، تقديراً لروح التحدي الذي يمتلكها، وإعجاباً بقدرته على اجترار المستحيلات، نحن الآن أمام منعطف تاريخي في حياة أمتنا ووطننا العزيز، ونعيش في خضم مرحلة سوف تسجلها الأزمان بحروف من نور، للشعب الذي لم يتوقف يوماً عن السعي لتعديل مساره، والذي قدم نموذجاً تحذيه الأمم، فما فعلتموه حتى الآن لن تنساه ذاكرة التاريخ مهما حاول الحاقدون طمس المواقف المضيئة لأبناء هذا الوطن".

تبادل الجالسون في بؤس أمام أجهزة التلفزيون نظرات متسائلة،
لم يكن أي منهم يدرك ما الذي استدعى لذلك التمهيد؟ وما الذي
يمكن أن يأتي من بعده؟

- "إن الرياح يا شعبي العزيز، أتت بما لم تكن السفن
تشتهيه، على الرغم من أن سفينة الوطن قد قامت بما يجب عليها
القيام به، كما أن الربان استعد بشكل عبثي لكل ما يجعلها تبحر
في سلام، لكن ومع كل الإجراءات المتخذة فإن هناك أموراً طرأت،
تعرفونها جيداً ويجب أن نتصاح بشأها ونقول ما يجب أن يقال في
مثل تلك الحالة".

ازدادت نظرات المقعدين حيرة، وضعوا أياديهم السليمة على
قلوبهم خوفاً، استمر الزعيم:

- "لقد ضرب وطننا العزيز، وباء أشبه بالأعاصير حين تحتاج
المدن وتتسبب في الإطاحة بأمان المواطنين، لقد صحنوا ذات يوم
على المرض الذي غزا أجساد مواطنينا، والذي نشك في أنه تمّ بفعل
الأعداء، بعد أن بلغت درجة حقدهم على هذا الشعب مبلغاً خطراً،
وازدادت درجة الحسد التي صبوها عليه، إلى الحدّ الذي خرجت من
عيونهم اللئيمة شرارات الحقد والبغضاء، فأصابنا وطننا بوباء لم
يشهده طوال تاريخه، وأقعدت الكثيرين ممن كنا نعول عليهم في بناء
مُحضتنا الحديثة، ودفعت جهودنا لتحويل إلى اهتمامات أخرى، أراد
الأعداء إرباكنا، وإلهاء الأمة عن مواصلة السير على الخطى التي
ارتضيناها، أرادوا دفعنا للاستسلام، فأصابوا سيقان أبناء شعبنا، حتى
كاد الأمر يصل إلى أعز ما يملك هؤلاء لولا أن الله سلم".

ارتفعت أكف المواطنين بالشكر، عادوا لتبادل نظرات قلقة،
كان لديهم إحساس قوي بأن القادم قد يكون مفزعاً، فراحوا

يستعدون من الناحية النفسية لتقبل ما يمكن أن يكون بانتظارهم،
استطرد الزعيم قائلاً:

- "والآن أمام تلك الفاجعة الكبرى، والتي لا بد من اتخاذ قرار شجاع إزاءها، من أجل صالح الوطن وجميع المنتسبين إليه، فإنني أعلن أمامكم أن الغرض الذي أقمنا من أجله الحضانة قد انتفى، بعد أن استطعنا عن طريقه تدريب العديد من المواطنين، والنجاح في إعادة التأهيل المطلوب، ومن هنا فإنه بات من المؤكد القول إن معظم الشعب بعد قضاء هذا الوقت في الحضانة، قد أصبح مؤهلاً للأغراض التي كنا نرغبنا فيها، وأصبح كل فرد، يمتلك العديد من المواهب والإمكانات العالية التي ستمكنه من إكمال المسيرة ومواصلة عملية البناء، وهو الأمر الذي سوف يجني الوطن ثماره في أقرب وقت، وخصوصاً في أعقاب تحقيق الشفاء من المرض، وتحقيق الانتصار عليه، وهو هدف نضعه نصب أعيننا، واعداء إياكم بأنه لن تقرّ لنا عين ولن يهدأ لنا بال قبل القضاء عليه قضاء مبرماً، وفي وقت قريب.

فلا تجزعوا، ولا تخشوا، وثقوا في قدرات بلدكم، فأنتم الأعلى شأنًا، والأصلب عوداً، يا شعبي الحبيب الرائع".

ما أن انتهى من خطابه، حتى راح المعلقون يشيرون إلى الحكمة البالغة التي كانت وراء قرار إلغاء الحضانة، باعتبار أنه جاء في وقته التاريخي، ليتماشى مع ما يجري في عالم يعيش ظروفاً متغيرة، حيث السماوات باتت مفتوحة، ما يستدعي أن يندمج الوطن في هذا الأفق الواحد، وأن لا يستخلف مهما كانت المبررات عن الالتحاق به، مؤكدين أن ذلك يعد دليلاً إضافياً على الحكمة البالغة، وبعد النظر، والرؤية الثاقبة التي يمتلكها زعيم الوطن المفدى.

واعتباراً من اليوم التالي، راح الذين لم يصبهم الدور في قائمة المرضى، ينطلقون إلى حيث الجدران الحدودية، لم ينتظر أحد منهم صدور الأمر ببدء عملية الهدم الوطني، إذ راحوا مدفوعين بحاجاتهم إلى خيوط الأشعة، لرفع قبعة الوطن واقتناص أي قدر ممكن الحصول عليه من العلاج الشمسي، كانوا قد فقدوا أي طعم للحياة منذ أن اجتاح المرض أشقاء لهم وأهل وأصدقاء، وجدوهم بين طرفة عين وانتباهتها فريسة للألم، والمصير المظلم، ورأوا أطفالاً في عمر الزهور تتساقط، تصاب بالكساح منذ اللحظة التي هبطوا فيها من بطون أمهاتهم، وعلى الرغم مما بشر به الزعيم وقت أن زفّ مشروع الحضانة باعتباره نموذجاً للاقتداء.

منذ ذلك الوقت، توقفت الزوجات عن ممارسة الحياة الطبيعية، خشية الحمل بأجنة شوهاء، كما أن الرجال الذين كانت لديهم نية الزواج، سرعان ما ألغوها، هجرت الأعراس الوطن، فلا أفراح فيه ولا معاشرة، أصبح الزواج في عهد الحضانة المباركة، فعل غير مرغوب فيه، منذ أن تحولت الأمنيات بإنجاب الأطفال إلى رعب حقيقي.

غير أن العجيب، الذي سرى الحديث عنه همساً بين الأهالي، هو أن المفدى الذي كانت شهيته مفتوحة، لم يتوقف لا عن الزواج ولا عن الإنجاب، بل لم يزر الوباء أنجمله ولو بطريق الصدفة، كما لم يصل أصلاً إلى أي من رجالات الحاشية ولا من يعولون، ذلك ما دفع المواطنين الصالحين إلى تفسيره بالسر الكامن في الزعيم، والبركة التي تحوطه، تلك التي تتمدد أغطيته لتشمل المقربين منه، ولا تزيد.

الاعتقاد بأن إزالة الحضانة هي الحل للخروج من حالة الشلل، تحول إلى هاجس مقيم، يصاحب الأهالي طيلة الوقت، آمنوا بما

رددته وسائل الإعلام الرسمي وقامت بعزفه أفواه المنتمين إلى الحاشية، وهو ما عجل في قيام الشعب بإبداء ردّ الفعل التلقائي، إذ اندفع الأصحاء فيما يشبه أداء الواجب، لتنفيذ ما سمح لهم به.

قفز الذين لم يصل الوباء إليهم بعد إلى أعلى الجدران، بحثوا عن المكان الذي يمكن منه إزاحة طرف القبعة، حاولوا حتى أصابهم اليأس، عصت تلك اللعينة ذات الثقل الهائل، الملتصقة إلى حدّ الدمج مع أطراف الحوائط، ما أضاع يوماً كاملاً بغير جدوى، ودفع الشبان الأقوياء إلى الارتقاء أرضاً، في وهن.

لم يعد هناك مفر من استدعاء الآليات التي جاءت في المرة السابقة، لن ترفض الدول الجارة غير الشقيقة بعد تلك التطورات إرسالها مع أطقمها، حين يكون المبرّر هو إزالة ما تسبب في فصل شعوب المنطقة عن بعضها، وفي إغلاق البعثات الدبلوماسية، سوف تبتهج تلك الدول ليس لأنها ستتقاضى أموالاً هائلة كما حدث في المرة الأولى، ولكن لأنها سوف تعرف تماماً السبب الذي أقيمت من أجله الحضانة، وستزداد ابتهاجاً حين تدرك أن غرور الزعيم قد وجد في نهاية المطاف، صخرة ليتحطم عليها.

ما توقعه المبجل في هذا الشأن كان صائباً، في البداية حين أخذ يراقب محاولات الشباب لإزالة القبعة، أوعز إلى أجهزته بدفع الفكرة إلى ذهن البعض منهم، أصدر أوامره بالآل يقوم أحد باعتراض طريقهم، غير أنه لما علم بأن الأمر لم يجد نفعا، كان عليه أن يأمر معاونيه بالاتصال بتلك الدول، التي يعلم أنها تعاديه، لدعوتها إلى إرسال فرق الإزالة مع إبلاغها أن التكلفة سوف يتم تسديدها لاحقاً، كان ذلك يعني أن الخزانة التي كانت متخمة حين تسلّمها في أعقاب الانقلاب، تكفلت مغامراته المهووسة بإيصالها إلى حدّ الخواء.

عندئذ، توقف كل نشاط في البلاد، واندفع الملهم يتخذ قراره بإغلاق الحدود، فلم يعد أمام الوطن إلا الدخول في تحدي غير مدروس، للاعتماد على الذات.

على الرغم من ذلك، فإن الدول التي وصلت إليها الرسالة، حتى من دون الإفصاح عن حقيقة الأوضاع المالية المزرية في وطن الزعيم، وافقت على الفور، إذ كانت الإزالة في حد ذاتها مكسباً تجنيه، ثم كان تكبيل الوطن في الدين العام حلاً آخر يمكن لقه فيما بعد، وبقدر الإمكان على رقة الوطن وحاكمه.

لم تمض أيام قليلة، كان الزعيم فيها مثل عادته قد حشد الوطن، وضعه بالكامل في حالة طوارئ، استعداداً للحدث المشهود، كأن الوطن المسكين بات مكتوباً عليه أن يرقص فرحاً حين توضع القبعة، وينتشي طرباً أن أزيلت، راح هذه المرة يراقب ما يجري في سيارته الرئاسية الفخمة، فيما الجمهور الوفي أتى إلى المنتصف، متزاحماً فوق كراسيه المتحركة، هذه المرة لم يكن مطلوباً من أفرادهِ سوى رفع الأكف بالدعاء، أن يحف التوفيق البلاد في تلك اللحظات التاريخية، ومع أنهم جاءوا لحضور تلك الفرجة، إلا أن الأكف هذه المرة لم تكن مدفوعة بذات الحماسة السابقة، إذ اكتشف معظم المحتشدين أن نقصاً فادحاً قد أصاب الجهاز المكلف بمراقبة المواطنين، للدرجة التي دفعته هذه المرة للاكتفاء بالمشاهدة، وترك الأمور كلها لقائد المسيرة المظفر، يرفع كفيه وحده، لكنهم وفي لحظة أن اتفقت أياديهم على التكاسل، وباتوا موقنين أن لا شيء سوف يخسرونه، سواء أرفعت القبعة أم تناثرت شظايا، فإن في دواخلهم كانوا يطمعون في عودة الشمس لتشد الأعواد، والهواء ينطلق من جديد في سماء البلاد، والقمر ليطل على استحياء ويضيء لديهم جلسات السمر في المساءات القادمة.

أخذ الغطاء يرتفع ببطء، فيما كانت تتعالى الصيحات، كأنها هذه المرة تؤدي واجباً مدرسياً، في الوقت الذي كانت تخفت في نفوسهم عادة التنافس على إظهار أشد درجات الولاء، كانوا هذه المرة في مجملهم يشعرون أنهم باتوا خارج الزمن، بعيداً عن الحالة التي عاشوها في مرات سابقة، كان في هذه المرة بالتحديد ثمة شيء ينكسر، يدفعهم للإفافة على حقيقة، أن الأحلام الكبيرة التي اندفعوا يعاقرونها، والمهمة القومية التي أسكنها الزعيم في أرواحهم، وارتكنت أعمارهم انتظاراً لتحقيقها، أصابها الفشل، وأن الأمانى التي وعدتهم بالوصول إلى العلا، بتحقيق مجتمعات الكفاية والعدالة، بالقضاء على الاستغلال والفساد والرشوة، تحقيق الرفاهية والتفوق على جميع دول وشعوب العالم، والوصول بالوطن إلى ما بعد القمة، أسفرت في النهاية، عن شلل أصاب البشر، والوطن، ضرب مفاصله وخثر الدم في عروقه، قتل الحمية والأمل، وأوقعهم بعد تلك الانتظارات الطويلة في جب لا قرار له، بعد أن جاءت النهاية الفاضحة، فارتفعت القبعة وأصبح الوطن عارياً، مكشوفاً.

بعد لحظات أخذ الضوء يخرق فضاء الوطن، سارع البشر الذين نسيت أعينهم النهار، إلى إغلاق الجفون، كأنهم بعد طول المدة التي قضاوها في الحضانة الرحبة، اعتادوا البياض القادم من محطات توليد الكهرباء، أو كأنهم تحولوا في تلك اللحظة إلى ما يشبه الأجنة حين تغادر بطون الأمهات، لكن الضوء الهاجم لم يكن ليتنظر تأقلمهم، فمع ارتفاع أجزاء القبعة إلى الأعلى أولاً، ثم هبوط الجزء المنزوع بعد الآخر على أرض الوطن، سرعان ما أخذ يقتحم بشدة، مصحوباً بقوة أشعة شمسية ضاربة، لم يجد المواطنون بداً معها من بسط الأكف وتغطية النواظر، علّ بالإمكان، جلب الحماية لمركز الرؤية لدى الأجساد العلية.

دخلت الشمس وانتشر الهواء في أرجاء الوطن، وشيئاً فشيئاً
راححت السحب تروح وتجيء في سماءه، تماماً كما اعتادوا عليها في
المرات السابقة، استنشقوا هواء افتقدوه. فراحوا في نوبة سعال، غطّت
بضحيجها على أصوات الارتفاعات.

مرقت طائرة فأخرى فوق سماء الوطن، فانطلقت سيارة قائد
الأمّة المغوار عائدة من حيث أتت، انتهر الأهالي الفرصة، توجهوا
بكراسيهم نحو الجدران العالية، للموا قطع الحجارة، راحوا يرشقونها،
ينفثون في يأس عن مكبوت ظلّ كامناً، انطلق رجال الأمن الرئاسي
على الفور إلى هناك، كانوا يتمتعون بعافية تتوهج بين الحين والآخر
بالعطايا الرئاسية، راحوا يرفعون المراوات، يهددون المقعدين،
يحدروهم من التمادي في محاولة هدم الأسوار قبل أن يصدر قرار
رئاسي.

اندفعت المراوات الغليظة تموى على رؤوس انتابتها للمرة الأولى
حماسة عارمة، راحوا هم أيضاً يدافعون بما امتلكت الأيدي، يتحولون
عن الجدران ويرشقون الوحوش الهائجة بالحجارة، ازدادوا هم أيضاً
شراسة عند رؤية انقلاب أقرانهم من فوق كراسيهم، ومشهد الساحة
إذ باتت مفروشة بلحوم البشر المكشوفة، بالدماء الحارة التي اختلطت
بتراب الأرض، فتشكلت العجائن، منبعجة، وقانية.

كانت تلك حالة نادرة لم يسبق أن مرت في ذاكرة الوطن، ما
أنزل همّاً بالغاً لدى الزعيم، شكل في ذهنه فيما بعد، طريقاً جديداً
قرّر السير فيه، لكسر أي سلوك قد يبدر من الشعب في أي لحظة
قادمة.

اعتبر ما جرى خطأً أحمرّاً تمّ تجاوزه، زلزالاً مبالغتاً وهائلاً،
لرجل ظلّ طيلة الأعوام الماضية يؤكد لنفسه أن رصيده من حب

الجماهير يفوق ما حصل عليه أي حاكم في أي زمان، وفي أي منطقة، وما هو، وهو الأب الملهم، المهيب الفذ، صاحب الأسماء التي تمتد لافتاتها إلى عدة أميال، والد الجميع، وحامي الحمى، والساھر، الحنون، الحارس، النادر، يصحو على كابوس، لم يتخيل أن يحدث في عهده يوماً، راح يقلب الأمر، فيما أخذ يتناول تقريراً في إثر آخر، عن تلك الواقعة التي أعقبت فتح سماء الوطن.

على عجل، أصدر أمراً بدعوة مستشاريه، أخبرهم بالمهام الجديدة، بعضها كان تالياً لرفع القبعة، كإعادة افتتاح المطار الدولي، والبدء في المباحثات المتعلقة بإرجاع البعثات الدبلوماسية إلى الدول التي سحبت منها، وانطلاق وفد إلى بنك الإقراض الدولي للحصول على ديون جديدة، تساهم في تسيير الأمور خلال الفترة الانتقالية المقبلة، وفي الوقت نفسه البدء في إرسال الوفود التجارية التي سيتم تكليفها بجلب البضائع والمواد الغذائية التي يحتاجها المواطنون، سواء عن طريق الدفع المؤجل، أو بضمانة من الهيئات العالمية.

كان لا بد له من بدء الطريق من أوله، كأن هذا الوطن سينطلق للتو، ليصبح في عداد الدول الناشئة، وهذا ما أصابه بالألم، وعطل طموحات تصور يوماً أنها ستتوج بإمبراطورية.

غير أن أشد ما أخذ ينغص عليه أوقاته، تلك التقارير التي رفعت إليه من الوزير الأمين المختص بمراقبة المواطنين، إذ كشفت عن حالة تملل خطيرة، راحت تتصاعد بين هؤلاء الذين لم يكن لديه من قبل أدنى شك في أنهم من أكثر الكائنات وداعة، لدرجة أنه لم يخطر في باله يوماً أن يسري لديهم القلق ولو بالنوايا.

منذ هذا الوقت بدأت مرحلة مختلفة، من مراحل الوطن، سوف يصب فيها الزعيم معظم اهتمامه الشخصي على الناحية الأمنية، تلك

التي لم تكن تشغل حيزاً كبيراً لديه، انطلاقاً من أنه في مثل حالة وطن كهذا، فإن الغضب مرفوع، والتملل ليس يأتي إلا كأضغاث الأحلام.

من هنا كان عليه أن يضع مجدداً في حساباته جملة مشاكل سعدت فجأة، أظهرها الوباء الكاسح، الذي هجم على أبناء الوطن وأربك الخطط التي رسمها، وكاد يقضي على أحلامه.

وفي الوقت التي وضعت أمام الزعيم جملة من السيناريوهات للتعامل مع أزمة الاحتجاجات الحجرية ليلة رفع القبة، فإن ما استوقفه، كان التقرير الذي يشير إلى أن ما حدث، لا يعدو أن يكون احتجاجاً طارئاً من بضعة شبان لم يستطيعوا التواؤم مع المرض، انطلقوا إلى الجدران تلبية لما فهموه من عبارات وردت في خطاب القائد، أشارت إلى أن الجدوى التي كانت متوخاة من إقامة الحضانة، قد انتفت، وأن هؤلاء تصوروا أنهم يقومون بتنفيذ إرادة الزعيم حين يساهمون رغم ظروفهم المرضية في إبداء ولو نواياهم الحسنة، أشار التقرير أيضاً إلى أن ما أشعل الموقف كان هجوم رجال الأمن إلى المراتب، ما أسال دم المقعدين وكسر كراسي الكثيرين منهم، الأمر الذي دفع البعض إلى إلقاء الحجارة، دفاعاً عن النفس.

الزعيم الذي يحتاج في هذا الوقت إلى إثبات ولاء الجبهة الداخلية له، وجد نفسه ميالاً إلى تصديق ما ورد في التقرير، كان يريد تأجيل أي أمر يتعلق بالداخل، كي يتفرغ ذهنه للتعامل مع جبهة خارجية، ترصد له ولبلده، تلك التي أخذت بجميع دولها: القريب منها والشقيق، أو البعيد الطامع، هؤلاء الذين يملكون كل ما يحتاج إليه الوطن وسكانه للمداواة والإطعام والتنقل والاتصال، بل وجميع الاحتياجات حتى ما كان منها بسيطاً.

ومع أنه سعى لإدخال الطمأنينة إلى النفس والتأكيد على أن الحادث الذي جرى كان عرضياً، سوف ينتهي بانتهاء مسبباته، فإنه بحكم تركيبته، كان أقرب إلى الخروج مما حدث بدرس، مفاده أن أي تجاهل قادم لمطالب المقعدين خصوصاً الشبان الخزان، سوف يشكل البذرة التي ستنمو منها نبتة الاحتجاجات والإضرابات والمظاهرات، بل وحتى الاضطرابات، وهو الأمر الذي إن سمح بحدوثه، في ظل الحالة الجديدة التي انكشفت فيها رأس بلده، وباتت أي طائفة تجسس قادرة على كشف أدق خباياه، فسوف يهدد مشاريع لا زالت ترفض مغادرة ذهنه، ويمحي النفس بإمكانية أن يأتي يوم تحقيقها، معتبراً أن ما جرى مجرد نكسة، سوف يفيق من آثارها يوماً وينطلق مرة أخرى إلى تحقيق أحلام وطن، فرضت الظروف والوباء المفاجئ عليه التراجع لبعض الوقت.

كان لديه هذه المرة ما يدفعه للتثبث بأوهام اعتقد أنها سوف تتحقق إذا ما تمت معالجة الأخطاء التي ارتكبت والتي من بينها عدم توقع الأضرار الجانبية للحضانة، وأراد بعد كل هذا الإخفاق العمل من جديد على بناء الجبهة الداخلية، وزيادة تلاحمها.

بات يدرك أن المطلوب العاجل أمامه، هو إعادة معالجة المرضى، مع التركيز على فئة الشباب في المرحلة الأولى، فالوطن يحتاج إلى السواعد التي سوف تشارك في سدّ الاحتياجات، كما تحتاج إلى كل المهن التي تسبب المرض في تعطيل طاقات أصحابها يجب أن تعود إلى العمل من جديد لتشارك في البناء، وبالشكل الذي يمنح الأمل في عدم عودة الوطن العزيز ليستورد قمحه على ظهر باخرة قادمة من الدول الكبرى، وأنه لن يحتاج إلى من يعلمه طريقة الزراعة والتصنيع، أو حتى التدريبات العسكرية.

أما المرحلة الثانية فسوف تخصص لمن هم أكبر قليلاً، أما العجائز فمن الأفضل تركهم وعدم تبديد طاقات الوطن وإمكاناته في معالجة وتأهيل من ليس في حاجة لهم، من يعتبرهم الزعيم عبئاً إضافياً.

وفي الوقت الذي قرّر فيه الإقدام على تلك الخطوة لكن بعد اكتمال علاج الشبان، والسعي لوقف اصطيداء الرباء مواطنين جدد، قرّر وضع رقابة صارمة على من يمكن أن تصدر عنهم في المستقبل أي نوايا احتجاج، وعلى الرغم من النقص الحاد في موارد الخزنة العامة، فقد أصدر قراراً بزيادة المخصصات المالية للأمن الوطني، ورفع المكافآت الممنوحة لرجاله، مع وضع خطة لزيادة عدد المنضمين إلى هذا الجهاز الحيوي ليصبح بانتهاء تلك المدة عدد المنتسبين إليه مساوياً لعدد أبناء الوطن الآخرين.

انطلقت الوفود تجوب مناطق حددها الزعيم، حاملة المغريات التي يسيل لها لعاب الدول التي تتطلع لفتح أسواق جديدة، ومقدمة وعوداً مصحوبة بامتيازات جمّة، فيما راح الوفد التجاري يخوض محادثات شاقة مع مسؤولي البنك الذي يقوم بإقراض دول يراها مسائرة، أو التي سيكون هناك أمل في أن تصحح سياستها، وتسير في المستقبل القريب على الصراط الدولي المستقيم.

استغرقت الجولات زمناً، إذ غطّت عدداً من الدول تقع على مساحات متباعدة، لكنها عادت بمثل ما توصل إليه الوفد الذي كان قد زار الدول الكبرى قبل رفع القبعة، معبأة بشروط هائلة، أصابت الزعيم بالذهول، سواء في حجم طلباتها، أو مدى الوقاحة الذي ذهب إلى، كانت كلها تدور حول ما يدخل مباشرة في السيادة الوطنية، غير أن قبولها، رغم ما حملت من إجحاف، لم يكن سوى

الحل الوحيد المتاح، لإمداد الوطن باحتياجاته، وما يكفل تخفيف وطأة الحزام المشدود.

وفيما يشبه اختراع السم، راح الزعيم يبلغ الوفود العائدة، قبوله كل الشروط، كان يريد في النهاية فك حالة العزلة التي فرضت، سواء من دول كبرى أرادت ضمان أن لا يمر أي قرار يصدره هو قبل أن يحصل مسبقاً على الموافقة منها، أو من الدول الشقيقة ودول الجيران التي كان لديها أعمق الشكوك في نواياه، والتي ظلت تعقد اجتماعات دورية تتشاور خلالها بشأن الموقف الذي يجب أن يتخذ من جانبها للتعامل مع الوضع، خصوصاً بعد اكتشاف ما فعله الكساح وخشيتهم من التعامل مجدداً مع بلد جار... موبوء.

(16)

انفتحت سماء الوطن بلا عوائق، فسكنته الشمس، وبعد ما أفلحت حملة وطنية في معالجة العيون الرامدة من وهج الضوء، بات الشلل الذي ظل يقعد المواطنين، ضاغطاً على النظام للتحرك كي تعود الحركة للأجزاء المشلولة.

حذر الخبراء في تقرير رفعوه للزعيم عن تطورات الأحوال الأمنية في البلاد، من أن عدم العثور على وسيلة لتحسين الأوضاع الصحية، قد يساهم في سريان حالة من التملل، إن تم السماح لها بالبداية ولو على استحياء، تتحول إلى حركة احتجاج، سرعان ما تتخذ شكل كرة الثلج، ما ينذر بحدوث تأثيرات سيئة.

كانت النصيحة هذه المرة تدعو لإيلاء تلك المسألة مزيداً من الانتباه، وإلا فإن كل الخطط التي ظلت تروح وتجيء في ذهن الزعيم،

سوف تواجه ما يعيق المسيرة التي يقود خلالها الملهم شعبه إلى ذرى السحاب.

كان عليه أن لا ينتظر حتى وصول المواد من الدول الأخرى، إذ داخله فزع، من أن يكون هو في الحالتين، الخاسر الأكبر، فإن عاجل المقعدين فقد يثورون عليه، وإن تركهم سوف يصبح أضحوكة يتسلّى بها الحكام وشعوبهم في الدول المجاورة، وهو ما لا ينبغي الوصول إليه مهما كانت الظروف، كان يود أن يظل في أعين شعوب تلك الدول زعيماً من الطراز النادر، من هؤلاء القادة الذين لا يجود الزمان بأمثالهم.

ذلك ما قالته التقارير التي كتبها أفراد من الحاشية، كانت تركز على ما يدخل البهجة في نفسه، والتي عادة ما تشير إلى أن شعوب العالم تتيه به إعجاباً، فيما يتمناه مواطنو الدول الجارة حاكماً، وأنها حين تقارن إنجازاته، تشعر على الفور أن قادتها إلى جانبه... أقلّ قامة.

لكنه على الرغم من المخاوف، كان كالحكام المحنكين يدرك ما الذي ينبغي عليه فعله، فيما لو تمّ القضاء على المرض، وإعادة الشبان المصابين إلى حالتهم الطبيعية، عندئذ سيكون أمر التعامل يسيراً، وبنفس الطريقة المثلى، إشغال هؤلاء بالتدريب القتالي والشحن المعنوي الذي جرّب مفعوله من قبل داخل حضانة مأسوف عليها، أو إلهائهم في البحث المتواصل طيلة اليوم عن لقمة العيش.

أما الأكبر سناً فهو يعرف أيضاً ما يجب أن يفعله تجاههم، كي يضمن إحدى الأمرين: إما الولاء التام والاستعداد دون تردد لافتداء الزعيم بالأرواح والدماء، والنفس والنفيس، أو مواجهة تفاصيل حياة طاحنة، تلك هي الطريقة التي جرّبت في الكثير من الدول التي تكتوي

في العادة بزعماء أطبقوا قبضتهم منذ أن صعدوا إلى الحكم على رقاب الأوطان وكائناتها الهشة، ويزيدون في الإطباق، كلما ازدادت الكراسي اهتزازاً من تحتهم.

دخل المرض مرحلة التقلص، بدأ مع توفّر أشعة الشمس، فيما بدأ شبان كثيرون في التعافي مع توفّر الأدوية، والمواظبة على العلاج الطبيعي، يخالجهم شعور بأن ساعات الآلام آخذة في النقصان، وأن التوقف التام سوف يأتي بعد جرعات قليلة من الصبر.

لكن النجيب ما أن استمع إلى تقارير المقررين التي ترصد ابتهاج الشعب بمزيمة الوباء، حتى راح يفكر في اتجاه آخر، في الوقت ذاته قام المسؤولون عن الشحن المعنوي بيبث رسائل وهمية تشيد بحكمة الزعيم الذي يتم تحت رعايته ووفقاً لتوجيهاته تحقيق الإنجازات المتتالية في معركة القضاء على الوباء، معتبرة أن ذلك هو من أكبر الدلائل على انتصارات الوطن في الأيام المقبلة، هكذا استطاع الإعلام الرسمي، الذي لم يكن هناك في تلك الديار لاعباً غيره، أن يقلب الحقائق، حتى أن أحداً في تلك اللحظات، لم يتذكر ولو للحظة أن الوباء أيضاً كان من النتائج السيئة لمشروع الحضانة، التي تفتق عنها ذهن المبجل في لحظة هوس.

في هذا الوقت بالتحديد استدعى الزعيم صديقه الحميم على عجل، وما أن جاءه مهرولاً، حتى أفصح له عن قلق بات يعتره منذ رشق الشبان رجال الحرس، معتبراً أنه على الرغم من التطمينات بأن الأمر لم يكن مقصوداً، إلا أن ما حدث أعطاه مؤشراً على ما يمكن أن يحدث من ذلك الشعب في لحظات الغضب، أبلغه بأن التدريبات التي تلقاها هؤلاء في الحضانة، يمكن أن تكون ساهمت في إلهاب مشاعرهم، وأنه إذا ما جرح مشاعرهم، أو وقعت أخطاء فادحة في مستقبل، فقد يحدث ما لا تحمد عقباه، وهو ما يجب الاحتياط له.

على الفور التقط الصديق الخبير بما يدور في ذهن الزعيم، مقاصده قبل أن ينطق، نصحه بضرورة تأمين النفس والعائلة من غوائل الزمن، أعاد إنعاش مخاوفه بالتأكيد على عدم وجود كائن بشري قادر على درء ما يمكن أن يحمله المستقبل من مفاجآت مزعجة.

استحسن المبجل نباهة كاتم أسرارده، غير أنه أراد أن يستمع منه إلى تفاصيل أكثر، في الاتجاه الذي يرمي إليه، والذي يتعلق بتأمين المستقبل له ولأفراد عائلته، والمنتمين إلى البطانة، وهو الأمر الذي أنطق الرجل الخبير بما يود الحاكم أن يسمعه، نصحه بالتفكير في الأمر، وعدم تكرار ما فعله بعض الذين كانوا زعماء في بلدانهم، ثم عندما أطيح بهم، راحوا يقضون بقية العمر، وهم أقرب إلى المتسولين.

لم يعرف الزعيم، كيف يمكن تأمين المستقبل للعائلة بينما الخزانة خاوية، والديون الخارجية تتراكم يوماً بعد يوم؟ أو حتى كيف يستطيع الخروج ببلده من رقبة دين تكاد حباله تلتف ذات يوم على رقبة الوطن والنظام؟

لم يطل الوقت، فالمؤسسات الدولية التي راحت تراقب ما يجري، وتدرّك أن هناك ضرورة لإهاء هذا الحاكم، وإفساد مؤسسة الحكم، ونخر جسدها بنشر الرشاوى والعمولات والإفساد، سرعان ما قررت بعد دراسة الأوضاع أن يتم التعامل مع هذا البلد بتركيز أكثر، هنا ظهرت عمليات شراء الذمم، وتمددت ذراع الوكالة العالمية، فراحت ترسل الخبراء، وتفتتح المقار، تستضيف بما موظفين من الدولة لا هم لهم سوى الإثراء، ولو على حساب الوطن ومستقبله.

تحولت الشعارات الثورية باذخة الزعيق، مع انخيار الحضانة إلى هوس طاغ لجمع الثروات.

حقق الزعيم في البداية حلمه في الاستيلاء على السلطة، ولما دانت له بدأ يفكر في أسرع الطرق لتوريثها، لكنه فيما بعد لاح حلم المال أمام عينيه، ليشكل مع مرور الوقت هاجساً مقيماً، بات بالنسبة له هو الهدف الذي سيعوض به فشله الذريع في تحقيق إمبراطوريته.

أصبح في مثل تلك الحالة، أكثر استعداداً لقبول ما سيعرض عليه، استعداد لإجراء تغييرات كبرى في بلاده، ستعود بالخير العميم عليه وعلى العائلة الفاضلة والبطانة والأقرباء، عقد اجتماعات مكثفة لأجل هذا الغرض مع كاتم أسرارهم، طلب منه اقتراح طريقة لتوزيع مهام السلطة على الأقارب والأنجال، اقترح عليه أن يقوم بإنشاء طبقة جديدة تكون مرتبطة بالنظام، ولها مصلحة في استمراره، قال إنها سوف تستमित في الدفاع عنه لأن في الحفاظ عليه، صون مصالحها، ستكون تلك الطبقة مكونة من رجال أعمال وسياسة لهم علاقات جيدة مع منظمات ومؤسسات وشركات عملاقة في خارج الوطن، سيكون هذا الارتباط حافزاً لدفع الدول التي تنتمي إليها الشركات الأخطبوطية للاستماتة في الدفاع عنهم وحماية مصالحهم، التي هي في النهاية تعني حماية النظام، وتأمين بقائه على رأس الحكم.

قال عقله المدبر إن هؤلاء سوف يتحركون بالشكل الذي يصب في النهاية في صالح عائلته، فمعظم الشركات سيكون النصيب الأكبر فيها لتلك الأسرة، بل إن الكثير من الكيانات الاقتصادية الكبرى سوف تصبح مملوكة بالكامل له والأنجال، ولكن بواجهة أخرى تحمل أسماء عدد من المستثمرين والمغامرين ورجال الأعمال.

لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، كعادة كل قراراته، إذ سرعان ما حسم أمره، ووجه الحاشية إلى الطريق الأضمن، ذلك الذي سيؤدي بالبلاد، للسير في نهج مغاير لما ظلت تسلكه، منذ أن شهدت صعوده إلى سدة الحكم، في إحدى الليالي حالكة السواد.

تجاربته التي لم تتوقف، والتي هي في الأصل غير مرتبطة بطقوس، ولا تعرف وقتاً للراحة، انتقلت بالبلاد بين جنوب وشمال، عبر مسيرة هطلت فيها من عباءة الثورة شعارات براءة بلا حصر، وأدت في النهاية إلى زيادة فقر المعدمين، وقهر الذين حلموا بالغد الأكثر بهاء، بعد أن دفعتهم في بداياتها لإطلاق العنان للبهجة القادمة، والانتظارات التي لا تنتهي، ثم وضعتهم في أتون الصهد، وقوداً للحرائق، ودماء لمغامرات بلا نهاية، ثم انقلبت بهم ليتحولوا إلى مجرد مياه لإطفاء حرائق اشتعلت ثم لم تظهر أي مؤشرات لقرب إخمادها.

كان أكثر ما نجح فيه، التمكن من تحويل شعبه المستأنس إلى مصفق دائم، متسابق في فوضى المسيرات والمبايعات وحمل اللافئات وابتداع ما يكتب فيها، تصديق دائم ومباركة لكل ما تجود به قريحة زعيم لم تعرف الراحة، ولم تقبل يوماً أن تمنح لخنجرة شعبها المطيع، هدنة.

كان من بين الشروط التي قدمت له لإدماج بلاده ضمن المجتمع الدولي، أن يقوم بإلغاء نظام الحزب الواحد، الذي كان قد أنشأه منذ صعوده إلى الحكم، كانت أحلامه العريضة قد دفعته إلى تصور أن بالإمكان عبره حشد الجماهير في إطار واحد، بوتقة سوف تؤدي إلى صهر البلاد فيها، لينتج المزيج القادر على السير في الطريق المؤدي إلى تحقيق طموحاته الإمبراطورية.

هذه المرة أدرك أنه لم يعد هناك من حاجة ماسة، ما دام الغرض انتهى، مثلما تحولت من قبل تنظيمات أنشأها وحشد لها بشراً وحناجرأ قبل أن تتحول في النهاية إلى عبء على التجربة، كان نجاحها في حشد الجماهير مرتبطاً بمهدف قومي، بمسيرة انطلق فيها، ولم تعد بعد أن تغيرت الظروف قابلة للتحقق في أيام قادمة.

عليه أن يساير مناخاً يسود العالم، ليس من الحصافة أن يراهن على مشاريع ثبت أنها في النهاية منيت بالخسارة، وعليه إذا أراد الحفاظ على كرسيه، أو انتقال السلطة بعد العمر الطويل إلى بقية الأبنجال والأحفاد، أن يغير توجهاته، أو يقوم بتعديل الأفكار التي تبناها قديماً، والتي أوهم شعبه لسنوات، أنها ستقوده إلى العزة والكرامة، وستحقق له العدل والمساواة والمشاركة في حكم الوطن.

بات عليه، وهو يرى متغيرات انتشرت في العالم، وامتدت إلى الدول المجاورة، أن يسارع إلى إثبات حسن نواياه للدول الأقوى، عليه أن يدرك اللحاق بالركب الراكض، أن يفوز في سباق قادة الدول الجارة في سعيها للارتباط بالعالم الجديد، أن يكون أكبر صديق في المنطقة، أن يسارع في الحصول على مكانة مميزة لدى الأقوياء، وإلا فإن القلاقل سوف تنتظر نظام حكمه، لم يعد أمامه بعد ما جرى لمشروعه الفاشل، أن يدرس الرأس في بحور الرمال، تلك فعلة لا تليق بالمهييب الذي يظنه شعبه، قادر على إيصال أحلامه إلى العلا.

عادت الاتصالات إلى سابق عهدها مع معظم الدول، فيما راح الزعيم يبالغ في إبداء المحاملات لنظرائه من الحكام، قرّر أن يرسل كاتم أسرارهِ إلى مراكز صناعة القرار في الدول المؤثرة، ومنحه ضوءاً أخضرأ لعقد اتفاقات.

انطلق الصديق إلى الدول الكبرى، كان ألعباناً، يجيد الوصول إلى ما يبتغيه ومن أقصر الطرق، يتوقع سلوك الزعيم، ويمتلك وسائل تسفر في النهاية عن إقناع رجل متقلب مغرور، ونزق.

في دول يتم فيها طبخ قرارات تسير العالم، راح المارشال يخوض محاولات مضنية للحصول على امتيازات ترضي زعيمه، وفي كل مرة كان المارشال يتصل هاتفياً بزعيمه، للتشاور، على الرغم من أن المكالمات كانت تحت الرقابة، التي لا يعلم أنها جزء من عملية تنصت ضخمة، تلتقط حتى ديب النمل في وطنه، وأوطان الآخرين، فما المانع ما دام كل المكالمات مرصودة، أن يتحدث دون وجل مع زعيم الأمة، لإطلاعه على ما يجري، والحصول على الرأي القاطع.

طرح المارشال نفسه أمام رجالات تلك الدول، باعتباره خادماً مخلصاً، عيناً ساهرة لهم لدى وطن مستغرق في نوم ليس من المنتظر أن يفيق من سطوته، رقيباً على الزعيم وشعبه وطموحاته، وصاحب مواهب كفيفة بتمرير ما يسعون إليه.

كانوا يعرفون مسبقاً أن معظم القرارات المهمة، ومنها المتعلقة بأمور الحاكم الشخصية يعود فيها إلى صديقه، وأنه في النهاية هو موضع السر وحافظ كل شاردة في الوطن.

شكل هذا مفتاحاً مهماً، عليهم منح الرجل بعض الامتيازات وحفنة من الوعود ليكون حذاء لأرجلهم، وكلباً ينبج وقت الحذر، أو يهجم حين يأمر.

لم يكن يهم والحال كذلك، أن يكون الحاكم في قبضة اليد، ما دام أمر محرکه قد تم ضمانه، ليس يهم إشعاره بأنه أصبح مريضاً عنه، وأن ما ينبغي عليه فعله لا يزال أكبر بمراحل مما أعرب عن استعداده لتقديمه، أبلغوه بضرورة قيام الزعيم باتخاذ خطوات أكثر جرأة، قبل

إعلانهم الرضا عنه، قالوا إن الإدارة لن تستطيع نسيان ما قام به ضدها في السابق، ولن تقدر على إعطاء مساعدات كبيرة، لن تدعم بشكل كامل سلطته في وجه معارضة بدأت بذورها تبرغ، ما لم يثبت بالأدلة القاطعة أنه استوعب الدرس، وأصبح أكثر إخلاصاً من الجميع، وأنه بات مستعداً ليكون ذراعهم الممتدة في أرجاء المنطقة، وصار أكثر مرونة لتلبية مطالبهم بإرسال قواته للدفاع عن أمنهم القومي في أي بقعة وقت يشاؤون.

كان المارشال يُلِّغ الزعيم بالأمر أولاً بأول، هو يدرك أن الرجل الذي تخشاه الأمة، سوف يسأله السؤال التقليدي:

• وأنت، ما الذي تشير به علي؟ هل أقبل؟ أم أنتظر حتى

تعود؟

- اقبل سيدي، فلو لم تتخذ قراراً عاجلاً فإن زعماء المنطقة، أرسلوا بالفعل موفديهم، إنهم يريدون الفوز بلقب الصديق الأمل، بينما الطريق بات ممهداً لوطننا.

كان الأمر أكبر من المساعدات المشروطة، ومن القروض التي تقوم تلك الدول بتوجيهها إلى مجالات تعود بالفائدة للمحسوبين عليها في الداخل، ومن بينهم من سوف يصبحون من رجال الأعمال، من سوف يكون لهم في وقت لاحق شأن في الاقتصاد والسياسة، ودفع الوطن إلى رهن مقدراته لدى الدول الأكبر، بل وجعلها تبقى لقرون قادمة في قارورة الفقر والعوز وحافة الإفلاس.

هذه المرة بات على الوطن أن يتجرد من ثيابه، أن يبيع لحم جسده للشركات المتعددة الجنسيات، أن يرضخ تماماً، وهو الذي لم يسبق له الانحناء، حتى في أقصى أوقات التحدي، عليه أن يرهن مستقبل الأبناء، بل يرهنهم أنفسهم إن تطلّب الأمر ذلك، أن يضحي

بهم ويلقيهم في أقرب صندوق للنفايات، بعد أن وصل العبث إلى درجة افتداء الآخرين بالروح والدم أيضاً.

لم يستغرق الأمر وقتاً، فعقب عودة المارشال، وما جرى له من استقبال حافل، كانت الاتفاقات التي أبرمها قد مثلت إنقاذاً للزعيم لم يجد غضاضة معه في تقديم تنازلات صعبة، وإقرار ما يمكن أن يتطلبه من تضحية، ما دام الثمن سوف يسدد في نهاية الأمر من دم الشعب ومستقبل أجياله.

(17)

بعودة كاتم الأسرار، راحت الخيوط تنقطع في دولة ظلت تبدو صلبة لسنوات، لم تعد الصومعة التي أدارها الزعيم كعزبة خاصة، بنفس الهيبة، شيء ما بدأ ينفلت، منذ انتهت الحضانة وتحولت إلى أطلال يتوقف الزوار عند بقاياها، لالتقاط الصور التذكارية.

أخذ الشعب المقعد يتعافى، فبدأت التساؤلات المؤجلة تتردد للمرة الأولى ثم تتعالى، تخرج عن توجسها، تتواصل بين بشر الحضانة، وهو الأمر الذي اندفعت عيونه الساهرة لرصده، مع أن مجرد النية في التساؤل، كان كفيلاً في وقت سابق بوضع الرقاب في المشانق، ودفع الأجساد للإقامة في غياهب السجون، دون أن يصعد صوت واحد باحتجاج.

هذه المرة اتجهت الأمور للانفلات رويداً، حتى أن الزعيم في البداية سعى لاتخاذ موقف صارم تجاه ما يصل إلى سمعه، لكنه أخذ فيما بعد، يتراخى إذ وجد التساؤلات انتشرت، وعمّت معها نكات وصلت إلى حدّ السخرية من أتباعه، الوزراء، الحاشية، ثم وصلت إلى

صديقه المارشال، لتنتقل بسرعة إلى ذاته المهيبة، وزوجاته اللواتي أنجن
لأول مرة في تاريخ المنطقة حكماً بأقمطة.

استشعر الخطر بشدة، غير أن رجله القوي نصحه هذه المرة
بأن يترك الشعب يتحدث كيفما شاء، فلن يصبح بإمكان أي
منهم تغيير ما هو واقع، أكد له أن السلطة باقية، وهي الآن أقوى
بمحامية دول كبرى لن تسمح بصعود من لا يتوافق مع سياساتها،
عاد ليذكره من جديد بالاتفاقيات التي توصل إليها في جولاته
الأخيرة، تلك التي خرج منها بتأكيد قاطع يضمن بقاء الزعيم على
"العرش" الرئاسي.

هكذا كان عليه القبول بحماية مصالح تلك الدول، أن يكون
ذنوباً لها في كامل المنطقة، على أن تعني أي محاولة للنيل من سلطته،
مجرد وهم أهوج في رأس مجنون.

كانت تلك إشارة، سرعان ما فهمتها دول ظلت على عدااء مع
الزعيم، قضت سنوات تنتظر الفرصة لمساعدة أي مسعى للانقلاب
عليه، غير أنها أعطت انطباعاً محبطاً في نفوس هؤلاء الشبان الذين
تعافوا لتوهم، والذين انطلق تمردهم من الكتمان في الصدور إلى
غليان أخذ يتصاعد، ويثير التساؤل حول مدى ما يمكن أن يصل إليه،
وما إذا كان قادراً على التحول إلى انتفاضة شعب لم يعتد في تاريخه
ارتكاب معصية الحاكم.

ومع أن الدول المجاورة ظلت تتنافس في الحصول على لقب
الصديق الأول في المنطقة للدول الكبرى، عارضة فتح أراضيها
وأجوائها، ومؤكدة أن القبول بجميع الاشتراطات التي راحت تملئ
عليها، فإن الزعيم تمكن عن طريق صديقه الداهية من تقديم إغراءات
أكبر، جعلت نظامه فيما بعد يشعر بالاطمئنان، بل ودفعته إلى اتخاذ

خطوة عملية لإثبات حسن النوايا، قام خلالها بتفكيك جيشه،
وتحويل منتسبيه إلى قوات الشرطة، والحرس الرئاسي.

انطلق النظام في هذه الخطوة اثر عودة المارشال، بعد أن توصل
إلى خلاصة مفادها، أنه ما دام الوطن غير قادر على خوض أي
حرب يبشر مشلولين، وما دام بالإمكان الحصول على تعهد دولي
لحماية النظام بواسطة القوى الخارجية، في ظل مصالح مشتركة لتلك
القوى والنظام القائم في الوطن، فما الداعي لاستمرار الجيش، وقادته
ورجاله كثيري العدد؟ وما الداعي أصلاً للإلنفاق وتحميل الخزانة
الموشكة على الإفلاس كل تلك النفقات؟

راقت الفكرة للزعيم، قرّر الحل، فبات محصناً ضد أي ثورة، فلا
الجيش الذي قاد إحدى فصائله يوماً وانقلب به على الحاكم السابق،
بات موجوداً، فيما الشرطة تنحصر مهمتها في حماية النظام والدفاع
عنه ضد الرعاع من أفراد الشعب.

جاء ذلك مترامناً مع وعود قوية، وتأكيدات متصلة بسلسلة من
الاتفاقيات والمعاهدات لحماية النظام من أي محاولة لإسقاطه.

غير أن الزعيم الذي باتت تتردد تقارير عن تملل راح ينتشر في
صفوف شعبه، لم يكتف بكل تلك الاحتياطات الداخلية والخارجية،
إذ قرّر دعوة الدول الكبرى لإقامة قواعد في كل ولاية من الولايات
الأربع التي ظلت على تقسيمها رغم انقراض الحضانة، حيث تكون
القواعد، نقاط ارتكاز في المنطقة، منشآت كبرى للتدريب،
والتكوين، وقواعد للتحسس تحتشد فيها أحدث الأجهزة التي ابتكرها
العالم.

أخذت روح المغامرة التي انتابته في البداية تخفت، استبدلت
بسكينة ودعة، بات همه الاحتفاظ بالسلطة حتى نهاية عمره، وضمان

أن تنتقل بسلاسة إلى أحد الأنجال، دون أن يحدث ما يعكر صفو هذه الخطوة، أما الوطن الذي كان يسعى لتحويله إلى إمبراطورية، وأحلام إنقاذ الفقراء من قاع العوز، فمجرد شعارات تطلبتها المرحلة السابقة، تلك التي كان يريد فيها اكتساب دعم شعبي هائل، لم يعد الآن في حاجة إليه، أما تحقيق العدالة والرفاهية والحياة الكريمة لكافة قطاعات الشعب، فلم تعد تزيد عن مجرد عبارات استنفدت أغراضها في استدرار التصفيق والتأييد والمساندة.

الشعارات انتهى زمنها، والأحلام تبخرت، مع السقوط المدوي لمشروع فشل في إعداد جيش يسدّ به عين الشمس، اتمارت الحضانة وانفرط الجيش، تفكك كلاهما إلى شظايا، وبقي هو وحده فوق بقايا الرماد، خاوياً من الأحلام والمستقبل، خالياً من الشعور بالزهو القديم، قابضاً بشراسة، ومهما كانت الوسيلة، على السلطة، ومستعداً للتضحية في سبيلها. بمن بقي سليماً من أبناء الشعب.

منذ ذلك الوقت الذي قرّر فيه الزعيم أن يرتدي ثوباً مغايراً للذي ظلّ يستر به جسده، راحت كل الأمور تتبدل، لم يعد ينطلق إلى الحديقة الرئاسية، كما كان يفعل في الأيام الخوالي، بعد أن ضمن الأمن والاستقرار، وباتت حمايته مهمة دولية، لم يعد هناك ما يشغل باله غير بناء القصور في طول البلاد وعرضها، لم يترك زاوية في المدن الكبرى دون قصر باذخ، حتى أن الوفود الرسمية التي كانت تزورها، طالما استمعت لعبارة مكررة:

"زعيمنا هو الذي شيّد والذي كتب الخطوط على جدرانها، وهو الذي اختار الأثاث، وهو من يقوم بزراعة نباتات الحديقة وأزهارها".

كل الأمور كانت لا تزال تدور حول رؤاه النيرة، وعبقريته التي لا تتكرر في التاريخ البشري، والتي تدفع بين الحين والآخر إلى

رأسه أفكاراً لا يقدر على الإتيان بها، أي حاكم من هؤلاء الذين يروحون ويحيون بين زمن وآخر، فلا يتركون على الأرض بصمة، ولا في تاريخ بلدهم، ولا المنطقة، ذكرى تنفع.

تلك الدرجة العالية من المداهنة، دفعته من جديد إلى التفكير في أمور لم تكن لتخطر له من قبل على البال، أخذته غيرة مفاجئة تجاه هؤلاء الذين تتحدث عنهم وسائل الإعلام، مفكرون، شعراء، كتاب، فنانون، نقاد، علماء، موسيقيون، ممثلون، وفلاسفة، ما الذي يمنع أن يكون مثلهم، بل وأعلى منهم؟ إذا كانت فترته الرئاسية ستنتضي بالموت، فإن هؤلاء سوف تظل أسماؤهم إلى ما بعد فناء الأجساد، باقية في ذاكرة الأمة، فمن يكون هؤلاء حتى تظل أسماؤهم تتردد؟ ويكون هو مجرد حاكم مرّ يوماً على الوطن، مثل غيره من عشرات الحكام، الغالبية منهم تركت اللعنة في الذاكرة، والعدد الأقل يتوقف التاريخ قليلاً عنده.

من هؤلاء ليخلدوا؟ بينما هو الزعيم القادر على قطع رقابهم فرداً فرداً، أو التفضل بتركهم على قيد الحياة؟ من هؤلاء؟ وهو القادر على قصف أقلامهم، إجلاسهم في السجون أو البيوت منبوذين، ودون أن تنشر صحيفة واحدة عنهم خبراً؟

ولماذا لا يتم تخليده هو أيضاً؟ لماذا لا يكون روائياً، مفكراً، حكيماً، شاعراً تتردد قصائده في كل مكان، يحفظها القاصي والداني؟ تلك فكرة رائعة، فإن لم يتم تخليده، بسبب فشل مشروعه الكبير، فليكن له الخلود بقصائد وروايات، بكتب فكرية أو نظريات، لم يسبق إليها كائن من كان.

لماذا لا يفعل هو أيضاً؟ أليس حكام الدول الكبرى وكبار المشاهير يصدرون كتباً، سيراً ذاتية وروايات، ما الذي يمنع أن يكتب

هو سيرته، وصاياه للشعب، أو روايات تجعل منه في النهاية واحداً من عباقرة الكتابة في هذا العالم؟ ما الذي يمنع إذن، ما دامت يديه كل الأشياء، وهو الحاكم الذي لا يشق له غبار، وتنحني له الهامات، من المؤكد أنه عندما يكتب سوف يكون الإبداع مختلفاً عما عهده العالم، فليس من المعقول أن يتفوق أحد من الرعاع على الزعيم حتى في الكتابة، ثم ما هي العوائق أصلاً؟ سيملي بعض الجمل العابرة غير المترابطة على أحد المحترفين، وعليه أن يصنع منها في النهاية رواية، قصة، قصائد، أي شيء، هذا ما يجب عليه، كواجب وطني، وإلا ما الذي يفعله هذا إن لم يصنع رواية للزعيم؟ أما الكتب الفكرية التي سيضع فيه نظريته الكبرى، تلك التي يتوقع أن تغيّر مسار العالم، فإنها ستحفر مكاناً لاسمه بين أفذاذ الفكر الإنساني، ولأجلها سوف يستدعي عدد من الكتاب المخضرمين، أصحاب الصياغات الجميلة، وبعض المشتغلين بالفلسفة والسياسة والتشريع، سوف يملي عليهم أفكاره وفق ما تتوارد في الذهن، بعدها سيلقي المهمة عليهم، يحدّد لهم وقتاً للانتهاء من وضع أطر النظرية، ليتم مراجعتها وإصدارها، بملايين النسخ، ثم فرضها على المناهج الدراسية في المدارس. يختلف المراحل، وفي الجامعات أيضاً، يجب أن لا يتم السماح لأي طالب بالتخرّج، دون أن يكون قد حفظ ما ورد فيها، بعدئذ سوف يسعى للحصول على موافقة الدول الكبرى قبل طرحها كواحدة من أهم النظريات التي اكتشفها العقل البشري على مدى الأزمان.

توقف عن معاورة أحلام التوسع، وبات متفرغاً للإغداق على الشعب الذي تطحنه الأمية، من بنات أفكاره كتباً ومذكرات وقصائد عصماء، ينظمها له عشرات الذين يسرون في العادة بسيقان ضامرة وبطون لا تجد ما يسدّ جوعها، باتت الكلمات مخرّجاً له من

أوهام استعمرت عقله، وفرض على الشعب الابتهاج بها، والتهليل للنعيم القادم الذي ستحملة أجنحتها.

وفيما العبقري غارق في أحلام، ارتدت هذه المرة ثوباً مغايراً، كان أطفاله الحكام بين أيادي حنونة، راحت تستغل غفلة الوالد المهيب، في اقتطاع كل ما يمكن صبه من أجل تضخيم ثرواتها، عقارات في الخارج، إيداعات يومية في بنوك العالم، قصور تشابه ما بات الزعيم وأنجاله يمتلكونها في العواصم الكبرى، كان مناخاً موالياً، ولا بد من انتهازه، عدم ترك الفرصة تفلت، فما الذي يضمن ألا يزداد وعي الصغار إن كبروا، أو تحدث إفاقة للغافل يوماً من سكرة الأدب؟ فيهب في ثورة غضب، ويطيح بهم؟ ثم ما الذي يضمن أن يستمر المارشال الذي يقوم بحمايتهم وتسيير أمورهم في منصبه؟ إنها لعبة بها من الخطورة، قدر مساوياً للذة، فكثير من المقربين للزعماء كانوا في بعض أحداث التاريخ أول الضحايا، هم في كل الأحوال يخوضون مقامرة، حتى وإن كانت خلالها التطورات تحت السيطرة، إلا أن المستقبل، في العادة، دائماً ما يحبل بمفاجآت لا يتوقع حدوثها، حتى خارق الحجب.

النزق الذي اندفع إليه الزعيم هذه المرة، كان يمثل جانباً واحداً من جوانب أكثر، سرعان ما كان يندفع باتجاهها، يشحذ قوى الوطن وإمكاناته، غير أنه سرعان ما يتخلى عنها بنفس السرعة التي شدته إليها.

كانت لديه ثقة كاملة في المارشال، إلى الدرجة التي لم تدفع لديه الشكوك في تصرفاته، حتى عندما راح عقب اندحار حلم الحضانة، يشكل حاشية مصغرة، من بين بقايا البطانة القديمة التي رافقته معظم أوقات الحكم، غير أن الدائرة سرعان ما اتسعت بفعل قدرة المارشال

على إقناع زعيمه، لتمد إلى غالب المجالات من الصحافة إلى التجارة، فالسياسة والرياضة والفنون، حشد للمقربين من المارشال اندفعوا يحددون ما خططه، يقتسمون معه كعكة بات مذاقها رائقاً، فيما أصبح للزعيم دائرته من رجال أعمال يقيمون المشروعات له ولأبنائه، دون أن يتم التطرق في أي مستند رسمي لأسماء العائلة الحاكمة، ودون أن يعرف أحد، اللهم إلا بالشائعات حجم الفساد الذي يمارس، وحجم القروض التي تسحب من البنوك للأبنجال والعائلة تحت أسماء هؤلاء، الذي يدللهم النظام مقابل الخدمات الجليلة، مثلما تدلل الأم الكبيرة زوجة الزعيم الأولى قسط قصورها السمينة.

تلك كانت خطوة، لكن الخطوة الأكبر تمت في الوقت الذي فتحت فيه البلاد ذراعيها دون ضوابط، لكل قادم، وما أن أخذ المشرعون يعدلون القوانين كي تبدأ البلاد عهداً المشرق، بما صاحبه من حملة إعلانية ضخمة، انبرى خلالها المتخصصون الكبار في عمليات غسيل المخ، وهي تلك الحملة التي تمّ فيها الاستعانة بخبراء من الخارج، من هؤلاء الذين يقودون في العادة الحملات الدعائية لانتخابات الدول الكبرى وما أن بدأ ذلك العهد الذي انفتحت فيه البلاد على مصراعيها، وتحمّلت بألوان متنافرة، حتى أوغر المارشال هذه المرة أيضاً لزعيمه بضرورة الحصول على توكيلات الشركات العالمية بعد أن بات لها رواجاً كاسحاً.

استخدم الزعيم كبار رجال الأعمال الذين ظهروا على السطح فجأة في أعقاب انفتاح البلاد، هؤلاء القادمين من إحدى الدول الكبرى يحملون جنسيتها وجنسية الوطن لاقتناص أكبر عدد ممكن من التوكيلات، بات عليهم الآن أن يمارسوا لعبة جمع المال واقتسامه مع العائلة المبحلة.

نجحت خطة المارشال في بعض أجزائها، أخفقت في الباقيات، تمكّن الزعيم من نقل معظم التوكيلات من الحاصلين عليها إلى أسماء رجال الأعمال المرتبطين بنظامه، اختطف الكثير منها وكلاء محليون، غير أن هناك توكيلاً لمنتج رائج، بات الزعيم مهووساً بالحصول عليه، ومع سيطرته، فإن أقصى ما ناله من الشركة العملاقة كان وعداً بالنظر في الأمر، شرط قبول من بيده التوكيل، وتقديراً لتمكّنه من ترويج المنتج بشكل أكبر من المتوقع، هذا الشرط، كان سبباً في حشد الزعيم لكافة إمكانيات الدولة، ومفاوضيها العتاة، حراسها أصحاب القبضات الغاشمة، وخبراء متخصصون في تطوير القضايا.

فتحت أبواب الإغراءات للتسهيلات البنكية، العملات، الامتيازات، المبالغ المالية، ولما فشلت، صدرت فتاوى تحرم التوكيل على صاحبه الأصلي وتجزئه لرجال الأعمال الذين يستتر بأسمائهم الزعيم، لكن المحاولات التي احتشدت فيها سيوف المعز، وسبائك الذهبية، لم تدفع الوكيل الأصلي للرضوخ، أو التنازل عن جزء منه.

أخبروه دون موارد، وبعد أن باءت محاولاتهم بالفشل، أن من يرغب في الحصول على التنازل، هو الزعيم بشحمه ولحمه، فلم تهنز له شعرة، بل زاد إصراراً على التمسك بما اعتبره حقاً، بما بذل جهداً مضمياً لأجله، ولم يعد بمقدوره تحت أقسى الظروف الاستغناء عنه، حتى لو وصل الأمر إلى حد الموت.

لم يكن الأمر في حاجة إلى تنفيذ حكم بالإعدام فبعد تلفيق واحدة من التهم الجاهزة والضغط النفسية، كانت كفيلاً بإنهاء الأمر، وإحالة أوراق الوكيل المحلي إلى حفّار القبور، الذي قام بما يجب، إذ دفنه، في ظل موكب مهيب تقدمه الزعيم، في محاولة لم يصدقها أحد لذر الرماد في العيون، وإثبات أن الشائعات التي يروج

لها أعداء الوحدة الوطنية في غير محلها، وأن ما كان بين المفدى والوكيل أشبه بالسمن والعسل.

لم يستغرق الأمر وقتاً، فسرعان ما أصبحت الأمور أكثر يسراً أمام المارشال، انبرى لقيادة حملة مكثفة من المفاوضات مع ورثة الوكيل، هؤلاء الذين سرعان ما انهاروا وقبلوا الشروط، جرّدهم من كل ما يملكون مقابل تعويض اعتبره هو ولا أحد سواه مجزياً، ولولا الزعيم الذي قيل وقتها إن قلبه رقّ فجأة، وأمر بتخصيص خمسة في المئة من إيرادات التوكيل سنوياً لأسرة "صديقه" العزيز المرحوم صاحب التوكيل، لكان الأبناء قد خرجوا من المولد دون حبة حمص.

النجاح في إنهاء صفقة التوكيل، جعلت شهية المفدى تزداد شراهة، وهو ما دفع المارشال لمواصلة نصائحه المدنسة، تمّ التركيز خلال الأسابيع التي تلت على امتلاك الشركات القائمة، وخصوصاً ما حقق منها نجاحات باهرة في السوق المحلي، حتى باتت ركناً أساسياً من دعائم الاقتصاد الجديد المنفتح، فليس من المعقول أن يترك أبو الأمة وحامي حماها، أمراً مثل الاتجار في أيادي حفنة من التجار لهم ارتباطات بالأصدقاء الجدد في الدول الكبرى.

كان المارشال في كل مساعيه يعرف الطريق الذي يسلكه، اللغة التي يستخدمها لإيصال "أبو الأمة" إلى درجة الاقتناع، ثم اتخاذ القرار وتنفيذ الأمر، دون تردد.

وعلى الفور قام أعوانه بحصر التوكيلات:

مطاعم الأغذية، شركات العطور والصابون والهواتف والمواد الغذائية، المياه الغازية، السيارات ذات الماركات الشهيرة، مواد البناء، كل ما حقق انتشاراً، وبات المواطنون يقبلون عليه.

بعد ذلك إقناع الزعيم باتخاذ الإجراءات اللازمة لتكون تلك التوكيلات في الأيدي الآمنة، التي تعمل للنظام، وتقوم إلى جانبه بالدفاع عن مصالحها التي ستصب في النهاية في مصلحته.

نبيّه المارشال من خطورة بقاء التوكيلات في أيدي المواطنين، قال إن هذا الصنف الأقل درجة من أصحاب الدماء الزرقاء، سوف يتطلعون يوماً إلى اقتناص السلطة إذا ما قويت شوكتهم، ومكانة عائلاتهم، حذرهم من أن هؤلاء بمجرد النجاح في تكوين الثروة، ستكون خطوتهم التالية، هي البحث عن الواجهة، تلك التي لن يجدوا أقصر من السلطة طريقاً للوصول إليها.

أكد عقل الزعيم المدبر، أن هذا الأمر سيعني أن هناك أعداء محتملين، يجب التعامل معهم من الآن، واتخاذ أقصى التدابير الكفيلة بقطع دابرهم من المهد، فالانتظار لن يزيد الأمر إلا صعوبة، و"النمر ما لم تقتله، أو حتى تروضه صغيراً، فمن المؤكد أنك لن تقدر عليه حين يشتد عوده ويزداد شراسة".

احتلت البطانة الجديدة مكانها في القصر الرئاسي، في أعقاب إزاحة المارشال لأعضاء الحاشية السابقة، التي قال إنها لم تعد مفيدة، وأن رؤوس أصحابها باتت جوفاء، فبعد سنوات من الخمول، تكلست فوق مقاعدها، ولم يعد لديها ما تضيفه للوطن المعطاء، ولا للمهمة.

كان صعود الطبقة الجديدة، واقتراحها من مركز صناعة القرار يعني أن الحبال التي ألقى بها المارشال باتت قريبة للغاية من رقبة "المفدى"، إن سعى يوماً للغدر بصديقه، أو فكّر في الاستغناء عنه.

لم يكن ممن يطمحون في اعتلاء أعلى السلطة، وإن كان الأمر بعد سلسلة التغيرات الأخيرة بات متاحاً، فبمجرد القفز فوق دبابه

صغيرة، سوف يدنو من الكرسي الرئاسي، لكن المارشال كان يدرك أن الوضع الحالي، الذي يقبع فيه الزعيم في الواجهة، هو الأمثل بالنسبة له، كي يحقق ما يطمح إليه من اكتناز ثروة دون جهد، وأن يكون في الوقت نفسه هو الحاكم الفعلي للبلاد، على الرغم من جماعات المهيب وتبجحه الدائم بأنه هو الملهم، الذي لا يتوقف شعبه عن رفع الأكف بالدعاء له.

(18)

تحوّلت البلاد بمن فيها إلى مزرعة متسعة، بات المتحكم فيها في الخفاء رجل واحد، ليس الزعيم الذي كان مهاباً، بل صديقه، وشيئاً فشيئاً بدأ صاحب الفخامة يتقبل الفكرة، بعد وقت من الغليان، ودون أن يتمكن من البوح بما أخذ يكبر شيئاً فشيئاً، غير أنه وصل إلى الدرجة التي وضع فيها أصابعه على الجرح، دون أن تقدر يده الآخذة في الارتجاف على وقف النزيف.

كان الأمر قد انفلت تماماً، لم يعد بمقدوره إرجاع الزمن إلى الوراء، ولا التقدم خطوة واحدة لتصحيح الأوضاع، هذه المرة استطاع المارشال أن يدير اللعبة ببراعة، وأن يظهر قوته في نعومة، لم يستطع الزعيم استيعاب مقاصدها، قبل أن تصل الأمور إلى حافتها الخطرة، وتصبح أي محاولة لتصحيح الوضع، أشبه بعبث الأطفال، لا تعدو كونها مجرد حلم أتى بعد فوات الأوان.

ما كان أمام الزعيم في تلك اللحظة إلا أن يتماشى مع الأوضاع، أن يترك الظروف تتعامل مع ما يمكن أن يحدث، ها هو قد أصبح عارياً، من الصداقة الوفية، ومن الحاشية المخلصة، بعد أن تمّ إقناعه بضرورة طرد من قال عنهم صديقه إنهم تكلسوا فوق الكراسي

ولم يعد لديهم ما يقدمونه، طردهم، منعهم من دخول القصر الرئاسي، ليأتي كاتم الأسرار على الفور بمجموعة جديدة، شبان يدينون بالولاء أولاً وأخيراً لسيد نعمتهم، المارشال.

لم يحدث هذا فقط، بل إن مستشاري الحكام الأربعة الذين كان قد عيّنهم لرعاية الأبناء وتوجيههم، أقيّلوا أيضاً، بعد ما اقتنع بتصفية الحاشية واحداً بعد الآخر، حتى تمكّن في نهاية الأمر من وضع رجاله في نفس أماكنهم، ثم إغداق الامتيازات على الجدد منهم، وضمان الولاء التام منهم له أولاً، لا للزعيم المغرور الذي تحول في النهاية إلى مجرد ديكور، لا حول له ولا قوة.

كل الخيوط باتت في يد المارشال، بعد أن ثبت رجاله في كل زاوية من البلاد، في وسائل الإعلام، والبرلمان السوري، في الحاشية التي تدير القصر، ورجال الاقتصاد الذين يتابعون استثمارات الحاكم وعائلته، والذين يعرفون الحبايا، بعد أن قاموا بمساعدة الزعيم والمارشال في عملية، بيعت خلالها الشركات والمصانع التابعة للدولة والتي كانت البلاد تعتمد عليها في سدّ احتياجات الشعب، إلى شركات تحمل أسماء من يديرون العملية الاستثمارية بكاملها في البلاد، ويدينون بالولاء التام إلى المارشال.

تغيّرت البلاد بمن عليها، فلم يعد له من صديق، واختفت الحناجر، حتى صمت الفنانون عن الغناء، وتحول الشعب بعد كارثة الحضانة من الوله الشديد بحامي الحمى، إلى إطلاق النكات عليه والسخرية من حكمه، والتظاهر بالمرض في كل مناسبة كي لا يخرج أفراد في المظاهرات، الهاتفة لعبقريته.

أدرك الآن أنه وقع في شرك لن يمكنه التخلص منه، لم ينفعه الذهن الذي كان متوقفاً، ولا أسعفته أحلام جلبت في نهايتها

نكسات له وللوطن، ولن ينفعه الشعب هذه المرة بعد أن تسبب بمغامرة غير محسوبة، في تحويله من السير على القدمين إلى القعود فوق الكراسي المتحركة، وبعد أن تبدلت أحوال مواطنيه المسلمين من الاعتياد على الرضا بالمقسوم، والتعايش مع الحياة كيفما كانت تحولاً، إلى مدّ الأصابع وإزالة صماخ الأذنين، انفتحنا رويداً تحت ضغط الفاقة والجوع والأمراض لوساوس رجيمة، حملت من جديد شياطين الشكوك، فعافر الشعب تساؤلاته سرّاً وعلانية، سخر من الوعود، وأطلق الشتائم ضد الزعيم، وضد الأوقات التعيسة التي ألقت به يوماً إلى الوطن، فأذله، وإلى الشعب، فأمرضه.

لم يعد أحد إلى جانبه، سوى عائلته التي كانت هي الأخرى في حاجة إلى من يعينها، لم تعد تنفعه الأحلام الخائبة أو الخيالات المريضة، ولا حتى السير في الحديقة الرئاسية بعد أن اختارت أوراق أشجارها الذبول، إثر احتجاب الشمس غائبة عنها.

لم تعد تبرز في ذهنه أفكار لا من تلك التي رهنت البلاد لمزاجه المتعس، ولا من غيرها، بات همه الوحيد الاستغراق في التفكير فيما يخص المصيبة التي وضع نفسه فيها، في الموقف الذي لا أحد بإمكانه أن يحسده عليه، إذ بات في النهاية، حاكماً بالاسم، فلا قرار يمكن أن يصدره ويضمن تنفيذه، ما لم يمر أولاً على مكتب المارشال، ويحظى بموافقته، كان هذا ما يتم، دون أي ضجة في السابق، وهو الأمر نفسه الذي عليه الآن أن يتقبله، على الرغم من أن المارشال لم يطلب مباشرة منه ذلك، لم يحدث أن أبلغه بما يضعه مباشرة في مواجهة الحقيقة، تلك التي بات يعرفها الجميع، ما يفيد أنه ليس أكثر من مجرد حاكم صوري، اسم ليس له سلطة، لا على الشعب ولا الحاشية، ولا حتى على زوجاته والأنجال.

لم يقلل المارشال ذلك، لكنه فعل ما لا بد أن يكون المهيب قد أدركه، على الرغم من أنه كان بمقدوره، أن يفعل ما هو أكثر، ورغم الهمسات التي راحت تسري في طول البلاد وعرضها، فلما في النهاية لم تكن أكثر من مجرد شائعات، يحتاج من يستمع إليها إلى أدلة أقوى ليصدق أن الزعيم بسطوته الحديدية، يمكن لأحد أن ينجح في تحجيمه، في جعله مجرد ديكور نسلطة، ظل لوقت هو الأشد فيها، وصاحب الكلمة العليا، التي يتسابق الجميع مهما كانت مناصبهم للانحناء أمامها؟

ومع أن الشائعات يتم تصديقها في العادة، إذا ما كانت تدور حول حاكم بدأت رائحة فساد نظامه تزكم الأنوف، فإنه في حالة من ظل ملء السمع والبصر، داخلاً في كل تفاصيل البلاد والعباد، الماضي والمستقبل، النوم واليقظة، الأحلام والرؤى، لم يكن لأحد في سائر البلاد، أن يصدق ما يقال سوى الحاشية، تلك التي راحت تقوم هي بالنيابة عن الزعيم، بنفس دوره، تاركة له جعجعاته، ومن حين إلى آخر يقوم المارشال بالاجتماع مع كبار المحيطين، يتشاور معهم حول الشائعات التي يجب تسريتها، وإشغال الرأي العام بما لبعض الوقت، ومن خلال تداولها بين ربوع الوطن، يتم ترسيخها، حتى تقترب من الحقيقة، بما يجعل منها أمراً مقضياً ولو بعد حين.

هكذا نهشت الشائعات أحشاء وطن يعاني من أمراض كفيلة بإفلاك أعنى البدن، صار أشبه بالخلاء الذي لا صاحب له، كل من استطاع أن يمسك بقطعه منه، فعل، كل من دانت له الثمار قطف، حتى في وضع النهار، فلا فضائح ولا مساءلة، تدفقت الشائعات من كل صوب، بعضها يتحدث عن أعداد هائلة من القصور يمتلكها الزعيم، غير آبه بوصول الشعب إلى درجة البحث عن مأكولات بين أكياس القمامة.

شائعات تتحدث عن ثرواته الفلكية، عن تقارير صادرة في الدول الكبرى تشير إلى أنه بات في سنوات قليلة واحداً من أكثر رجالات العالم ثراءً، وشائعات أخرى راحت تنطلق بين طبقات الشعب الأقل تعليماً، تشير إلى أنه يتزوج في كل يوم عروساً، وأنه يفرض على العائلات الثرية في الدولة، أن ترسل له أجمل بناتها حين ينضجن، غير أن أكثر الشائعات التي تركت صدًى كبيراً، وراحت تتردد كواحدة من الحقائق المسلّم بها، كانت تتحدث عن مرض ألمّ بالحاكم، من بين أعراضه الخرف والنوم معظم اليوم في نفق محفور داخل الحديقة الرئاسية، وحين تأتي نوباته العصبية ينطلق دون وعي للاختباء فيه والسعي للانتحار، الأمر الذي تطلب تخصيص قوات كبيرة من الحرس الرئاسي، للحفاظ عليه.

كانت الشائعات قد تمّ تجهيزها في مطبخ يشرف عليه الطاهي الأكبر، ذلك الصديق الذي ظلّ إلى جواره في السر، لا ينس ولا ينظر إلى أي اتجاه إلا إذا كانت أعين الزعيم اتجهت نحوه، والذي ظلّ يمهد له قراراته، يمتدح الأفكار العبقريّة، يزيّنّها ويلقي فوقها ما يستطيع من المبهرات، رسم له طريق الأخطاء، وشجعه على خوضها، ثم في النهاية وبعدما وقعت الكوارث، ها هو يخرج منها، كما تخرج الشعرة من عجنتها، ليقع الزعيم وحيداً، وتصب نتائجها الكارثية في صالح المارشال.

الشائعات التي انتشرت بشكل لافت، كان لها مفعول السحر، سرعان ما حملها الهواء، نثرها في كل مكان، لاكتها الألسن ونقلتها إلى أبعد مدى، وشيئاً فشيئاً بات الزعيم الذي سيطر يوماً على قلوب البشر، اتقاء للشر، قبل أن يصبح الأمر عادة، يخسر الكثير من نقاط رصيده، باتت صورته الفخمة، محاطة بضباب كثيف، سرعان ما

أدخل حالة من العصيان في النفوس، وخفض الأكف التي كانت ترفع عند الصلاة لتدعو له بطول البقاء، حوّلها إلى الابتهاال، بأن تزال الغمة، وترفع عن الشعب علامات الكابوس الجاثم على الصدور، ذلك الكابوس الذي باتت له ملامح شخص واحد، له قسّات الزعيم.

فقد بعد مضي الوقت جانباً كبيراً من مهابة المسك بزمام السلطة، تلاشت بعد أن فقد من الناحية العملية السلطة نفسها، ولم يبق أمامه إلا التثبيت بأوهام لم تعد مجدية، تبخرت أحلام اليقظة، تلك التي يمارسها حكام لديهم قناعة بأن السلطة ستظل بانتظارهم، حتى وإن أرغموا على الابتعاد عنها، لا يتصورون يوماً أن الشعب الذي كان يهتف لهم في الميادين ويرفع صورهم البهية بمناسبة وبغيرها، سوف يتخلّى عنهم، سوف يدع من أزاحوهم يهناون بالسلطة، وكل ما يجب عليهم هو الانتظار لبعض الوقت، حتى تهب الجماهير وتطيح بمن أطاح بهم، ثم تعيد لهم السلطة على طبق من ذهب.

لم يكن الزعيم بعيداً عن تلك الخزعبلات، فلم يبلغه أحد أن الشعب الذي قهره سنوات، لا يشعر تجاهه بأي حب، ليس يعنيه أمره، وإن كان يرقص في أعياد ميلاده ومناسبات أنجاله، فإنه فعل ذلك اتقاء لقطع الأعناق والأرزاق، حين كانت تقارير مخبري حزبه كفيفة بإزهاق الروح وإصعادها إلى السماوات.

ظلّ منذ أن اعتلى الحكم يتصور أن الشعب لا يستطيع ممارسة الشهيقي دون أن يأخذ البركة من كتبه ونظرياته، مجسماته النصفية، وتمائله بالحجم الطبيعي، ملأت الميادين، وانتشرت في الأزقة ومداخل البيوت صورته الباسمة، الموضوعة على أعمدة

الإضاءة، وشاشة التلفاز، في الهواء المعلق بين السماء والأرض، ودخل المياه التي تخرج فقاعاتها من خياشيم الأسماك، لم يكن يتصور أن الكائنات التي تسرح في أرجاء الوطن، من نباتات تتمايل أو بشر، أو حتى حشرات هائمة، يمكن أن تمارس حياتها دون أن تكون قد حصلت على رضائه، حتى إذ أدركته الوقائع، بات يعلل النفس بقيامة الشعب الذي لن يرضى لرعيه، القعود في القصر الرئاسي مغلوباً على أمره، منزوع الصلاحيات، محدد الحركة، تحيط به نظرات السعاة الساخرة، كلما همهم غاضباً، ويثير اشمزاز موظفو القصر حين يطلق شتائم ضد من يتأخر منهم عن تلبية ندائه.

ما عاد الزعيم زعيماً، لم يبق له من أجرة السلطة إلا الاسم، والمراسم التي يقابل بها عند الدخول والخروج من القصر، الكلمات التي تكتب له بعناية ليلقيها بين وقت وآخر من شاشة التلفاز، بعد أن يكون الفنيون قد قاموا بإجراء عمليات عليها تظهره مريضاً، محتلاً، لتتطابق الصورة والشائعات التي تسرى، وتعيد التأكيد على أنه بات بالحالة التي وصل إليها، خطراً على البلاد ومستقبلها، وأن التخلي عنه، لو حدث، لن يسبب أي شعور بالأسى لدى المواطنين.

تلك كانت واحدة من حيل راح ينفذها المارشال بإتقان، وساهمت بعد وقت لم يطل في إيصال الشعب إلى كره الزعيم، راح في الخفاء يزيل صوره من داخل غرف البيوت، يسحبها حتى من الحوائط، استنزفت أغراضاً، ظلت من خلالها تحرض الحوامل على "الوحم" وإنجاب شبيه للزعيم، على الرغم من أن الأمل بالنسبة لمن كان معدوماً في إمكانية أن يحظى المولود القادم باسم المهيب، بعد أصدر القصر الرئاسي في أعقاب صعوده للحكم مرسوماً، مهوراً

بتوقيع القائد المعجزة، يمنع على الآباء إطلاق اسم الزعيم أو أي من ألقابه التي لا حصر لها، على مواليدهم، ليظل هو لا غيره، الوحيد الأقرب إلى حبل الوريد، وتظل الأغاني والقصائد والدعوات توجه له وحده، لا سواه.

كانت عملية إزالة صورهِ من المنازل، حدثاً فارقاً في تاريخ الوطن، لم يكن أحد يتوقع أن تحدث يوماً، ذلك أن الشعب الذي كان اندفع يبالغ في إظهار الولاء، هو نفسه الذي أوصلته خييات الأمل إلى الإحساس بئس لا حدود له من الزعيم وشعاراته، من المستقبل والوعود، من الحياة ذاتها، إلى الدرجة التي لم يعد يأبه بغضب، أو يخاف من خسارة.

(19)

أخذت ارتعاشة جديدة تسري في جسد الوطن للمرة الأولى، ثم تنتشر من مكان إلى آخر، باتت التساؤلات محتشدة، غير أن الفعل ظل هو الحائر في ازدحام فورة الغضب، كان الزعيم ومبغضوه يعرفون أن الشعب الذي اعتاد الاحتمال، أصبح مهيباً لتقبل التضحيات والانخداع بكل ما يبرر به الحكام أفعالهم، تلك الأفعال الكفيلة بتحريك الثورة في الجبال الصلبة، إلا لدى الشعب الخامل، الساكن، الراضي والمرتضي بالهوان، الغاضب المقهور والمنتقد الساخر، دون أن يقدر ولو لمرة واحدة على التحرك للثورة، انتقاماً لكرامة أهينت، أو أمل أضاعه الطغاة، أو مستقبل لم يعد فيه ما يبعث على التفاؤل، أو حتى وطن بات مرتعناً تحت سنابك العابثين والأغراب.

وعلى الرغم من أن الاحتمال فاق ما كان متوقعاً، إلا أن الشعب ظل يطلق نكاته الساخرة منه، ومن المستقبل، من العائلة التي لم يكن

أحد في السابق يجرؤ على المساس بها، ولو في أقصى درجات الهذيان،
تزامن ذلك مع تطورات مكتومة تشهدها البلاد، أصبح فيها المهيب مجرد
شخص يجلس على الكرسي الرئاسي، دون أن يمتلك من هيئة الرئاسة
شيئاً، إذ راح الصبية الذين قرّبهم المارشال منه، يتحكمون بالخيوط
المؤدية إليه، يقررون ما يجب تمريره، بعد أن صار الحاكم في نهاية الأمر،
أشبه بلوحة حائط معلقة في صدر البهو الرئاسي.

اندلعت المواجهة حين قرّر إصدار قرار بتعيين ابتته في سدة
حكم إحدى ولايات البلاد، إذ لم يتم إبلاغ الأمر إلى الصحف
ووسائل الإعلام لنشره، بل لم يتم أصلاً إخراجه من المقر الرئاسي،
الأمر الذي هاج الزعيم معه وماج، حين لم يجده متصدراً الأخبار،
وقف في مكتبه بصرخ، استدعى المارشال، أطلق في وجهه صرخات
الغضب، توالى الكلمات القاسية، فالبذينة، لكن صديقه البارد
كألواح الثلج، كان يواجه ما يقال بحدوء، كان قد درّب النفس
عليه، وجربّه في العديد من المواقف، هذه المرة لم ينطق بكلمة
واحدة، إلا بعد أن أخذت ثورة الزعيم تحفت، بعد أن قال ما يمكن
قوله، ليهبداً الحريق الذي أخذ وقتاً، واستهلك جانباً من طاقته،
فاستوى على كرسيه، تاركاً العنان لصدره كي يواصل الارتفاع
والهبوط، في خفقان أشبه بمن يتجه إلى موات.

- سيدي أرجو أن تهدأ، ربما حدث خطأ ما.

• أي خطأ، أتريد إفهامي أن ما جرى ليس له علاقة بما يحدث
منذ شهور، أساذج أنا كي أقبل بأن عدم نشر الصحافة والتلفزيون
لقرار أصدره الزعيم جاء مصادفة؟... عن طريق الخطأ؟

- ربما كان كذلك، سوف نحقق في الأمر، لن ندع ما جرى
يمر دون معرفة الملابسات.

• عليك تشكيل لجنة تحقيق فيما حدث، وأن تكون النتيجة على مكثبي خلال ساعة، أفهمت؟

- سمعاً وطاعة سيدي.

• أرسل أيضاً القرار إلى كل وسائل الإعلام، أريد سماعه مبثوثاً في الإذاعة الوطنية قبل الانتهاء من لجنة التحقيق.

- لك الطاعة سيدي، سيكون ما أردت، ولكن، أرجو أن تنعم بالهدوء، فالوطن في حاجة إلى صفاء ذهن مولاي.

• سمعت كلاماً مثل هذا منك ومن غيرك، وها أنا أرى النتيجة، لو صدق ما أشك في حدوثه، فلن تكفي رقاب الجميع، سادوس بقدمي على كل من يفكر، ولو مجرد تفكير، بالتلكؤ في تنفيذ قرار أصدرته، هل تفهم ما أقول؟

- سيدي كل من في هذا القصر رهن إشارتك؟ وكل شعبك في انتظار أي أمر منك، إننا سيدي في هذا الوطن لا نعيش إلا من فضل النسائم التي تنعم بها علينا، وصدقي، وأنت تعرف مدى إخلاصي لك، لا أحد يجرؤ، في أي وقت، وتحت أي ظروف على مخالفة ما يأمر به الزعيم، لكن ربما ما حدث كان بفعل الخطأ، إننا بشر ونخطئ، ولا نملك عقلاً منظماً وفكراً ثاقباً كزعيمنا المفدى.

• هذا الكلام لم يعد ينطلي علي، أنا أشعر جيداً بما يدور حولي، وإذا ما تأكدت من صدق حدسي، فلا تتوقعوا أقل من زلزال، عاصفة قوية سوف تزيح كل من يقف أمامها، هل فهمت؟ إن الأمر لن يمر بسهولة، لن يمر.

- سيدي ما تأمر به سيكون، نحن هنا لإطاعة أوامرك، ونعيش من فضلك.

• وما يجري في الوطن دون علمي، والتشكيلات التي تقوم أنت بتكوينها، هل هي أيضاً من بين إطاعتكم لأمرى؟ أظن أن أذني مغلقة، وناظري أحيلاً إلى التقاعد؟ ثم هل تظن أن صبري على هذه المغامرات المجنونة سوف يطول؟

- ما نتحدث عنه سيدي، قد تمّ لإبعاد التفاصيل الصغيرة عنك، ما جرى تشكيله لم يكن سوى بضعة جمعيات لحشد طاقات الناس، إعادة تعبئتهم لصالح الزعيم، ليكونوا جنوداً له، ثم إنهم يشكلون أكبر دليل على وحدة الوطن وتلاحم المواطنين مع القيادة الحكيمة، إنهم جنودك يا مولاي، وينتظرون الإشارة ليفدونك بالروح والدم.

• شبت من هذا الكلام، والآن لا أرى أي مظاهر في البلاد تؤكد ما تقول، على العكس أسمع الآن، عن انتشار النكات، عن بطء مهمة تزيين شوارع وميادين البلاد بصوري، كيف تصبح تلك البلاد جميلة إذن؟ أنتم لا تباشرون عملكم على الوجه الأكمل، هناك إهمال ما، ولا مبالاة أيها المارشال.

- سيدي، أنا جاهز، كلنا جاهزون لتنفيذ ما تأمر به، ما رأيك في أن تصدر أمراً بمنع النكات من التداول؟ أما الصور فسوف نبدأ على الفور في حصرها، وزيادة أعدادها، سوف نقيم تمثالاً جديدة في الميادين العامة، سنلزم الجمعيات والشركات والجهات الحكومية بوضع مجسمات طولية بالحجم الطبيعي، وأخرى بأحجام صغيرة ومتوسطة، تماثيل للوجه في كافة المقرات، لن نسمح بإصدار أي ترخيص للبناء يا سيدي ما لم يتعهد صاحبه بوضع تمثال نصفي لكم في مدخل البناية.

• ذلك ما يجب عمله في البداية، لكن فيما بعد سوف يكون هناك ضرورة لإعادة صياغة البلاد من جديد، لقد خرجنا من لحظات

مؤلة، ويجب علينا أن نبذل جهداً كبيراً في ترتيب الأوضاع، وإعداد الشعب من جديد لمواجهة التحديات المقبلة.

- لك ما تأمر يا مولاي، سوف نبدأ في تنفيذ توجيهاتك، سوف ينتظم الشعب وفق ما تريد.

• سأرى هذه المرة، بعينين مفتوحتين، ولن يكون هناك اعتباراً من الآن أي تساهل، أو مجاملة، أرجو أن تفهم ذلك، أنت وكل من في هذا القصر، بل كل من يعيش فوق تراب الوطن.

ما أن غادر المارشال المكتب الرئاسي، حتى أدرك أن الزعيم على دراية بما يجري حوله، غير أنه كان على قناعة بأن الرجل القابع على كرسيه الرئاسي منقوش الريش، سيدرك يوماً حجم التغيرات التي حدثت داخل قصره، ونوعية حاشيته، بل وحتى في شعبه الذي راح يتحدث علانية عن سوءات الحكم، ويشيع ما يتبادر إليه من قصص فساد تلتصق برموزه.

"كل الأمور تغيرت، وعلى الزعيم أن يعيش الواقع، حتى لو غضب مني"، قال المارشال لنفسه هامساً، استطرد وهو لا يزال واقفاً إلى جوار مكتبه "لم يعد هناك شيء يمكن أن يظل في طي الكتمان، وعلى الزعيم أن يكف عن مكابرتة وأن يستسلم للواقع".

كان المارشال الذي جمع الخيوط في يديه ببراعة، على حق، فلم يعد في القصر الرئاسي، من ليس يعرف أن الرجل الذي كان قوياً، الذي كثيراً ما أنزل الرعب في قلوب أبناء شعبه، لم يعد أكثر من مجرد دمية فوق كرسي، وجه منتفخ وعيون جاحظة، وحنجرة تمتلئ كل حين بجمعجة فارغة، تحتاج دائماً إلى مناسبة لإفراغ احتقانها.

ومع أن الإبقاء على الزعيم في نفس مكانه كان سيعني إثارة للمشاكل، خصوصاً مع رجل ليست لديه النية للاعتراف بالواقع

والتعامل مع متغيراته، رجل مثل الزعيم لا يزال يفضل التعايش مع ترهات قديمة، فإن المارشال لم تستهوه فكرة إبعاده عن سدة الحكم، إذ كان في إبقائه مصلحة مشتركة، ما دام نجمه يأفل، وتنسحب جميع البسط من تحت قدميه، في الوقت الذي يتزايد فيه نفوذ المارشال وأتباعه، وتطاول قاماتهم وامتيازاتهم، وتنتشر خيوط شبكتهم الأخطبوطية لتمسك بأطراف البلاد، ورقاب العباد.

كان التغيير غير مجد ما ظلت الأوضاع على حالها، وعلى الشعب أن يستمر في تملله من الحكم الجائر الذي جعله في النهاية يتصدر قائمة الشعوب الأشد فقراً، ليكن ذلك، فلا خوف منه، ما بقيت الأمور مستتية، وما اختفت نية المواطنين للانخراط في أعمال عنف، وما دام الأمر كذلك، فليكن له ما يريد، ليسخر، أو يتململ، يتداول الحكايات التي لا تنتهي عن الفساد والرشاوى، عن الانبطاح والنزوات والهوس، المهم، ألا يتجاوز ذلك الخطوط الحمراء، التي يخشاها نظام حاكم مفكك في داخله، لكنه وقت الخطر سرعان ما سيلتئم، سيقف متكاتفاً، إن شعر أن هناك ما يهدد مصالحه.

استدعى المارشال على الفور مساعديه، أمرهم بإرسال قرار تعيين "البلهاء" في المنصب، وأن يتم بث الخبر من جميع وسائل الإعلام بالسرعة القصوى، كان ذلك أمراً ضرورياً لامتناس غضبه، يعرف أنها ما كانت لتحدث إلا بتحريض من "أم الوطن"، لكنه في الوقت نفسه، كان يدرك أن ما حدث للزعيم من تميش، من تحويله إلى مجرد واجهة، يمكن أن يحدث أيضاً مع ابنته التي وضعها المهيب في منصب حاكم إحدى الولايات، غير أنها في الواقع، ليست تدرك ما يتطلبه هذا المنصب، بل ولا تدرك أصلاً كنه ما يدور حوالها.

لم يكن هناك ما يدفع التردد لدى المارشال، لن يفقد في النهاية أي من خيوط سطوته الناعمة، سيظل يماشى الزعيم، لكنه وبمباركة من الدول الكبرى سوف يصبح في الوقت نفسه متحكماً في البلاد والشعب، لدرجة أنه لا يمكن حتى للطيور الموسمية عبور سماء الوطن دون علمه، وبغير أن يسمح لها أصلاً.

ما دام الأمر سيتوقف عند حدود منصب، فما المانع؟ لن يكون للابنة في منصبها الإضافي ناقة ولا جمل، فهناك من سيدرون الأمور بالنيابة عنها، وحتى هؤلاء لن يخرجوا في الأساس من دائرة الذين يحيطون به، والذين يعتمدون في استمرار وظائفهم على مباركته وحمايته.

ثمّة شيء كان قد ظلّ عالقاً في ذهنه منذ أن غادر المكتب الرئاسي، يتعلق بما قاله الزعيم عن إعادة ترتيب السلطة في الوطن، في النهاية يمكن التعامل معه، وفق ما يتمشى في الشكل مع رغبات الحاكم، وفي المضمون مع مصلحة المارشال، المتوافقة في تفصيلاتها مع مصالح الدول المهيمنة، ولا تتعارض مع الترتيبات التي أقرتها ليس للمنطقة بأكملها، ولكن حتى في داخل أحشاء كل دولة، وتفاصيل الحياة السياسية والاجتماعية فيها، في مناهجها الدراسية وأعداد خريجي جامعاتها وأنواع تخصصاتهم، وحتى في أعداد البشر وجنسهم، كانت أصابع الدول المهيمنة قد امتدت لتصل إلى جوف الوطن، سواء برجالها الذين يخططون ويراقبون عن بعد، أو بواسطة الذين زرعهم في كافة مفاصل السلطة، وربطت بين استمرار مصالحهم وقدرتهم على تنفيذ أدوار حاسمة، تصب في إطار خطط وضعتها للسيطرة على القرار والموارد.

ذلك ما دفع الطمأنينة إلى قلب المارشال، إذ كان على قناعة بأن استمراره سيظل مؤمناً، ما دامت تلك الدول تعتبره حارساً على

مصالحها، ومن دون أن يتم الزج علناً باسمه، كان ذلك الوضع مريحاً له ولهؤلاء الذين يتوب عنهم في الخفاء، وفيما كان الزعيم قابلاً خلف كل قرار، وفي واجهة كل فعل، ظلّ المارشال محرراً بذكاء، ودافعاً بقدرة فائقة ونعومة، لكل ما يجري تداوله أو قوله، تنفيذه أو حشده في ذلك الوطن النائم، وما دام الأمر يسير هكذا، فما الداعي لتغيير قيادة البلاد، ما الذي ستضيفه أي عملية لإزاحة الجعجاع الأكبر عن منصبه؟ حتى وإن ازدادت ترهاته، أو حاول في أي لحظة إصدار قرارات بملوانية؟

غير أن المشكلة لم تكن في حاكم سيظل تحت السيطرة، مع قدرة المارشال على التنبؤ بالكثير من ردود أفعاله، بالمسارات التي تحدّد نزقه، وتحفز نزواته، يدرك كيف يتعامل معها، كيف يحوّل في النهاية إلى أداة طيّعة، شديد الليونة، يعرف جيداً كيف يخمد ثورته، يطفى رغباته مهما ازداد جموحها، لكن المشكلة تكمن في هذه السيدة التي أطلق عليها لقب أم الوطن، والتي لا تنتهي طلباتها، حتى باتت تشكل حالة مرضية يصعب التعامل معها، فما أن يتم تلبية ما أرادت، حتى تكون قد أعدت قائمة جديدة، ليت الأمور تتوقف عند حدود الطلبات المادية، بل المشكلة أنها تندفع لاقتناص امتيازات لا حصر لها للابنة، تحسباً لأي محاولة من الزوجات الأخريات للمطالبة بمزايا أكبر لأبنائهن.

تلك الزوجة التي باتت تواصل الزعم بأن الفضل يعود إليها في نجاح الانقلاب، والتي لا تكف عن الادعاء أنه لولا تلك "الثورة المباركة" لكانت البلاد غارقة في ظلام الفقر والجهل والتخلف، إنما لا تريد أن ترى بعينيها الصورة الحقيقية للأوضاع التي آل إليها الوطن، بسبب نزوات زوجها المنهيب ومغامراته، تلك التي أوقعت البلاد في

حفرة عميقة، بات من المستحيل الخروج منها، دون تضحيات موجهة.

كانت الأم سبباً رئيسياً في دفع الزعيم إلى اتخاذ قرارات متخبطة، حدث ذلك منذ أن قامت بجولات خارجية بحثاً عن علاج للعقم، كلفت فيها خزانة الدولة أموالاً طائلة، ثم بعد عودتها، راحت القرارات تصب في طريق وحيد، تأمين مستقبل من لم تكن غير نطفة مزروعة في أحشائها، لتصبح فيما بعد، مشكلة ضخمة واجهتها البلاد حين تحولت بفضل الزعيم ونزوات زوجته، إلى مزرعة كبرى لا عمل للساكين فيها سوى السهر على راحة الأم وابنتها، والأنجال المفترضين.

كانت بدايات الكارثة قد تزامنت مع هبوط الرضاعة إلى الحضانة، وبداية السعي لضمان مستقبلها، وهو الأمر الذي جعل الوطن من الناحية العملية أسيراً للأم، تمهيداً لتمرير عملية ارحامه بسهولة أكبر فيما بعد، لمن كانوا يوماً.. رؤوساً للأفاعي.

(20)

شعر الزعيم بارتياح إذ سمع هذه المرة بأذنيه النبأ تبثه الإذاعة الوطنية، أدرك أنه لا يزال على رأس السلطة، وأن الجميع بمن فيهم المارشال يتبعون أوامره، لم يعد يداخله شعور بالقلق، إنه زعيم الأمة، وما يأمر به تتم الاستجابة له، تماماً كما كان يحدث في السابق، غير أن أم الوطن كان لها رأي آخر، فهي منذ البداية لا تشعر بارتياح تجاه المارشال، كانت ترى في الرجل مخادعاً كبيراً، يجيد الانحناء انتظاراً لمرور العواصف، لكنه في النهاية لا يحركه إخلاص بقدر ما يجيد الحفاظ على مصالحه، ولو كان ذلك على حساب كرامته الشخصية.

ظلت تواصل إلحاحها على الزعيم كي يتخذ قراراً بإقصاء صديق عمره، يستبعده إلى خارج القصر، راحت تحذره من مؤامرات يدبرها في الخفاء، تضخمت المخاوف عندما صدق حدسها وتأخر نشر القرار الخاص بالابنة.

صار الزعيم بين فكي كماشة، عليه أن يجاهد كي يتخلص من الأعياب حاشية لم تعد تدين له بالولاء، وضغوط زوجة ازدادت شراحتها للمناصب والامتيازات، وترفض التعايش مع واقع لم تعد فيه هي السيدة الوحيدة في حياته.

حلقة تضيق حوله، أبطاها من المقربين، أما الشعب فلم يكن له أي حساب في هذه المعادلة، بعدما تمكن خلال سنوات، عبر الخوف والوعود من تحويله إلى مجرد قطيع، لا قدرة لمن يضمه على الوقوف، وليس التحرك لتنفيذ ثورة شعبية ضد نظام فاسد، مدجج بكل أدوات القمع والتعذيب، أحاط البلاد من جهاتها الأربع بأقبية صالحة لإخفاء مواطنيه بأكملهم من فوق وجه الأرض.

لم يكن الزعيم بسطوته قادراً على رفض الطلبات المبالغ فيها التي تتقدم بها الأم، مستندة على ما لديها من حظوة في البلاد، إذ كانت تحظى بشعبية أكبر من زوجها، بعد أن أقامت سلسلة مشاريع وأنفقت عليها من الخزانة العامة ثم نسبتهما إليها، أطلقت عليها اسمها، ليصبح أفراد الشعب من بعد ذلك دراويشاً في جوقة مكونة من منشدين هائمين، يرددون طيلة اليوم مدائحاً في سجايا الأم الحنون.

في هذا الوقت لم يكن الشعب يعرف بالصراع الدائر في قلب القصر الرئاسي، بين فريقين كلاهما يلتف حول القائد، الأول يحرضه على إزاحة الحاشية، والثاني من نفس الحاشية التي قامت هي أصلاً بإبعاده في هدوء عن طريقها، ودون أن يشعر أحد بما حدث.

ومع أن يد الملهم غلت، إلا أن الأمل ظلّ لديه في أن يقوم الشعب بمساندته إن حاول الإطاحة بحاشية أصبحت تتدخل في كافة التفاصيل، وصار من غير الممكن أن يخرج أي قرار عن إطارها، ومع أنه فكّر تحت إلحاح السيدة الأولى تارة، وتحت ضغط حالة غضب شديد كان يشعر بها في بعض الأحيان من صديقه اللدود، إلا أنه كلما سعى للإقدام على تحويل النوايا إلى فعل، كان يحسب ألف حساب لغضب الدول التي بات المارشال رجلها الأول، والوحيد القادر على تزكية الزعيم لديها، بل والوحيد الذي بيده مفتاح بقاءه على قمة الحكم.

ذلك هو ما كان يؤلم الرجل الذي كان مهاباً، لكنه رغم جمجماته المتواصلة التي كان يسعى من خلالها إلى تمثيل دور الحاكم القوي، ظلّ في قرارة نفسه يدرك أنه من الناحية الواقعية بات مكتوف اليدين، مجرد ممثل على خشبة مسرح، عليه أن يؤدي دوره بإتقان، حتى لو كان هذا الدور موجهاً لمن هو خارج القصر الرئاسي، عليه أن يجيد الدور، وأن يتشبث بحصنه الأخير.

ومع أن ممثلات الدول الصديقة وجمعياتها ومنظماتها، التي عادة ما تتخفى وراء المساعدات الإنسانية، بدأت تحط رحالها في كافة أنحاء الوطن، فإن ذلك شكّل دعماً إضافياً للمارشال، لكنه في الوقت نفسه لم يسبب إزعاجاً للزعيم، إذ سبق له الموافقة وبمحض إرادته على صفقات، عقدها صديقه خلال سفراته بعد ظهور مشاكل الحضانة، وتطلب الأمر معها اللجوء إلى الدول الشقيقة والصديقة، للحصول منها على إعانات عاجلة يمكن لها أن تساهم في إنقاذ شعب كان أفرادهم قد بدأوا يترنحون، تحت ضربات هاشة العظام وزحف كساحها.

هبطت الطائرات حاملة وفوداً متعددة المهام، جاءت المعونات مع خبراء، للإشراف والتدقيق، اتخذوا أماكنهم في القواعد العسكرية والبنائيات الفخمة، ارتفعت لافتات بأسماء المنظمات الإنسانية والخيرية فوق عمارات شاهقة، واقتطعت من المعونات مبالغ تكاد تتجاوز النصف للخبراء والوكلاء في الداخل، ظهرت المساعدات والقروض في خدمات لأمسها الشعب وأخذ يتحدث عنها، يحمدها للدول الكبرى، وينسبها مجدداً لحكمة القائد وحسن تدبيره، كان شعباً عجيباً، إذ على الرغم مما حاق به في عهد ذلك الزعيم، إلا أنه يبحث عن أي حسنة له، يضخمها، ويظل يرددّها، ثم يتعامل معها على أنها بعض من سجاياه، سرعان ما يغضب على النظام بأكمله، لكنه يتوجه في أسرع وقت إلى أحضان زعيمه، ويسكن في دفتها.

وفي الوقت الذي كانت تعاود قائد الأمة بين الحين والآخر نوبات من غضب كلما وجد نفسه محاصراً، منزوع السطوة، فإنه عادة ما كان يركن إلى الهدوء بعد اعتذارات تقدم له من المارشال، وعقاب كان يسارع بإصداره ضد المتسبب، ولا ينفذ في العادة.

فكّر الملهم في الاستقواء بالأجنبي للخروج من حالة بائسة وجد نفسه فيها، لكن حين أخذ يبلور الفكرة، ويستحضر ذهنه للإقدام عليها، اصطدم بأمرين، الأول نصيحة صارمة من سفير الدولة الأكبر حين حضر إلى القصر الرئاسي، قالها بوضوح:

- لا يمكن الاستغناء عن المارشال، أو حتى السماح بإبعاده عن منصبه، إن ذلك من الخطوط الحمراء التي لا يجوز تجاوزها.

زاد السفير من النصيحة:

- من المهم لاستمرارك زعيماً، أن تجيد التعايش مع الوضع القائم، وإلا سيكون من اليسير التخلي عنك، استبدالك في اللحظة التي سترى فيها أن مصالحنا تتعارض مع الإبقاء عليك.

لم يستسغ الزعيم ذلك، بعد أن ظلّ يغضّ الطرف مرات عن ما يسميـه إليه، سواء من تجاهل الدول الكبرى له، أو حتى من تجاهل القرييين في القصر الرئاسي، غير أنه هذه المرة وجد نفسه يصرخ في وجه السفير:

• أنتم لا تدركون شيئاً عن هذا الوطن، كيف تأتي لتقول لي ذلك؟ ألا تعرف من أكون؟ ألم يخبرك رجال السياسة في بلدك من يكون الزعيم؟ كيف تسمحون لأنفسكم أن تقولوا لي مثل هذا الكلام؟

- ثقب تماماً أننا نعرف كل صغيرة وكبيرة عن دولتك؟ نقدر جيداً المأزق الذي أنت فيه، لكن هذا لا يعني أن نتركك تعافر أوهامك، عليك أن تدرك جيداً أن الإبقاء عليك هبة تمنحها بلدنا والمجتمع الدولي لك، على أن لا تتصور أن تلك منحة أبدية، في نهاية الأمر فإن الإبقاء عليك فوق هذا الكرسي هو أمر راجع لتقديرنا، وليس بسبب أي مكانة تحتلها لا في بلدك ولا في غيرها.

• أقول لك مرة أخرى، عليك أن تحسن الكلام في حضوري، لن أسمح لك طويلاً بأن تستمر في هذا الكلام البغيض، كما يجب أن تعلم أن بقاءك أنت في بلدي مرهون برضائي عنك، وبإمكاني أن أطلب من رئيس بلدك أن يستدعيك وأن يستبدلك بآخر.

- أيها السيد، تعلم أن الرسالة التي أبلغتها لك للتو ليست من عندي، لقد حمّلي إيها رؤسائي، إنهم هم الذين يقدرون الموقف،

وكما تعرف فإن البقاء في المكان الذي تجلس فيه، مرهون بما يراه قادتنا.

• إنهم قادتكم أنتم وليسوا قادتنا، عليكم أن تفهموا أن بإمكانني تحويل هذا الوطن، بل والمنطقة بجميع شعوبها إلى بركان يحرق جلودكم إن فكرتم يوماً في الإطاحة بي.

- هذا الكلام مبالغ فيه جداً، ومع ذلك فقد كان بإمكانك أن تقول في وقت سابق، لكن بعد كل التطورات التي حدثت في المنطقة والعالم، فإننا نأمل أن تستفيق من الأوهام، وأن تتعامل مع الأمور بواقعية.

• ما الذي تقصده؟ ما الذي يجعلك تقول هذا؟ ألم تسر في طرقات الوطن؟ ألم تسمع عن مكانة الزعيم في قلوب الشعب؟ ألم تسمعهم وهم يهتفون لي ويدعون لي بطول البقاء؟

- نعرف كل شيء عنكم وعن شعبكم، ربما نعرف نحن أكثر مما تعرف أنت عن مواطنيك، ولعل هذا ما يدفعنا لإسداء النصيحة لك في نهاية هذا اللقاء: سر مع التيار، ولا تقف في مواجهته، وإلا فإن أمر إطاحتك سيكون يسيراً علينا، بل وأيسر مما تتصور.

قال كلماته ثم غادر المكان، لكن ما جرى في تلك المقابلة، على الرغم من مكابرة الزعيم، مثل لحظة فارقة بالنسبة له، قبلها كان يظن أن البقاء في السلطة أمر حتمي، واهماً بأن ذلك مرجعه شعبية جارفة في الوطن، ومكانة عالمية، ورسوخ داخل عقول وقلوب المواطنين، لكن ما أبلغه السفير به، أعاد إليه الشكوك من جديد، أراد أن يتثبت من مكانته لدى أبناء شعب يتوهم أنه وهبه الحياة، وبات عليه أن يسدد الدين، بأن يهب ثائراً هادراً في أي لحظة يستشعر فيها خطراً على حياة زعيم، لا استمرار لحياة الشعب بدونهما.

راح يسترجع ما قاله السفير له، استدعى المارشال، الذي كان قد استمع إلى كافة التفاصيل، عبر كاميرات وأجهزة تنصت ممتدة من المكتب الرئاسي إلى أذنه وعينه.

وعلى الرغم من أن شكوكاً هائلة أدخلتها التصرفات الأخيرة من حاشية النظام في نفس الزعيم إلا أنه كان لا يزال في حاجة ماسة إلى ذراعه الأيمن، استدعاه على الفور، أمره بتسيير مظاهرات كاسحة في ميادين الولايات الأربع تحتف بحياته وتعلن تجديد البيعة، وأن تنقل المسيرات على شاشة التلفزيون الوطني، مع وصف مفصل مفعم بالحماسة، مع استدعاء العشرات من مراسلي التلفزيونات العالمية.

كان يريد بهذه المظاهرات بعث رسالة إلى الدول الكبرى، تلك التي بات في يديها أمر استمراره في السلطة، بأن الشعب لا يزال على هواه، وأنه لو وضع في الاختبار فإنه سيهب الأرواح فداء لقائد النهضة، وباني العزة، وملهمها في الحاضر... والمستقبل، طلب ذلك على الرغم من أنها رسالة معتادة كثيراً ما لجأ إليها أمثاله، دون أن تسفر في النهاية عن نجاح.

خرجت المظاهرات اكتظت الميادين يبشر من كل مكان، وفي اللحظة التي حددها المارشال لأتباعه كانت كافة الترتيبات جاهزة، الشعارات واللافتات، الحناجر، والمبالغ التي سيتم توزيعها على المشاركين، والشطائر التي ستمنح للفقراء القادمين للتو على عجل من أقصى حدود الوطن، والمراوات التي استوردت حديثاً من الدول الراعية للديمقراطية، والتي ستكون جاهزة في أيدي الجنود، كدليل على إمداد حماة الوطن بأحدث ما يكشف من أدوات القمع، سعيًا لإنجاز المهمة الوطنية المتعلقة بجعل أبناء الشعب في فورة الانفعال، يقفون عند حدود الأدب، وينضبطون.

تابع الفذ وقائع المسيرات على شاشة التليفزيون، راح صوت المذيع يتجاوز أصوات الهتافات، كان الرجل متحمساً بأكثر مما يجري على الأرض، إذ لم تقلح المنح النقدية ولا الشطائر، ولا حتى الهراوات المكهربة في دفع الحماسة إلى شعب سارت وفوده رغماً عنها لتهتف، كان معظمهم قد خرج لتوه من مأساة المرض، ليلاحقه الفقر، ولا تزال بطونه يجتاحها أنين من الجوع بين الحين والآخر، على الرغم من أن المفدى جلب المعونات من الدول الكبرى، فمع أنهم ظلوا وقتاً طويلاً يهتفون بحياة من أعاد إليهم الرmq، إلا أنه مع تناقص المواد الغذائية واستمرار الفاقة، سرعان ما انكسرت نفوسهم في النهاية، راحوا يترددون على غير العادة في الخروج في مظاهرات مثل تلك التي لا هم لها إلا الهتاف بحياة زعيم انتهكت النكات حصونه، وأسقطته في العيون شائعات عن فساد البطانة، ودفعت في نفوس الشباب تمرداً راح يطل، حين ضربهم الشلل والمذلة.

ومع أن وسائل الدعاية اعتبرت التظاهرات تجسيداً للحظة فارقة في تاريخ الأمة، وعلامة لا تقبل الشك على مدى الشعبية التي يتمتع بها الرجل، فإن لا أحد في خارج الحدود، انطلت عليه الخدعة، مثلما اخترعها هو وتعايش معها، كانوا يدركون بطريقة صنع المسيرات في ذلك الوطن، وفي الأوطان الشبيهة، والتي تكون جاهزة للاندلاع وفقاً لمزاج حكامها، في أي مناسبة، وغالباً دون حاجة لمناسبات، لكنهم أيضاً كانوا في العادة لا يرفعون إصبع الاحتجاج، حتى لو خرجت المسيرات تهتف ضدهم، وضد التدخل الخارجي في شؤون البلاد، هي في الأصل متتهكة... حتى النخاع.

في الوقت الذي كان يعيش فيه الزعيم في خيلاء، فرحاً برؤية الحشود الضخمة على شاشات التليفزيون، كان المارشال والحاشية

يجيدون مداعبة هوسه الطاعني، راحوا يعتبرون ذلك الحدث، بمثابة مبايعة جديدة، الأمر الذي يعني في النهاية إدخال الطمأنينة في نفسه، بعد أن ظلت خلال السنوات الماضية تراودها الهواجس، منذ اكتشف أن بعض أوامره لم تقابل بحماس، فيما لم يتم تنفيذ أخريات، ثم ازدادت الهواجس بعد مقابله السفير واللهجة الخشنة التي استخدمت ضده، كانوا يفعلون ذلك بنصيحة من صديقه المارشال الذي لم يكن يمانع أصلاً في الإغداق بالإطراء، ما دام ذلك سيشكل ساتراً على ألاعيب يخططون لارتكابها، وحلقات راحوا في هدوء يضيّقونها على رقبة وطن بات في النهاية طيعاً، مثل خاتم في الإصبع.

استغرق الزعيم في مكتبه الرئاسي وقتاً حتى أن الحاشية التي تحيط به مثل ظله، ظنت أن هناك أمراً خطيراً لن يكون أقل من إصابته بموت مفاجئ، بدا الأمر أكثر احتمالاً في السنوات القليلة الماضية عنه في أوقات سابقة، كان يسود فيها اعتقاد بأن أمثال هذا الزعيم لا يموتون، ليس لأنهم محفرون في قلوب أبناء الشعب، بل إن ملك الموت لن يجد لديه الجسارة على اختراق حجب طاغية متعجرف شديد القسوة.

راحت الحاشية تسارع بإبلاغ المارشال مثلما تفعل في كل مرة، بتطورات الموقف، ناقلة له حتى الخواطر التي تتوقع ورودها في ذهن الزعيم، قبل أن يتوجه بنفسه إلى المكتب الرئاسي ويستأذن للدخول على الرجل الذي طالت جلسته على غير المعتاد، خصوصاً في الوقت الذي ذوت فيه أحلامه الكبرى، وانطفأت تلك الشمعة المتقدة التي كانت تدفعه لممارسة أحلام اليقظة.

كان الزعيم مستنداً على مكتبه، تحيط به دوائر من الدخان نفثها للتو، ومع أن الغرفة كانت عابقة بالدوائر البيضاء التي تسبب في

العادة إزعاجاً للمارشال، إلا أنه فعل مثلما يفعل في كل مرة، تظاهر باستنشاق الغلالة الدخانية، معتبراً أن ما ينفته الفذ، يملأ القصر الرئاسي طيلة اليوم بالمسك، لكنه ما أن نبس بجملته، حتى بادره الملهم:

- جئت في الوقت المناسب، يبدو أنك تقرأ أفكارى.
- خيراً يا سيدي، أنا دائماً طوع أمرك.
- كنت أفكر في أمر يخصك؟
- يخصني أنا، وهل لي أن أستحق هذا الشرف.
- تستحقه، للدرجة التي أفكر فيها، بإبعادك عن هذه الوظيفة.
- إبعادي!!!
- نعم، إبعادك، أنا أفكر في إسناد منصب آخر لك، إن ذلك أفضل.

- أنا طوع أمرك، غير أن الأفضل لي، أن أبقى إلى جوارك، إن هذا هو منتهى آمالي.

- لا، لا، سوف أصدر قراراً بتعيينك في منصب وزاري.
- كما تأمر، أنفذ، في أي مكان تريد، سأكون في خدمة زعيم الأمة، إن هذا هو ما يتمناه أي فرد من أبناء الشعب.
- إذن، ستصبح من الآن وزيراً للشؤون الدينية في الحكومة.
- أنا طوع البنان، لكنكم يا مولاي أكثر من يعرف في هذا الوطن، إني لا أصلح لأي منصب ديني، فأنا كما تعرفني لست أفهم كثيراً في مجريات حقبة كتلك.

• أنت تفهم في كل شيء، وحتى لو لم تكن تفهم، فإن بوسعك أن تحاول.

- إلا في هذا المنصب يا سيدي، إن الأمر شديد الصعوبة عليّ.. سأسجد شكراً إن أعدتم النظر في هذا القرار.

• لا... لن أراجع عن قراري، إن هذا تكليف، وعليك تنفيذه.

- سأنفذ يا سيدي، سأنفذ، ما دامت تلك رغبتكم، أنتم أعلم بمصلحة الوطن، ونحن مستعدون للتضحية بأرواحنا في سبيلكم أولاً، وسبيل الوطن.

طأطأ المارشال رأسه، تظاهر بالطاعة وهو يهم خارجاً، أدرك في تلك اللحظة أنه على الرغم من أن أمر تحجيم الزعيم يتم بدقة عالية، ومراعاة شديدة لحساسية الإطاحة النهائية، إلا أن ما كان يتم في الواقع، أصاب الرجل بالتوجس، جعل الشك يداخله هذه المرة، ويسكن في الأحشاء، إلى الدرجة التي يقرر فيها إبعاد صديقه عن بيت الرئاسة.

لم يطرأ في ذهن المارشال اليقظ في تلك اللحظة، السؤال المفترض صعوده، وهو من الذي سيحتل مكانه في القصر؟ من يمكنه السيطرة على تلك القلعة المحتشدة بالاستشاريين وكبار الموظفين ورجال الدولة الأهم؟ كان همه الأساس هو الانتقال إلى مكتبه وإغلاقه ثم الاتصال بسفير الدولة الكبرى، وإبلاغه بما جرى والطلب إليه بالتدخل لوقف تعديل سيطيح به، وهو الرجل الخادم، المحافظ على مصالحهم.

ومع أن السفير راح يسأل عمن يكون قد اختاره الزعيم ليحل محله، فإن المارشال سرعان ما أدرك أن أمراً كهذا كان لا بد أن يكون معروفاً، لكن وقتاً طويلاً لم يمض، إذ دق الباب أحد معاونيه القريبين، ومدّ يده بورقة، حملت قراراً مكتوباً بخط الزعيم، يقضي

بأن تعهد جميع المسؤوليات التي كان يضطلع بها المارشال، اعتباراً من الغد إلى... أم الوطن.

استشاط غضباً في تلك اللحظة على الرغم من أن محادثته مع السفير كانت لا تزال جارية، أبلغه باسم من سيعهد إليه بمهام وظيفته، طلب السفير منه الهدوء، طمأنه بأن الأمور سوف تسير وفق ما يريد، وأن بلاده لن تتخلى عن صديقها، ولن تسمح بأي تغيير يفكر به الزعيم أو سواه من حكام المنطقة، دون أن يقوم بالتنسيق اللازم مع بلاده، وقبل أن يحصل على الضوء الأخضر منها.

لم يطل الوقت، الذي كان المارشال يجلس فيه على جبهة متقدمة، إذ سرعان، ما كان السفير قد حمل عصاه واتجه بها إلى القصر الرئاسي طالباً موعداً عاجلاً لمقابلة الملهم، وما أن دخل حتى وجّه إليه تحذيراً من مواصلة اللعب بالنار، مؤكداً أن أموراً كذلك لا يجب أن يقوم بها منفرداً، وأن بلاده إن تساحت مع هذه الحماسة فإنها لن تسمح بوقوع ما يماثلها مستقبلاً، وتحت أي ظروف.

استطرد السفير قائلاً:

- الأمر لا يتوقف على إقالة المارشال من منصبه وتعيينه في منصب جديد، المهم هو عدم إجراء أي تغيير في أي منصب دون أن يكون لنا به علم، من المهم الحصول على موافقتنا أولاً قبل الإقدام على خطوة كذلك، لن نقبل بأي حال من الأحوال أن نكون نحن آخر من يعلم.

• أيها السفير، إذا لم يكن هذا تدخلاً سافراً في شؤون الوطن، فيماذا يمكن تسميته؟

- لن أجادل في هذه النقطة، سمّه ما تشاء، لكن ما فعلته يحس بمصالحنا مباشرة.

• مصالحكم!!! ترقية موظف في قصر إلى وزير، يدخل في إطار الإضرار بمصالحكم؟ هذا ما لم أسمع بنظير له من قبل؟ أليس من حقي كحاكم لهذا الوطن أن أغير من أشياء، وأسند أي منصب لأي مواطن؟

- أنت تتحدث عن الماضي، حين كان يحق لك فعل ذلك، ونحن نتحدث عن الحاضر والمستقبل، الآن يجب أن تحصل على موافقتنا في كل كبيرة وصغيرة، قبل أن تشرع فيها، لقد لحنا لك بذلك أكثر من مرة لكنك تجاهلت الأمر.

• هل هو أمر؟ أمعقول أن تبديل الأمور إلى الدرجة التي تأتي إليّ فيها، لتقول مثل هذا الكلام، هل تتصور أننا عبيد لديكم؟

- نحن لا نتصور، نحن نفعل، وعليك أن تدرك أنك لست الوحيد الواقع تحت سطوتنا، إن أمثالك كثيرون، ممن تصوروا أنفسهم من الأسود، ولكنهم سرعان ما غيروا جلودهم حين هبّت الرياح المغايرة، استبدلوها بفراء الأرانب.

• لن أكون كذلك، تاريخي النضالي لن يسمح لي.

- سنجعله يسمح، إن لم تفق من أوهامك، ألا تسأل نفسك يوماً؟ من الذي يقف إلى جوارك الآن؟ من سيدافع عنك إن حملك أحد جنودنا بعد ساعة واحدة وألقى بك من النافذة؟ هل تظن أن أحداً سيركض للانتقام من القاتل؟ سيقوم بتسيير المظاهرات للهِتاف ضده؟ هذا إنذار أخير، وعليك أن تفيق من أوهامك، وإلا فإننا قادرون إن لم تنفذ ما نقوله بالحرف الواحد على إبعادك من كرسيك.

• وما الذي تطلبونه إذن؟

- إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، هذا أولاً.

• وثانياً؟

- الاكتفاء بوجودك حاكماً على تلك الصورة، مجرد حاكم صوري، شخص من الشخصيات التي وضعناها على الكراسي أو أبقيناها في مكانها دون أن يكون لها حق التدخل في أي شأن بالبلاد، نحن فقط الذي نحكم، أنا الحاكم الفعلي لبلدكم، هل فهمت؟ أما أنت وغيرك فمجرد أشكال لتكملة الصورة.

أسقط في يد الزعيم لم يكن قد استفاق بعد من نشوة مشهد المسيرات الحاشدة، ولا من الكلام المعسول الذي كاله أفراد الحاشية عن تعلق الشعب به، أدرك أن لا أحد من حوله ولا من خلفه سوف يحميه إن لم يساير التيار، ما لم يقبل بأن يكون حاكماً أشبه بقطع الخشب المصنوعة بعناية لرقعة شطرنج.

انهارت أحلام التوسع، وانتهى زمن الخطط التي كان يسهر الليل لأجلها، انتظاراً لوقت يتحول فيه الوطن التعيس إلى إمبراطورية تليق به، انتهى ذلك الزمن، وبات الزعيم لاعباً مدحوراً يعيش أقصى لحظات الهزيمة.

عند تلك الوقفة الفاصلة، كان لا بد له أن يعيد حساباته من جديد، أدرك دون أن يكون هناك في الأمر شك، أن لا منجاة له إلا بعدم تجاوز حدوده، حتى لو كان ذلك على حساب سطوة زوجته الأولى، تلك السيدة القاسية، التي لن تترك تراجعها عن تعيينها في منصب المهيمنة على شؤون القصر يمر بحدوء، لكن كيف له أن يفهم امرأة لها كل تلك الغطرسة بما طرأ؟ كيف له أن يبلغها بما أصبح يدركه جيداً؟ إن الزعيم القوي الذي ظل يمسك البلاد بأطراف أصابعه، والذي كان يشعر بالضجر كون مساحتها بولاياتها الأربع أقل من حجم طموحه، قد بات غير قادر على السيطرة على الغرفة

المجاورة لمكتبه في داخل القصر، لا بل ولا حتى مكتبه، أو الحمام الملحق به؟

عليه منذ تلك اللحظة، أن يقوم من نومه ويتجه كالعادة إلى مكتبه الرئاسي، لا لكي يتخذ قرارات تاريخية كما كانت تصفها الحاشية وزمرة المطبلين، بل لتمثيل دور الحاكم في دراما الوطن.

(21)

أمام الوهن الذي بات واضحاً على قسماته، راحت أم الوطن تساءل دون أن تتمكن من انتزاع إجابة شافية، كان في معظم الأوقات يلجأ إلى الصمت، تاركاً العنان لعينه أن تتطلعا للفضاء الممتد في لحظات النهار، والفرق في دخان غليونه حين ينشر الليل عتمته في رحاب الوطن.

الزوجة الأولى، التي لا زالت تحتفظ حتى الآن بمكانة لائقة، لم تستطع على الرغم من سطوتها، قطف جملة واحدة ذات معنى، حتى ألما في النهاية وبعد محاولات عديدة، باتت على يقين من أن الزعيم، ذي الخطوة، يقترب أكثر من أي وقت آخر من حافة الخرف.

كانت حتى ذلك الوقت لا تفهم السبب الحقيقي الذي منعه من الإيفاء بوعده، بإحلالها لتصبح ممسكة بمفاتيح أسرار البيت الرئاسي وشؤونه، كانت على بعد خطوة من أن تحتل منصباً رسمياً ظلت تتطلع للحصول عليه، ليضاف إلى لقبها الشرقي كأُم للوطن، ذلك اللقب المنتزع في الأصل بحكم كونها الزوجة الأولى، لكن المنصب الجديد لو اكتمل، لصعد بها من منصب المسؤولة الأولى في ديوان الحكم إلى مناصب أعلى وفي فترات زمنية متقاربة، لم يكن لديها أي شكوك في أن هذا سوف يحدث، وخلال وقت محدود، إذ كانت مثل زوجها، تظن

أن الوطن لا يستطيع أن يتحرك إلا بأطراف أصابعهما، وكان لديها في الوقت نفسه قناعة بأن المارشال، لولا أنه شديد الغباء لكان استطاع استغلال قربه الشديد من الزعيم، للوصول إلى منصب أكبر، ليس أقل في كل الأحوال من رئاسة الحكومة، أو احتلال منصب الرجل الثاني في الدولة، وهو الأمر الذي ظلّ يراودها، والذي تدرك أن الاقتراب منه، يتطلب ركوب منصب المسؤولية عن الديوان الرئاسي.

وفيما راحت مدفوعة بغیظ عارم، تجاهد لمعرفة السبب الذي يكمن في عدم تفعيل قرار أصدره الزعيم، ويخصها، كان أمل الأمة وحامي حماها، يحتاجه الغضب، بعد أن اكتشف في النهاية عمق التحول الدراماتيكي الذي وقع في شبابه، بعد سنوات من السير في طريق توهم أنه سيؤدي إلى تحقيق الإمبراطورية، تلك التي سوف يتمكن خلالها من حكم ربع مساحة الكرة الأرضية، وإملاء شروطه على القوى الكبرى، وإجبارها على تنفيذ كل ما يأمر به.

لم يكن يتخيل حتى في أسوأ الافتراضات أن يؤول الحال إلى درجة أن يصبح محاصراً، مقيد الحركة، محاطاً بأعوان لا يشعرون بأي ولاء تجاهه، وأن يتحول الوطن في الختام إلى بقعة منتهكة السيادة، لا تملك التصرف حتى في أنفهِ شؤونها، دون الحصول على موافقة من السفير القابع على بعد كيلومترات من المقر الرئاسي، هذا الذي أصبح بإمكانه أن يتجول في أي مكان، وأن يجتمع بأي شخصية، بل ويعترض على أي تصرف، دون أن يكون للزعيم الحق في إتمامه بالتدخل السافر في السيادة.

بات القوي محجماً، لا يتحرك إلا في محيط مكتبه وحديقته الرئاسية، فيما السفير الذي هبط فجأة بالباراشوت على أرض الوطن في أعقاب تفكيك الحضانة، يسرح في البلاد، ويمرح.

انطلق يفكر في طريقة للخروج من المأزق، عاد من جديد يذرع حديقته، يجوس بين أشجارها، يرتكن إلى أحد المقاعد الفخمة المنتصبة بين مربعاتها، أحرق في ساعة، متراً من السيجار، نفث خلاله سحباً دخانية تكفي لتلويث المحيط، وهو ينقب في الذهن الذي لم يعد متقدماً كالسابق، عن مخرج من ورطة وجد نفسه في عمقها، كيف يمكن له إعادة هيئته التي راحت تتضعع؟ كيف له أن يثبت للعالم أن مفاتيح السلطة لا زالت في قبضة يديه؟ لم يكن أمامه والحال كذلك إلا اللجوء إلى الشعب، كما في كل مرة يجد نفسه مقترباً من فتحة المصيدة، بعد أن تخلى عنه الأصدقاء والأتباع، رفقاء الدرب، وحاملي المباخر السابقين، زملاؤه من زعماء النضال بالحناجر، وأصدقائه من ساسة الدول الكبرى والصغرى، تخلى عنه الجميع، وبقي في النهاية وحيداً يعاقر إخفاقاته، ويعاوده الحنين إلى الأوهام.

هذه المرة أيضاً لم يجد غير الشعب الذي أصابه بالوهن والكساح وأمراض سوء التغذية بكافة فروعها، كي يلجأ إليه، راجياً منه أن يساعده في الثورة على الفاسدين من محتلي المناصب، في نظام كان هو الراعي الأول للفساد فيه، وكان هو الذي يغض الطرف عن هؤلاء الحيتان الذين ازدادت جلودهم سماكة، مقابل ترك العنان له وللأنجال لنهب ما يقدرون عليه من موارد البلاد وأرزاق العباد.

هذه المرة أيضاً يلجأ إلى الشعب وكأن هذا المسكين مطلوب منه في كل الأحوال أن يتكشف، وينصاع، يهتف، ويتراقص، ثم يلطم الخدين، وينحني تقديراً للجباية.

قرّر انتهاز فرصة حلول ذكرى الانقلاب، لإلقاء بيان "تاريخي" على الهواء مباشرة للشعب عبر وسائل الإعلام الوطنية، هذه المرة سيرمي بأخضر أوراقه، فيما يشبه المجازفة التي إن لم تصب هدفها

مباشرة، ستكون أقرب إلى محاولة انتحار، ما لم تكن انتحاراً فعلياً، سوف يتدفع في واحدة من مغامراته التي كان من بينها الانقلاب الأبيض، وسيرى إن كان سيحقق النجاح، أم سينتهي الأمر جميعه؟ لكنه في كل الأحوال قرّر إخراج النفس من حالة الموت البطيء، من شرقة الإذلال التي أحاطت به، وتكاد تصل به إلى حافة الجنون، سيمضي إذن فيما قرّر، سيشرح على رؤوس الأشهاد تفاصيل المؤامرة التي يتعرض لها الوطن من أعداء الخارج وأتباعهم في الداخل، سيدعو شعبه المخلص أن ينتفض للقضاء على الأعداء، لإظهار مدى قوة أنصاره، ومدى قدرة الشعب الذي لا يجد الطغاة سواه في النهاية لإنقاذهم.

استدعى صديقه القديم، الذي كان يوماً كاتماً لأسراره، طلب منه كتابة خطاب تحثية، ليلقيه في هذه المناسبة الغالية، يتم التأكيد فيه على الوحدة الوطنية والتلاحم بين أفراد الشعب، وضرورة الالتفاف حول القيادة، من أجل تحقيق الأمان الوطني، خطاب يحمل نفس الكلمات التي تقال في مثل تلك المناسبات، التي تعطل فيها المصالح الحكومية، وينعم فيها المواطنون بساعات إضافية للنوم والإنجاب.

كان الطلب عادياً، يتكرر في العادة مع حلول المناسبة، يكتب كاتم أسرار الخطاب ويضمنه عبارات تحتشد فيها مفردات جذلة، من ذلك النوع الذي تعشقه شعوب تغوص في عشق الكلام، وتزدري الفعل.

لم يتوجس المارشال خيفة من طلب كهذا، كان يرى أنه يصب في النهاية في نفس الهدف، ما دام هناك اتفاق بينه وحاشيته والسفير القابع عن بعد يراقب ما يجري، ويتدخل إن تجاوزت الأمور الخطوط المحددة، انطلق يكتب خطاباً متوازناً، يصب في ما يتوخاه، من تحويل

الزعيم إلى مجرد سلطة رمزية، لا تملك سوى كلمات حماسية جوفاء، يتم تمثيلها على شاشة التلفزيون، دون أن يتمكن قائلها في الواقع من مطاردة ذبابة.

غير أن للزعيم ما يعتزمه، كان يدرك في قرارة نفسه، أنه تمكن من خداعهم جميعاً، سوف يقول ما يريد، وعلى الهواء مباشرة، دون أن يتمكنوا من حشد حواس الانتباه لديهم، إلا بعد فوات الأوان، بعد أن يقول ما يريد إبلاغه للشعب، ويحرّضه على التحرك.

لكن الأمر لم يمر كما خطط له، فعندما علم السفير، واتخذ المارشال حذره، وفي اللحظة التي أعلن المذيع انضمام قنوات الإذاعة والتلفاز في بث مباشر من القصر الرئاسي، للاستماع إلى الخطاب التاريخي.

وبينما كان الزعيم قد أنهى استعداداته وقام خبراء التجميل بوضع المساحيق الأخيرة، وإخفاء تجاعيد فوق الوجه كانت تظهره مكفهراً، وفي الوقت الذي كان يحرك شفاته استعداداً للنطق، كان جهازان في غرفة مجاورة يعملان بجدية أكثر من أي مرة، الأول كان يسجل بدقة فيخرج من فمه إلى غابة الميكروفونات أمامه، وهو ينظر في ورقة، دون أن يلتزم منها سوى بجملة افتتاحية، أما الجهاز الثاني فكان ينقل إلى الشعب مباشرة، نص خطاب كان الزعيم قد ألقاه في ذكرى احتفال سابقة.

أخذ الملهم، وهو يظن أن الهواء مفتوح أمامه، يحرض الشعب، يحكي عن الأعيب المارشال، الصديق القديم الذي عضّ النعمة، والذي يمثل قمة الغدر، داعياً إلى الانتقام منه جراء خيائته للوطن، وقيامه بالتخابر لصالح القوى الكبرى وعمالته لها طيلة السنوات السابقة، قال ولم يسمعه أحد، ممن توجه إليهم بالحديث، إن انقلاباً

أيضاً قاده سفير الدولة الكبرى ضد الوطن وزعيمه، بسبب رفضه التعامل مع الأجنبى ورهن البلاد ومقدراتها.

طالب الشعب بإنزال أقصى العقاب ضد من خانوه، وباعوا ضمائرهم بأجنس الأثمان، كان كل الكلام مرتجلاً، يتكرر من وقت إلى آخر، بينما المارشال في مكتبه والسفير في مقره المدجج، يستمعان للكلمات الغاضبة، وفي نفسيهما يختلط الضيق بين الحين والآخر بالسخرية.

راح الزعيم يواصل الحديث إلى وقت طال، دون أن يعرف أن البث المباشر توقف، منذ أن انتهى وقت الكلمة القديمة، وأن المذيع أعلن بالفعل للناس انتهاء حامي الديار من إلقاء خطابه التاريخي، وقدم توجيهاته السامية لشعبه العظيم، ولم يدرك أيضاً أن الوحيدين اللذين بقيا في أماكنهما دون حراك، يستمعان إلى كلماته المرتجلة، لم يكونا سوى صديقه والسفير، الذي بات حاكماً فرداً هو الآخر لا ترد أوامره.

لم ينم الزعيم تلك الليلة، منتظراً هبة الشعب بين لحظة وأخرى، راح يتسقط الأخبار، يفتح الإذاعات الأجنبية علّها تجلب له خبراً من بلده، يطمئنه أن شعبه المخلص قد خرج فرادى وجماعات للانتقام من العملاء الخونة، وطرد أعداء الوطن، والوقوف إلى جانبه بمواجهة الدول الطامعة وسفرائها الذين لا يتورعون عن انتهاك سيادتها الوطنية.

مرت الليلة، حلّ الصباح دون أن يلوح في الأفق أي تحرك، هل لا يزال هذا الشعب مصاباً بالشلل؟ هل لا يزال مربوطاً بالكراسي المتحركة؟ لديه ثقة من أن معظمه قد تماثل للشفاء، فما الذي جعله ساكناً حتى الآن؟

لم يكديمر وقت حتى كان المارشال قد دخل إلى المكتب الرئاسي،
تنفيذاً لتوجيهات السفير، مدّ له يداً بشرط الخطاب الذي تمّ تسجيله:

- سيدي هذا الشريط هدية أرسلتها هيئة الإعلام الوطنية لكم؟

• وماذا فيه؟

- تسجيلاً كاملاً لخطابكم التاريخي الذي أقيمتوه بالأمس في

مناسبة ذكرى ثورتنا البيضاء؟

• ومنذ متى تقدمون لي مثل تلك الهدية، أليس مكانها

الأرشيف الوطني مثلاً، مركز معلومات القصر، مكتبة التليفزيون،

ألمست ترى أن هذه الهدية تثير التساؤلات؟

- لا يا سيدي، فخطابكم بالأمس كان تاريخياً بكل المقاييس،

ومن واجبنا أن نعطيك منه نسخة، لتؤكد مما ورد فيه، ولكي تتمكن

من محاسبة الذين وجهت لهم الأوامر، إن لم ينفذوها؟

• ما الذي تقصد، تحديداً؟

- الشعب يا مولاي، الشعب الذي وجهت خطابك التاريخي

له، إن لم ينفذ أوامرك، يجب أن تنزل به أقسى العقاب.

• أنا أثق في شعبي، أما أنتم فتخونونه.

- لا يا سيدي، نحن جنودك المخلصين، نحن أقرب إليك من

الشعب، نحن الذين عشنا طول عمرنا خدماً لك، وليس هذا الشعب

الكسول الكسيح الغافل.

• لا تحاول أن تتذاكى عليّ، ألم تسمع ما قلته في خطابي

بالأمس؟

- سمعت، سيدي، لقد كان كلامكم درراً، كان رائعاً وكان

الشعب يستمع إليه بانتباه، وقد ازداد حبه لكم يا مولاي، بعد هذا

الخطاب كما ازداد حبنا.

• قلت لك لا تنذاكي أمامي، لقد هاجمتك أنت ومولاك السفير فيه.

- نعم سمعت يا سيدي، وأدركت أنه إذا كان ذلك هو رأي زعيمنا المفدى تجاهي، فلا بد أن أخطائي كبيرة، ومن الواجب عليّ تصحيحها بسرعة.

• لن تتمكن من ذلك، لن يسعفك الوقت، فالشعب قادم للاقتصاص منك ومن أمثالك، الخونة العملاء الذين باعوا الوطن للأعداء، هي مسألة وقت وسوف يجتاحك الطوفان، ويغرقك أنت ومن تستقوي بهم عليّ وعلى شعبنا، سوف يلقون بكم في قاع المحيط، حتى أسماك القرش سوف تعاف أكل أجسادكم التنتة.

- يبدو أن مولاي غاضب إلى درجة لم أتوقعها، أرجو أن تمنحني بعض العفو إن اجتهدت في خدمتكم، فلم أصب، إنني إنسان وخادم لكم، والإنسان في النهاية، خطأ.

• لم يبق هناك من وقت، لن تغفل هذه المرة، الشعب قادم وقد أصدرت الأوامر له، ولم يعد بالإمكان التراجع عن أمر أصدرته، فمنذ متى كان حامى الحمى يتراجع عن قراره نتيجة لاستعطاف أحد موظفيه؟

- لكن يا سيدي؟

• لا تتحدث إليّ أكثر من ذلك، لقد انتهى الوقت، ها هو الشعب قادم، ربما ينظم صفوفه الآن في أحد ميادين الدولة، لكنه من المؤكد سوف يأتي عاصفاً هذه المرة ويقضي على قلاع الفساد والمحسوبية والرشوة والعمالة، سوف يقتلع الجميع من جذورهم... انتهى الوقت.

غادر المارشال المكان مودعاً بصرخة مدوية من الزعيم، كتم في تلك اللحظة قهقهة كانت قد اندفعت إليه، لكنه بحكم الخبرة، وتدريب النفس على إظهار عكس ما تكته، استطاع المضي بسلامح رصينة في طريقه إلى مكتبه، ليتصل على الفور بالخط الآخر الساخن الذي يصله بالسفير، أبلغه بما دار، وسمع بالأذن الأخرى قهقهات عالية، اندفع هو الآخر ليرد تحيتها بمثلها، اتفقا أن هذا الرجل الجالس على ديكور الرئاسة، قد وصل بالفعل إلى مرحلة الخرف، وأنه في الخطوة التالية سوف يدخل في نوبات جنون، ستقود إلى فضيحة له ولعائلته.

قررا الانتظار إلى مدى أطول، حتى الوصول إلى اللحظة التي يتأكد فيها الجميع أنه جنّ جنونه، وعليهما أن يساهما في إيصاله إلى تلك المرحلة، في وقت يتم فيه التمكن من تهيئة البديل، ونقل السلطة الصورية إليه في سلاسة.

عند تلك النقطة، كان الاتفاق قد تبلور، فيما كان الزعيم لا يزال في غيبوته، ينتظر تحركاً شعبياً، قد راهن عليه في لحظة بلغ الوهن به منتهاه، وهن شعبي من الصنف الفادح، ووهن رئاسي لا دواء ناجع له، وحين حوّل اتجاه الكرسي الرئاسي، مشرعاً الستائر على مشهد الشوارع المقابلة، كانت عيناه تثقبان المنظر، ويحتاجه قلق رئاسي مغاير لذلك الذي سبق له معاناته، قلق انتظار قاتل، لشعب في حالة تجمّد، كي يقوم من رقده، ينفذ غباراً تراكم، وقعوداً استراح له، من أجل عيون الزعيم وحفاظاً على كرسيه المدّس.

راح يستجدي خبيراً قد تبّه الإذاعات الأجنبية، أخذ يقلّب موجاتاً في كل اتجاه، دون جدوى، فلا خير ولا يحزنون، أدار الوقت ظهره واستطال، ولا يزال هو ينتظر، آملاً أن لا يصاب بخذلان،

أدرك أن قيام الشعب هذه المرة هو الإنقاذ الحقيقي له، وإلا فإن العاقبة سوف تكون وخيمة، إذ كيف يمكن للسفير أو لدولته ترك ما ورد في خطابيه الرئاسي يمر هكذا، دون أن تحدث ردة فعل هائلة تكون نتيجتها الإطاحة به أو اتهامه بتهم كفيفة بإيداعه واحد من السجون الثابتة على الأرض أو العائمة في بحار العالم، أو حتى إرساله للتعذيب في إحدى المعتقلات المتخصصة، التي توكل في العادة لدولة صديقة.

الخاتمة ستكون مؤلمة بكل المقاييس، والفضيحة التي سيشهدها العالم، وقد يتم فيها محاكمته، وفتح دفاتره القديمة ستكون مدوية، سوف يقومون بتكليف التهم على الطريقة التي تدفع أبناء شعبه، وشعوب العالم لإطلاق الدعوات في كل صلاة وبمختلف اللغات، والطقوس المعروفة، لإنزال أشد العقوبات به، للانتقام منه وسجله في بث حي على شاشات التليفزيون، فيا له من عقاب، بات يثير الخوف في أوصاله، ويدفعه إلى الاستمرار في النظر من نافذة مكتبه إلى مشهد الشوارع انتظاراً لمسيرة غضب ضد أعدائه، قد تنطلق عارمة، لتكتسح حصون الذين يتربصون به، وتزلزل قواعدهم.

لم يكن أمامه إلا مجرد أمل، فلا أم الوطن ستنتفعه هذه المرة، ولا الوطن نفسه، ولا حتى الأوهام العارمة التي تحتاج كيانه ولا يزال معها يظن أنه هو الزعيم المفدى، الذي يهيم به الشعب ولها، لن ينقذه أنجال كالذين خرجوا من صلبه، مجموعة من البلهاء والعجزة لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ولا يفقهون في الأصل شيئاً عما يدور حولهم.

عليه هذه المرة أن يواجه مصيراً محتوماً بعد أن اختار بنفسه هذا الطريق، وصمم على ارتياده، وعليه ما دامت الأمور وصلت إلى هذا

الحدّ أن يواجه الموت بشهامة، فليس من المعقول وهو من كانت دول العالم تضع له ألف حساب، وبعد المجد الذي توهّم أنه صنعه، والعزة التي اعتقد أنه جلبها، أن يكون مصيره، التعليق على أعواد مشانق، أو رميه مثل كلب أجرب في أقبية سجون لا يرى الداخل فيها ضوء الشمس.

انتابته حالة قلق حين أخذ الوقت يسارع بالرواح، ها هو يفقد رهاناً فادحاً، غير أنه لا يزال متشبثاً بالأمل حتى لحظاته الأخيرة، لأنه ببساطة لا يملك غير ذلك، لم يعد متاحاً لديه غير الانتظار، بعد أن كان هو الرجل التي ترمي عند أصابع قدميه مقدرات وطن وأمال شعب، وتترامى أمام ناظره طموحات لا حدود لها.

أخذ الزعيم بين اليوم والآخر يعاقر انتظاراته، يمارس الفعل نفسه الذي ظلّ يقوم به منذ اللحظة التي أعقبت إلقاء الخطاب، وعلى الرغم من أنه لم يتبّه هذه المرة إلى أن الصحف لم تقم بنشر ولو خبر صغير عن كلمته التاريخية، لا قبل موعدها ولا في اليوم التالي، معتقداً أن الخطاب كان مذاً على الهواء وأن جميع أبناء شعبه شاهدوه، فإنه ظلّ حتى في أشد حالاته يأساً، يتمسك بالأمل في أن تحدث الهبة المنتظرة، مؤكداً لنفسه أن الشعوب لا تثور في العادة إلا بين فترات وأخرى، وأنه من العسير في حال شعب يعشق الخمول مثل شعبه، أن تحدث الانتفاضة مرة واحدة، ما لم يسبقها تنظيم جيد، وتعبئة حاشدة تكون كفيلة بمنع الوقوع في الأخطاء، وتجنبها أسباب الفشل. راح يفرق في انتظاراته، فيما أخذت الدائرة تضيق عليه أكثر، كانت حاشية المارشال تكتسب في كل يوم أنصاراً، وكانت الدولة الكبرى تواصل مدّ أصابعها الأخطبوطية لتمسك بكل نامة في ذلك البلد، معطية بين الحين والآخر بعض الفتات من الغنيمة لدول أخرى كبيرة تماشيها وتتبعها كظلها.

انفضّ الجميع عن الزعيم، بات معزولاً، لا يرى من البشر إلا "أم الوطن" التي ربطت مصيرها بمصيره، والابنة الضامرة، وقطعتها البيضاء، حتى انفضّ عنه غالبية الأبناء وأمهاتهم، الزوجات اللواتي كان قد كدسهن بعد أن افتتح مشروعاً شخصياً للإخصاب، تعهد فيه بإنتاج سلالات لها صفات رئاسية خالصة، توقع أن يمتد حكمها للبلاد، ويظل اسمه خلالها يتداول بين بشر الإمبراطورية إلى أبد الآبدين.

بقي له أربعة أبناء هم الحكام الذين نصبهم على رأس الولايات، وهم الذين رأى المارشال والسفير أن يتم الإبقاء عليهم، ما بقي أبيهم، إلى أن يتم ترتيب الأوضاع، وتهيئة الوطن للنقلة النوعية المزمعة، والتي تنتظر الوقت المناسب للبدء فيها.

أصبح وحيداً، ضائعاً، اعتاداً خمراً لم يكن يستسيغه، أدمن الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية حتى وصل إلى يقين بأنها هي الأخرى تشارك في المؤامرة التي يقودها السفير، ويعاونه المارشال وكبار موظفي القصر فيها.

بات يضع سيناريوهات لما حصل، يختلق مبررات ليقنع نفسه بأن الشعب لم يتخل عنه، وأنه ربما كانت هناك مؤامرة حدثت ومنعته من الاندفاع للانتقام من أعداء رجله المهيب، وإبعاد حالة الإذلال التي يسعى الخائنون لإنزالها به.

ساءت حالته النفسية يوماً بعد يوم، لم تنفع تلك الصلابة التي كان يتمتع بها، والتي كانت مثار إعجاب شعبه ومضرب الأمثال للشعوب الأخرى، أخذت أحواله الصحية تصاب بانتكاسات متعددة، حتى صعدت علامات الدهشة على وجوه الأطباء وهم يرون تدهوراً هائلاً في صحة رجل كانت لديه من الحيوية ما يكفي

لمناطقة جمل، ومن الخشونة ما كان يكفي لثني نصل سكين، كان رجالاً من هؤلاء الذين يصلحون لوظائف جسدية، لقتال في ميادين، أو منازلة في حلبات مصارعة، اقتلاح أو حمل، إماتة أعداء وقصف أشجار من جذورها، لكن أن يحكم، أن يشغل ذهنه بأمور تحتاج تودة وتدبير وملاينة، فذلك ما كان هو المثير للدهشة في شخصيته المحيرة.

بعد محاولات مضنية بذلها الأطباء لإنقاذه، وفق أوامر صدرت من المارشال، وتلقاها بدورده من هو أكبر منه، من ذلك الرجل القابع على مقربة كيلومترات معدودة من القصر الرئاسي، كان الزعيم يستجيب إلى العلاج في بعض الأحيان، لكنه سرعان ما كان يعود إلى حالته السابقة، ينغمس في أوهامه، فتزداد حالته النفسية سوءاً، وتدهور معها صحته الجسدية.

ضاق ذرعاً بحجسه الانفرادي، ضاق أكثر بالسخرية التي كانت تلاحقه من سعاة القصر، وكانوا في السابق يَخْتَفُونَ داخل جلودهم إن رأوه، ازداد ضيقه أكثر بدخول المارشال اليومي عليه في مكتبه، متظاهراً بإبداء فروض الطاعة، ضاق بانحناءاته، بفرط الأدب الجرم الذي يقوم بتمثيله، بكلماته التي تحمل الكثير من التوقيير، لكنها ممتلئة بكل ما يمكن لقاموس اللغة أن يتضمنه في الاستهزاء والتوبيخ والشتائم، والشماتة.

أخذ ينكمش في قعدته، يجلس على كرسيه الرئاسي بالزري الرسمي، يحتسى ما تيسر من شراب، ويكتب، يصب لعناته في عبارات غير منتظمة، على المارشال والحرس، السفير، الوزراء والزوجات اللواتي تخليهن عنه، قبل أن ينتقل إلى الشعب فيسطر له الرسائل.

الفصل الثالث

(1)

رسائل يومية للشعب كتبها

الزعيم أثناء تحديد إقامته

الرسالة الأولى

أيها الشعب،

بالأمس ناديتك كي تهب في وجه الأعداء والخونة، طلبت منك أن تثار لكرامتي التي هي في الأساس كرامتك، ألم أكن أنا السبب الذي جعلك تعيش في نعيم تحسدك عليه شعوب العالم الثالث؟ ألسنت أنا زعيمك الذي وضع ذات يوم روحه على كفه، وقاد ثورة شعبية لإنقاذك من فساد الحكم والاستبداد؟ ألسنت أنا الذي جلب لك الحرية والعزة؟ ألسنت أنا الذي أطعمك بعد جوع، وأسكنك بعد تشرد، وآمنك بعد خوف، وستر جلدك بعد عري؟ ألسنت أنا زعيم الأمة الذي رفع ذكرك بين الشعوب، ووضع اسمك في ذرى النجوم؟

فلماذا تأخرت هذه المرة عن تلبية ما طلبته؟ لماذا سمحت للتكاسل أن يعود إليك من جديد؟ لماذا لم تخرج مظاهراتك بالملايين تمتف لي وتبايعني وتندد بالمؤامرة التي يتعرض لها الوطن؟ تهاجم الأعداء الخارجيين الذين يريدون فرض إرادتهم عليك، ويقومون بالإساءة إلى زعيمك؟ لماذا لم تنقض أيها الشعب مثل

النسور على الخونة الجبناء، هؤلاء العملاء الذين يتآمرون في
الداخل على الوطن، ويحاولون أن يمنعوا التواصل بين الشعب
وحاكمه؟

يا أبناء شعبي... يا أبنائي:

ألم تفعلوها مئات المرات؟ ألم تخرجوا للهتاف بسبب ودونه؟
فلماذا هذه المرة تقاعستم؟ لماذا عاد الخذلان وعدم الشعور بالكرامة
يسري في أبدانكم؟ هل عاد إليكم الكساح مجدداً، أم أنكم لم تعودوا
تشعرون بحجم الكارثة التي يريد الأعداء، بالتعاون مع الطابور
الخامس إغراق الوطن فيها؟

تحرك أيها الشعب قبل فوات الأوان، وإلا فلني سأبرئ ذمتي
منك، أنا الذي أمثل كرامتكم وشرفكم، أنا الوطن، الذي إن تركتم
الأعداء ينالون منه، فإن مصيركم سوف يكون في يوم ما، هو الإلقاء
في مزبلة التاريخ، ويبدو أنكم، تستأنسون المزابل، وتعشقون من
يضربكم على الأقفية.

لقد أصبت بالضجر منكم، يا أبناء الشعب الذي لا يعرف
نخوة، ولا يشعر بأهمية العيش في كرامة، سئمت منكم حتى الثمالة،
ولم أعد أعرف إن كنتم بشراً أم هواماً، لكنني أعرف في النهاية شيئاً
واحداً، هو أنكم بكل المقاييس، لم تكونوا أبداً تستحقون تضحياتي،
وسهري على راحتكم، طموحاتي يجعلكم شعباً لا مثيل له، وها أنا
أناديكم فلا تستجيبون، أنتظر قومتمكم فلا تنهضون، وأعرف أني لو
مكثت هكذا طيلة العمر، فلن تمبوا.

فلتذهب يا شعبي، البليد، الكسول، النائم، الخائب، إلى
الجحيم، لتذهب دون ندم عليك، فأنت تستحق الحرق، والجلد،
والرمي بالبيض الفاسد، بل والأحذية.

وها أنبي الآن أكتشف، أني قد خدعت فيكم، اعتقدت أنكم تستأهلون مبدعاً عبقرياً، ثائراً وطنياً، صاحب فكر ثاقب، ورؤية مستقبلية، لكن الذي حدث، هو أني في النهاية أدرك الآن كم ابتليت بك أيها الشعب، دون أن تستحقني.

ابتليت بك، فكان هذا هو مصري.
فلتذهب مجدداً إلى الجحيم، مطارداً باللعنة.
لتذهب إلى المذلة والضعفة والعفن.
يا شعبي الخائب.

زعيم الأمة

الرسالة الثانية

يا شعبي البائس،

هذه هي الرسالة الثانية، فقد كتبت لك واحدة بالأمس، نعم، كانت شديدة اللهجة، كتبتها بعد أن أصابني اليأس منك، وبعد أن مرّت عليّ 24 ساعة، شعرت أن الساعة الواحدة منها تعادل دهرأ، دون أن أجد منك استجابة، أصابني الإحباط منك يا شعبي الذي قدمت له زهرة شبابي وانتظره الآن أن يثار لي، ثم إنني ما كتبت رسالة الأمس إلا بعد أن أصابني يأس قاتل، وعلى أي الأحوال، فلني قبل أن أستسلم لغفوة النوم كنت قد كتبت لك مصححاً العبارات التي قد يفهم منها أني أهاجمك.

عموماً، أرجو أن لا تغضب أيها الشعب من زعيمك، فانت بالنسبة لي كالابن، ومن حق الوالد أن يعنف الأبناء إن وجد منهم تقصيراً، وقد نالني هذا التقصير منك، لكنني لا زلت أتطلع إلى اللحظة التي ستقوم فيها من رقدتك، أنتظر أن تحب كرجل واحد للوقوف

يحزم في وجه هؤلاء الذين يقومون بالإساءة إلى النضال المشترك لنا، الذين يسعون إلى تشويه الصورة المشرقة لتلاحم وطني رائع تجلّى في أروع أشكاله عندما كانت تواجهنا لحظات التحدي.

وأصدقك القول أيها الشعب إني لا زلت عائب عليك، ولا زلت أنتظر قيامتك التي ستمسح العار عن جبين الوطن، وترد باليقين والبرهان الساطع على ما يروّجه الأعداء حول العلاقة التي تربط بين الحاكم والمحكوم، وثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن ما يخامرهم، ما هو إلا مجرد أضغاث أحلام، وأمنيات واهمة تداعب عقولهم المريضة.

إنني يا شعبي لا زلت أنتظر منك هبة، لا تبقي أحداً من الأعداء، الموجودين في الداخل، والذين يمثلون رأس ذنب للاستعمار العالمي، ولا هؤلاء الأعداء الخارجين الذين يسعون إلى تركيع وطننا، وجعلنا مجرد مستهلكين لمصانعهم، وسوقاً لترويج بضائعهم، ويريدون أن نكون لهم خدماً، وهو ما لن يحدث أبداً، يا شعبي ما دمت أنا الزعيم المهيب رمز العزة والكرامة، وبطل الثورة وحامي الحمى، وواهب الأمن والأمان. فتحرّك أيها الشعب، ولا تدفعني لصب غضبي عليك، ولا تجعلني ألعن الساعة التي ابتليت فيها بوجهك النحس، بملاحك المستكينة الكئيبة، انطلق تحت رعايتي، سائراً على دربي، ومتمتعاً برضائي ومباركتي لإعادة الأمور إلى نصابها، إعادة الكرامة إلى الوطن والنهوض به والحفاظ على مسيرته المتقدمة على درب العزة والشموخ، والدفاع عن مكتسباته الثورية وصيانتها ضد أي محاولة خاسئة للنيل منها.

أيها الشعب لم يعد بإمكانني إيجاد أي عذر لك، لرقدتك التي طالحت حتى هذا الوقت، فتراخيك عن تلبية نداء الوطن سوف يكون

وبالاً عليك، سوف تعض بنان الندم يوماً، حين تنفقت الأمور،
وستدرك أن هذا التقاعس جرّ عليك من المشكلات، وأن وطنك
الذي ظلّ عالي الهمة، مرفوع الرأس، قد ناله الضيم، ونهبه الأعداء،
بسبب خذلانك وتقاعسك.

فإذا اخترت العزة والشموخ، فأنت مني وأنا منك، وإن اخترت
المذلة والمسكنة، فمرج بحرنا لا يلتقيان، وستكون أنت الذي اخترت
معلم إرادتك الثرى، فيما سأظل أنا في عليائي، قابع في الثريا، وعندئذ
لا وفاق بيننا، ولا التقاء.

فلتنتهز هذه الفرصة التاريخية أيها الشعب، ولتكفر عن سيئاتك،
ولتلحق بداربي في أسرع وقت، وإلا فلتذهب إلى الجحيم.
اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد.

حامى الحمى

الرسالة الثالثة

يا أيها الشعب الرخي،

طال الانتظار، ولم يخرج عنك ما انتظرت، ما الذي جرى لك؟
كأنى لست أنا زعيمك الذي هتفت له طيلة السنوات السابقة، كأنى
لست أنا الذي كنت تصرخ في الميادين لتعلن حبك وولاءك له،
لتقول للعالم إنك مستعد لافتدائه بالروح والدم. ألم أكن أنا حبيب
الملايين؟ قائد القادة وزعيم الزعماء، بطل الأبطال ورجل الأقدار
وشمس الشموس؟ ألم أكن الذي كان أداؤك، فنانوك، صحفيوك،
سياسيوك، نوابك، مشايخك، رياضيوك، جنودك، طلابك،
مدرسوك، يهتفون صباحاً ومساءً، بأن لا حياة للوطن ما لم تستمد
من الزعيم، ما لم تسطع الشمس والقمر على جبينه؟ ألم تقل هذا

وأكثر؟ فما الذي جرى؟ إلى هذه الدرجة تتخلى عني، إلى هذه الدرجة تتركني وحدي أواجه أطماع الأعداء، وأنا الذي دفعت دمي ضريبة لكي تنعم بالحياة الحرة الكريمة؟ يا لك من شعب ناكِر، يا لك من أناني، أجوف، مستسلم ومتراخ، أهذا هو الذي علمته لك؟ ألم أفعل ما بوسعي لكي أحقق لك حريتك، والآن تتخلى عن قائدك، تضع في أذنك قطناً، تنظاهر كعادتك بالبلاهة، لتتركني أواجه مصري؟ لكني أقول لك، إنك سوف تندم، سوف تعلم بعد أن تنتهي تلك المحنة أنك كنت متخاذلاً، ندلاً، شديد الغباء، لا تملك أي رؤية لا للمستقبل، ولا حتى لما هو أبعد من محيط وقفتك.

يا أيها الشعب تحرك الآن، تعال إلى القصر الرئاسي، اهتف وأسمع صوتك للعدو الذي جاء إلينا طامعاً، يريد نهب بلادنا وخيرات شعبنا، جاء ليسلب منا أعز ما نملك.. عزتنا وكرامتنا وشيوخنا، تلك التي نجوع ونعري ونتشرد، بل وحتى نفوت ولا نتخلى عنها، إن الكرامة كما علمتكم أهم من الطعام، أهم من السكن والغطاء، تلك احتياجات لا يجب أن تكون هي هاجس الشعب، فالهاجس يجب أن ينحصر في القضايا الكبرى، فلا يوجد وطن على ظهر الأرض أو حتى على وجهها، يمكن أن يعيش ويخلد، بينما مواطنوه تلاحقهم الذلّة والمسكنة.

فيا شعبي، إنّي أنتظر اللحظة التي ستأتي فيها لتقدّم للعالم برهاناً على وفائك لقائدك، على تلييتك للنداء الذي أطلقه لك قبل أيام كي تثور، تنتفض، تطرح الذل جانباً، وتخرج من عرينك كالأسد المصور، محطماً الأغلال، ومقتحماً الأسوار، منطلقاً نحو العزة والمجد، على خطى زعيمك المفدى، الذي علّمك التحدي، ولقّنك الغيرة، وأرضعك الكرامة.

وإني لا زلت أنتظر يا أيها الشعب، فلا تتركني، على هذا الحال
لسوقت أطول، لا تدفع اليأس ليسري في روحي، أنا الذي لم يعرف
اليأس يوماً طريقاً إلى قلبه، ولم ترضخ روحه ولو لساعة واحدة
للهوان.

فانتفض، قم من رقدتك، افرك عينيك وتقدم نحوي، كي يزول
عنك الغم والهم والكسل، وإلا فإن غضبي سوف يهبط عليك مثل
السيول، وسوف تكون أيها الشعب موضع سخرية العالمين، سوف
تتحول إلى دمي في متاحفهم، وجوارب في أرجلهم، وأبسطة
يتقدمون فوقها، حين يشاءون.

أيها الشعب، لقد أكلتني لحماً، وها أنت تلقي بعظامي على
الطريق، للقطط والجرذان، ترميني للكلاب الضالة لتلعقني، وللأعداء
كسي يشربوا حسائي، فهل هذا هو جزاء المعروف، هل تلك هي
نتيجة التضحيات التي قدمتها لأجلكم... أيها القطيع؟

والد الشعب

الرسالة الرابعة

يا شعبي النائم،

ضاع عمري معك، وهذا هو الحصاد.

أربعة أيام وأنا أنتظر هبتك، دون فائدة، كأني كنت أنتظر
الجدران أن تتحرك من مكانها، أو كأني كنت أتطلع للمطر أن يهطل
فوق الأراضي الجرداء، أو أرجو المستحيل أن يتحقق.

لم أتصور أن الشعوب البليدة، لا يمكن لها أن تعرف في أي
يوم، مذاق الحمية، أن تتحرك للدفاع عن كرامتها، أن تثور في وجه
الغاصب، وأنت يا شعبي الذي خذلني، أضعت الوقت والعمر كله

معك، وضاعت أدراج الرياح كل المحاولات التي بذلتها لإعادة تأهيلك، لإخراجك من حالة التراخي.

رهاني عليك الآن مني بالخسران، لأني تصورت أن بالإمكان تعديل شعب ظلت أولى أعماله، وأهمها أن يجرد حنجرته فور صعود كل حاكم كي يهتف بحياته، تصورت أن المتاف في عهدي سيكون مختلفاً، سوف يصب في هدف واحد هو تعبئة جميع أبناء الوطن، مختلف قواه، في بوتقة واحدة، للترويج للعهد الجديد، لكني أحصد ما لم أتوقع، شعباً خاملاً، تعبت حناجره حتى لم تعد تقوى على ترديد هتاف، قوى خائرة لا تقدر على الدفاع عن نفسها لو هاجمتها ذبابة، فكيف يمكن لها أن تدافع عن وطن إذا ما همت قوى الشر بإيذائه؟ بل كيف تدافع عن رمزها، إذا ما ناداها يوماً.

كان عليّ أن أعرف أن ما يجري معي الآن هو نتيجة، لا يمكن الحصول على غيرها من شعب وضعته في حضانه، فأخذ يتراقص فرحاً في الشوارع، قسّمت وطنه إلى أربعة أجزاء فاعتبر الأمر عبقرية، وضعت في أعلى السلطة أبنائي وقررت أن يرثوني بعد عمر طويل، فخرج إلى الشوارع هاتفاً بحياتي وحياة الأبنجال، تركت العائلة وأفراد الحاشية يفتسمون موارد الوطن فخرج يقبل الأرض، يكتب اللافتات التي تشيد بعذاتي، عدلت مواد الدستور لصالح وصالي وأسرتي، فخرج يهتف لي بطول العمر، ويحمد لي خوفي على الوطن ومستقبل المواطنين.

هاجمته في الخطابات، قلت في أفراد سباباً، وصفتهم بالغباء، فنزلت الشتائم على صدورهم برداً وسلاماً، جئت باللصوص من كل فج، نهبوا البنوك، باعوا المخدرات، نشروا الفساد والرشوة والجريمة، فنحت البلاد بعد فشل الحضانه على مصراعيها، بعث

الشركات الحكومية، المصانع إلى رجال أعمال صوريين، سرعان ما تحولت عقودها باسمي وأولادي والحاشية، دون أن يخرجوا مرة واحدة منددين، دون أن يرتفع صوت واحد منهم بكلمة احتجاج.

فعلت كل شيء بأبناء هذا الشعب، حولتهم في اتجاهات عدة، من اليسار إلى اليمين، من الاشتراكية إلى الشيوعية إلى الرأسمالية، إلى اختراع نظرية خاصة بي وحدي، وضعتهم في حال طوارئ لا تنتهي، ربطت على بطونهم الأحزمة، تركتهم جوعى، أشلاء، زادت في عهدي الأمية، انتشرت الأوبئة، اشترت من موازنات الدولة أطناناً من الذخائر، طائرات من كل صنف وبوارج ودبابات، لم أستخدمها، حصلت في مقابل صفقاتها على عمولات هائلة، انزلت في لحظة توقيع العقود داخل حسابات سرية.

باختصار فعلت كل ما كان يجب أن يدفع الشعوب الحرة للثورة، للبحث عن الخلاص، لكن هذا الشعب لم يثر على الإطلاق، لم يشعر بما يدور حواله أصلاً، فهل لي بعد ذلك أن أنتظر من شعب كهذا، أن يساعدني على الخروج من المأزق؟

إنه شعب خامل، بليد، كسول، ليس لديه أدنى درجة من النخوة. ومع ذلك فإن وكل من ينتمي للنخبة، دائماً يراهنون على الشعوب، فليستمرروا في أوهامهم، حتى يفيقوا يوماً، مثلما أفيق أنا الآن على الحقيقة المريرة.

أيها الشعب السقيم،
ليذهبوا هم، ولتذهب أنت أيضاً معهم
إلى الجحيم.

الزعيم المهيب

الرسالة الخامسة

أيها الشعب الكسول،

يا من يريق لك الشعراء أحباراً، ويقضون عشرات الليالي في الكتابة عنك.

أيها الشعب الذي استهلكت أعصاب الثوار الزعماء، أشعلوا لك حناجرهم، ولفوا وداروا، وذهبوا وعادوا، وهم يخاطبونك ويستدرون عواطف أبنائك، يصعدون إلى الحكم من أجلك، ويتشبثون بالحكم لأجلك، ويورثون الحكم لأبنائهم، أيضاً لأجلك، يحولون الجمهوريات إلى ملكيات رئاسية، وهم مطمئنون إلى وجود من سيعدل القوانين بسهولة، من يفصلها على مقاسهم، من يمررها بعد ذلك في الهيئات التشريعية أيضاً لأجلك.

يا أيها الشعب الذي يدور حولك الفاسدون والصوص والآفاقون، يا أيها الوهم الكبير الذي يعيش له الجميع، ويتذرع بخدمته الجميع، ويحتضن البعض ويلفظ الآخرين، أنا - أيها الشعب - في النهاية أقول لك، الخلاصة، وهي أنني وصلت معك إلى نهاية المطاف، بمعنى آخر، سئمت منك، وبأست من إصلاحك، تقويم اعوجاجك، أيها العاشق للذل، النائم بلا نهاية، وبلا أمل في لحظات يقظة، ولو كانت بالصدفة.

سئمت منك، ولعنتك، وشتمتك في السر وفي العلن، أنت يا أكبر خدعة ينخدع بها الحالمون، وذوو الهمم العالية والطموحون، سئمت منك، ومن نومك الذي لا تفيق منه، من كسلك وحمولك وتقاعسك.

والآن أقول لك في النهاية، لقد اخترت أيها الشعب، وعليك أن تتحمل نتيجة خطأ اختيارك، اخترت أن تتخلي عن قائدك، الذي

وهب عمره لك، والذي أراد أن يصعد بك إلى العلا، ها أنت تخذله،
فيا لك من شعب لا تعرف الوفاء. عليك أن تتحمل تلك النتيجة التي
وصلت إليها، اختيارك الغبي، ستركني لمصري، وتنجو أنت
بنفسك، تقع تحت سنابك خيول الأعداء، ونصال الفاسدين
الجواسيس العملاء، والذين يبيعون الخدمات للأعداء على حساب
الوطن والمواطنين.

سئمت منك يا وطن، وسئمت من نفسي، إذ وقعت بعد
سنوات من النضال مخدوعاً فيك، وفي الحاشية التي أحاطت بي،
في هذا المارشال الرئبقي اللعين، ذلك الذي تقرب مني، حتى
أسلمته ذقني، وكانت النتيجة، أن راح يعبث بها، يؤجرها بالمقابل
للخارج، خدعني المجرم، وراح يسوق نفسه لدى الدول الكبرى،
بات رجلهم في الوطن، ثم اتفق في النهاية معهم على تحجيمي،
على أن تسلب كل السلطات الفعلية مني، لأتحول بعد كل ذلك
الوقت الذي كانت فيه كائنات الوطن لا تجرؤ على التنفس، مجرد
التنفس دون أن تكون قد حصلت مني على إذن لذرات الهواء
بالدخول إلى رئائها، الآن تنزع مني السلطات جميعها، وأصبح
مثل دمية فوق مائدة، حاكماً منزوع الصلاحيات، مجرد تمثال
قابع فوق كرسي الحكم، مطلوب منه أن يواصل تمثيل دور
الحاكم، دون أن يكون له أي حق في الاحتجاج، في الرفض
والتعديل والنهر والغضب، ليس له أي سيطرة سوى في محيط غرفة
مكتبه، وحتى هذه بات مشكوكاً في أنها صافية لي، فمن يدريني أن
يكون هذا المكتب مدججاً بأجهزة التنصت، ومن يضمن ألا يتم
تصوير هذا الخطاب الذي أكتبه لك الآن أيها الشعب، وقيام
هؤلاء الملاعين بقراءة كل كلمة أكتبها؟

ليكن، لم يعد يعني أن يقرأوا الخطاب أو لا يقرأوه، ليذهبوا إلى الجحيم جميعاً، هم والدول الكبرى، ولتذهب أنت أيضاً أيها الشعب إلى جحيم الجحيم، لتذهب غير مأسوف عليك، ولتصبك اللعنة من بعدي، ولتندم ما يحلو لك الندم، لكن وقتها، لو أتيتني، لو قبلت قدمي، فلن أستجيب لك، لن أنقذك هذه المرة، مهما استعظفتني، لن أقدم لك العون، وسأتركك للكلاب في الداخل والخارج لتأكلك وتنهش لحمك.

عليك اللعنة من شعب بارد، لا حمية لديك، ولا نبض حياة.

القائد المهيب

الرسالة السادسة

يا شعبي المعتل،

أنا الآن أكتب هذه الرسالة بعد أن وصلت إلى أقصى درجات اليأس، وبعد أن تيقنت أن انتظاراتي يمكن أن تمتد حتى نهاية العمر، ومع أني أعرفك جيداً، وأعرف مدى البلادة التي تتسم بها، وأعرف كذلك أن مسطحات المحيط الشمالي في فترة التجمد يمكن أن يكون بها ليونة، لن يوجد لديك مثلها، حتى لو عشت تحت سقف الشمس مباشرة، فإني لا زلت أمني النفس بالأمل، أقول، ربما أفاق الشعب يوماً، أدرك أن ملهمه في محنة، وأنه لا منجاة له منها إلا باندفاع جماهيري هائل يفك قيده، فمن يستطيع فعل ذلك سواك، أتظن أن "أم الوطن" تستطيع القيام بذلك، أو حتى فعل ما هو أقل منه؟ إنها امرأة سليطة اللسان فقط، كل ما تقدمه للبشرية لا يتعدى عبارات سوقية، وكل ما يشغل عقلها الخاوي لا يزيد عن تأمين مستقبل الابنة، الدنيا كلها تتوقف لديها عند حدود تلك البلهاء التي دفعني

لجعلها حاكمة على جزء من أجزاء وطن، لا تعرف أسماء شطائره،
كما أن أمها لا يعنيه من الأمر شيئاً، اللهم إلا كم هي الثروة
الموجودة والتي ستصبح حقاً مباحاً لها.

أم تراني أعتمد على الزوجات الأخريات، اللواتي تركن القصر،
وهربن إلى أماكن لم أتمكن بعد من معرفتها، ولا يزال المارشال اللعين
يقول لي إنه يواصل البحث عنهن.

هل تصدق - أيها الشعب - أن زعيمك الذي لم يكن يجد وقتاً
للسؤال عن أبنائه، بات الآن لا يعرف كيف يمكنه قطع الساعات
الطويلة؟ هل تعرف أي أحد صعوبة في إصدار أي أمر للسعاة، الكل
بدأ يتعامل معي مثل مجنون هارب لتوّه من مصحة أمراض عقلية،
أدرك تماماً أنهم يريدون إيصالي إلى تلك الدرجة التي أفقد فيها عقلي،
أن يربطوني إلى سرير يحيط به عشرات الحراس والمرضين، منعاً
لانفلات أعصابي، أو لمراقبة سلوكي الخطر، فما أهون هذه الدنيا،
تلك التي تحولت معي إلى كوميديا سوداء، من ذلك النوع الذي لا
يجلب سوى الضحكات البائسة، تلك التي إن أطلت، فإنها تأتي
بالدموع والأحزان، والبؤس.

والآن، أيها الشعب الخائب، هل تحولت مناشدتي لك إلى مجرد
بث للهموم، كلمات أكتبها لك كي أسري عن نفسي، أهكذا باتت
العلاقة بيننا؟ ألم أكن قد سئمت منك، من أن تقوم بأي عمل إيجابى
تجاهي؟ لقد بتّ مقتنعاً الآن وربما أكثر من أي وقت مضى، أن ليس
أمامي إلا اللجوء لك، إلا مخاطبتك، فمن لي غيرك الآن أتحدث له، وأنا
سئمت منك، إن غضبت وهاجمتك، فمن سوف يسمعي سواك، ومن
سوف أبثّه همومي، أشكو له انقلاب الزمن، بعد أن جعلني لعبة رديئة،
سخرية لدى الآخرين، من الأعداء والجيران؟

لا تغضب مني أيها الشعب، يجب أن تعذرني إن قسوت عليك، إنه عتب من يحبك، من قام بالثورة البيضاء لإنقاذك، ثم لم يجد منك إلا التقاعس، إلا الانتظار حتى يأكل الأعداء والخونة الأخضر واليابس، وعندها سوف تدرك أيها الشعب أن بقاءك على هذه الحال، في موقف المتفرج لن يجديك نفعاً، وسترى بأعينك أن الذين تركتهم يسرحون ويمرحون، أوصلوك إلى حافة الجحيم.

هل لي أن أنتظر، أن أتحملى بالأمل بعد كل تلك الأيام التي مضت دون أن ألمح في الأفق بصيص ضوء؟ هل لي أن أنتظر عاصفة لم يظهر لحيثها أية علامات؟ هل لي أن أكذب عيني؟ أن لا أصدق ما أعرف عنك، هل يمكن لشعب أن يتحول في أيام من اعتياد للحمول والكسل والتواكل إلى النشاط، ومتى؟... في خلال أيام معدودة؟ هل لي أن أتوهم أن شعباً مثلك يمكن أن تسري في دماثة فجأة حمية غضب، أو شهامة لنجدة مستغيث؟ هل التقاعس بعد أن يسري في الدماء مثل الوباء، يمكن أن ينتهي فجأة هكذا ودون مقدمات؟

أيها الشعب، أنا أشعر بياس طاغ منك، أنت هكذا، لا تسري حرارة لديك ولا يحزنون، لقد مللت منك بالفعل، لعنت اليوم الذي ابتليت فيه بك، سنوات طويلة، لم أشعر يوماً أني مثل الزعماء أحكم شعباً كبقية شعوب الأرض، أدخلت إلي أيها الشعب الخامل شعوراً بأن من يتبعوني ليسوا إلا هياكل بشرية غير قادرة إلا على الهتاف، وغير صالحة لغير خدمة من يحكمها، من يمتطي الدبابة أولاً، ويصل أسرع من غيره إلى قصر الرئاسة.

قررت إلغاء الأحزاب، فخرجت إلى الشوارع تكتف بحكمتي، منعت شرب المياه من الصنابير وقصرتها على الزجاجات المعبأة، فحمدت لي الحرس على صحة الشعب، منعت اللحوم الحمراء،

وحلّلت أكل البيضاء، طلبت من رجال الأعمال استردادها لصالح عائلتي، حظّرت معاشرة الأزواج بحجة المحافظة على الصحة، منعت معاقرة الفرّح وقاية للنفس، دفعت بالمطبلين لإقناعك بكل ما أردت، قذفت بك مثل الكرة ذات اليمين، وذات اليسار، ولم يصدر عنك احتجاج، قررت وضعك بجميع أفرادك وكائناتك، حشراتك والهواء الذي تنفس، في حضانة، منعت عنك الشمس والفضاء، القمر والنجوم، الرياح والأمطار، رؤية السماء والبحار، فخرجت المظاهرات تدعو لي بطول البقاء، وتشيد بحكمة لا يمتلكها سواي، فأبي شعب أنت، ومن أي طينة صنعت، وأية مصيبة تلك التي بليت بها حين ألقى بي حظ عاثر لأكون لك زعيماً؟

والآن بعد أن وصلت إلى درجة يأس ليس بعدها درجات، وبعد أن انتظرت كل تلك الأيام دون فائدة، سوف أستسلم لقدري، سوف أعلن خلاصة ما خرجت به بعد تفكير فيك، وإعطاء مهلة وراء أخرى لك.

أيها الشعب لقد قررت أن أشتبك في كل وقت، أنت والمارشال والدول الكبرى وكل الطامعين في الوصول إلى هذا الكرسي، لكن الآن ليس لديّ من رغبة إلا أن أعيش في هدوء، وحيداً بعد أن انفضّ من حولي كل الذين كانوا يتمسحون بطرف حذائي، كل الذين كنت لهم ذات يوم ملهماً ومبعوثاً من الأقدار، كل الذين قفزوا فوق أكتافي ليحققوا طموحاتهم، كل الذين أوهموني أنك أيها الشعب مستعد في كل وقت لتلبية ندائاتي، للدفاع عني بالروح والدماء.

أيها الشعب إني أشعر بغصة منك، لقد خذلتني، وما خذلت إلا نفسك، فلتستحقّ الرجم من أعدائك، ومني اللعنة.

الزعيم الملهم

(2)

ظلّ الزعيم على حاله، كلما ضاقت به الحياة لا يجد من يخاطبه سوى الشعب، تخلّت الدنيا بجميع كائناتها عنه، ولم يبق من شيء أمامه إلا رسائل، عادةً ما يكتبها في الصباح، يتبعها بتدوين اعتذار عن كل ما ورد فيها، قبل أن يتخلّى عن الأمر في النهاية، يضع الأوراق جميعها المحشوة بترهاته في آلة كهربائية، تتكفل بإحالة الدرر إلى فتات، يحدث ذلك في العادة قبل لحظات من مغادرة مكتبه الرئاسي متجهاً إلى سرير في الغرفة المتسعة التي لم تعد تتواجد فيها "أم الوطن" ولا الأبناء.

لم يعد هناك من عمل يشغله سوى كتابة الخطابات، فحتى القصص والأشعار التي كانت تكتب له، توقفت بعد أن منع عنه التواصل. بمن تمّ توظيفهم لهذا الغرض، لم يعد مسموحاً لا للمفكرين ولا للأدباء باجتياز الممر الطويل المؤدي إلى مكتب كانت تدار منه قبل فترة قصيرة شؤون وطن بأكمله، بات الزعيم وحيداً مقهوراً، يستذكر أبحاده الغابرة، سطوته التي بلغت حدّ الافتراء، ويعاقر حمراً أدمنه، منذ أن حبطت آماله وبات في نظر نفسه والذين يعج بهم القصر الرئاسي أسيراً.

وعلى حين غرة، خفت الحديث عن الكتاب الذي قيل للشعب إنه يضم أفكاره، والذي فرضه على المدارس والمصانع، حلقات الدروس الدينية ومراكز الرياضة، وخصصت له دورات بالبحان، لتثقيف الشعب بفكر قائده، كانت درجة حفظه هي معيار الثوري المخلص من الزائف، لدرجة أن الآباء كانوا يتبارون في وضع كتاب الزعيم مغلفاً إلى جوار أسرة الحوامل في لحظات الولادة، كي يخرج الرضيع إلى الحياة مباركاً، ثائراً نقياً، ومخلصاً لرمز الوطن.

توقف الحديث عن الكتاب، وسرعان ما بدا المدرسون غير آبهين بتعليم الأبناء دروساً عنه، وانصرفت الهيئات التعليمية عنه، بعد أن لامست عزوفاً من أجهزة الدولة عن المتابعة، حتى الزعيم نفسه نسي الأمر في محبسه الناعم، فهو في الأصل لم يفكر في عمل كهذا، قبل أن يأتي إليه الذين يجيدون تلوين ولواءهم، في عز سطوته، ليوهموه بأنه مثقف لا يشق له غبار، وشاعر وروائي، وموجه عبقرى، صنعوا له وهماً فصدق، سايرهم في غيهم، واثقاً من أن أحداً لن يخرج في يوم من الأيام ليعترض، أو ليشكك في أن شعراً رقيقاً، فكراً ثاقباً، يمكن أن يصدر من عقلية فظة، مقتحمة، خشنة.

وضعه على كل المنصات، فهو أبو العلم، والفن، الرياضة، والإعلام، حتى زوجته لم تعد أماً لكائن، بل أم الوطن بأكمله، بعلمائه وكتابه وفنائه ورياضيه، ومشلوليه.

تعددت الألقاب التي لم يجهد الزعيم نفسه في الحصول عليها، فهو العالم الأول والفنان الأول والرياضي الأول والإعلامي الأول، والشاعر الأول، والنسر الأول، والوسيم الأول، الفحل الأول، رجل الإيمان، وقائد الجيوش، ومحطم القلوب، ومفجر الطاقات.

ألقاب تطلق في أي وقت وكل لحظة، وشعب تحت الطلب، على أهبة الاستعداد للتهافت لأي شيء، وأي حاكم، كلما كان هناك ضرورة لإنعاش الزعيم، وإرضاء الحاشية، وإضحاك من يراقب في الدول الأخرى.

ها هو في نهاية المطاف، يقعد محطماً، كسير القلب، يفكر في فصل إلى نتيجة تخبره أن شعباً كهذا جاء نتيجة لما جنته يده، حصاد جناه من قبل كل حاكم ظل هدفه يصب في اتجاهات عدة تؤدي إلى نتيجة

واحدة: استئناس الشعب، إدخاله إلى بيت الطاعة، تقليد أظافره، قصّ الريش عن أجنحته، وإيهامه أن ذلك هو المقياس الحضاري على حسن السلوك.

في صباحاته، راح يستهل يومه بالتوجه إلى الشرفة، على الرغم من دخوله في حالة يأس آخذة في التزايد، مستنقراً حواسه، علّها تلتقط ما ينتظر في لحظة وقوعه، يمد أصابعه إلى مذياع ملقى فوق ركن بعيد داخل مكتبة، تقبع إلى جواره، دون أن يقرأ من الكتب المتراسة فوقها حرفاً، يدرك أن الأتربة زحفت إليها، منذ توقف الخدم عن تنظيفها، بعد أيام انضمام المكتب، والكرسي الرئاسي، فالحفرة بأكملها إلى قائمة الأماكن المهجورة.

أطلق الزعيم صراخاً، استدعى به المارشال، تعلّل الأخير بالانشغال مرات، ثم أتى في بعضها، يتظاهر بكتابة أمر عقاب ضد من أهملوا تنظيف مكتب الرئاسة، يتم استدراك الأمر في الأيام القليلة التالية، لكنه سرعان ما يعود إلى ما كان عليه، شيئاً فشيئاً يتراكم تراب المكتب الرئاسي، ما أن يمر الزعيم فوقه حتى تترك أقدامه آثارها، تتسخ ملابسه إن جلس على كرسي الحكم، يصرخ، يستجيبون مرة ويتناسون مرات، يأمرهم فيتظاهرون بالطاعة، يشتمهم فيكتمون الضحك، لم يعد من عمل له إلا سبّ السعاة والموظفين والمارشال، بمرور الأيام أصبح التراب ملازماً للمكتب الرئاسي، بات الملهم متسخاً، وهو لا يزال في منصبه، حتى وهم بين الحين والآخر يقومون باستدعائه ليمثل أمام الآخرين دور الزعيم.

كان مقصوداً، أن يصاب بالانهيار، دون أن يموت، منع عنه استقبال أي إنسان، كانت إدارة القصر الرئاسي تتعلل في كل مرة بأن الزعيم يمر بحالة صحية تستدعي الراحة، يقولون في كل مرة

حججاً ومبررات لا تتكرر، غير أنها في النهاية تصبّ في صالح الخطوة المرسومة لإيصاله إلى حافة الجنون.

تحوّل المكتب الرئاسي إلى مزبلة حقيقية، باتت الروائح تزكم الأنوف، حتى أن الزعيم بعد أن أصابه اليأس، قرّر الاعتكاف في جناحه، وعدم الخروج لتمثيل دوره اليومي، وهو ما أزعج المارشال، حين تزامن الاعتكاف مع اقتراب واحدة من المناسبات الوطنية المهمة، التي سيكون من الضروري إظهاره فيها وهو يستقبل حشود المسؤولين المهتة، وعلى الفور استدعى الحاشية، أمرهم بإعادة الزعيم من جديد إلى مكانه، أكد أنه لن يكون من المصلحة العامة، ولا من مصلحة النظام أن يكتشف أحد أنه بات كما مهملاً، للدرجة التي لا يجد فيها من يقوم بتنظيف غرفة مكتبه، دعاهم إلى اتخاذ أقصى درجات الحذر، بحيث لا يطغى الإهمال الشديد على الدرجة المطلوبة من التعامل بذكاء مع المهيب، وتثبيت الوضع الذي هو عليه الآن، إلى أطول فترة ممكنة، حتى تنهيا البلاد لوصول البديل إلى سدة الحكم، وبعد أن تنضج الأجواء الإقليمية والدولية لاستقبال الحدث الكبير.

لكن الأيام مرّت بين اعتصامات صغيرة راح ينفذها الزعيم، للفت الانتباه، وإظهار الغضب من تجاهل يقابل به، وبين إصرار من المارشال على أن لا تصل الأمور إلى درجة التأزم، وتصبح الأوضاع خارج السيطرة، وهو الأمر الذي سيحلب غضباً من دول تقتضي مصالحها بقاء الأوضاع تحت السيطرة.

سخاء المارشال شمل أقارب الزعيم، أغدق الهدايا الثمينة على "أم الوطن" فصمتت عن الكلام، ورأت في استمرار السكوت خيراً لها من البقاء تحت رحمة زعيم أهوج، شديد البخل، أغلقت فمها فلم

تنطق باحتجاج، واكتفت في النهاية باللعب على وتر يلين كلما داعبه بريق الأحجار الكريمة.

(3)

شاع خبر الإهانة التي يتعرض لها الزعيم، انتشرت الأقاويل، مصحوبة بمكايات، لم تكن لتمر يوماً على الخاطر، خصوصاً مع زعيم تمّ تضخيم صفاته، حتى تحوّل في نظر بعض مواطني الدول المجاورة كائناً خرافياً، وحاكماً يحسدون عليه شعبه، تنادي حكام الدول المجاورة إلى عقد اجتماعات مكثفة، لتفعيل الاتفاق السري القاضي بالحفاظ على استمرار الأنظمة التي هبطت كقدر، في اجتماعاتهم التي تعقد في العادة تحت شعار "حماية مصالح الشعوب الشقيقة"، والتي دائماً ما تؤكد في بياناتها الختامية على زيادة اللحمة، ودفع التنمية والازدهار والخير إلى ربوع الدول ذات الحلم الواحد والكوابيس المتعددة، فيما المهدف غير المعلن يصب في زيادة التنسيق الأمني، واتخاذ التدابير اللازمة لمنع اهتزاز الكراسي في أي دولة، والوقوف بقوة ضد كل محاولة للإطاحة بأي نظام منها، ومقاومة الأطماع لدى القوى المناوئة، وإجهاض أي مسعى للمتربصين، الساعين لهزّ ثقة المواطنين في آبائهم الأفذاذ.

كان الأمر الأخطر في الاتفاقات التي تصدر عن تلك الاجتماعات الرئاسية، يتمثل في قناعة تامة بأن هناك ضرورة ماسة لتوريث حكم الأوطان القاصرة، على اعتبار أن شعوباً ابتلي بما قادتها، غير قادرة على تحمل مسؤولية حكم نفسها، وأنها تحتاج بين وقت وآخر إلى من يشد اللحام على فم من ينطق بعبارات خارجة عن السياق، وأن تضرب بيد من حديد على يد من تسوّّل له نفسه العبث باستقرار الأوطان.

تلك بنود كانت في العادة تحظى بإجماع تام، من قادة لديهم قناعة لا تتغير، بأنه على الرغم من تفاني الشعوب في رفع الشعارات والهتاف في كل مناسبة، فإن شعوبهم قاصرة، وبحاجة مستمرة إلى رعاية من زعماء المرحلة.

وتفعيلاً للمواد المعلنة والسرية، توافد الزعماء إلى قمة عاجلة لبحث الأمر، بعدما تزايدت الشائعات، وتواصلت النكات، حول الأوضاع الجديدة لوطن الحضانة، اعتبروا أن ما يتوارد من أخبار لا يصب في صالح أنظمة الحكم، وأنها ستساهم وإن بعد وقت في دفع الأمور إلى حالة من عدم الاستقرار في تلك الدول، واحدة بعد الأخرى، كما أن الشائعات والنكات التي يتم تداولها والتي يتم من خلالها السخرية بأحد الحكام، والحال المزرية التي وصل أمره، سوف تفتح شهية الشعوب، وهو ما قد ينهي ولو بعد حين ما اعتادوا عليه من توقير، ويقطع الطريق في النهاية على الخطة الخاصة بتهيئة الظروف لتوريث حكم المقاطعات المسماة أوطاناً للأبناء الأعزاء، وأبناء الأبناء ثم بقية العائلة.

في بداية الاجتماع، وصف حاكم الدولة المستضيفة، الزعيم بأنه أهوج، وأن تصرفاته الحمقاء كانت وراء ما آلت إليه الأمور، صبّ جام الغضب عليه، وأعاد هجوماً ضد انفراده بالرأي وعدم اعتماده التنسيق مع زعماء الدول المجاورة وسماع النصائح منهم، اعتبروا أنه المسؤول الأول عن النتائج الكارثية لعزل بلده عن جوارها، وتجميد جميع أنواع العلاقات مع الجميع، لأجل إتمام مشروع الحضانة، أكد أن هذا الانفراد كان وراء المصائب التي حدثت فيما بعد، ثم كانت موافقته على كل الشروط التي أُمليت عليه من الدول الكبرى ورضوخه التام لطلباتها، متناسياً جمععاته القديمة، وتمجّماته بمناسبة وبدونها عليها.

نبّه زعيم الدولة المستضيفة النظراء في هذا الاجتماع السري إلى أنه مهما حدث، وأياً كان الرأي فيما فعله الزعيم المارق، ومهما كان الموقف مما جرى له، فإن الأمر سواء أصدقت الشائعات أم كذبت، فإن الأمر خطير، ويفتح الباب أمام إسقاط هيبة الزعماء، وداعياً إلى عدم ترك الحبل على الجرار لشعوب متخلفة بليدة ليهاجم الرعاع زعماءهم، وتضمحل الحالة الكبرى التي استطاعوا بجهد هائل إحاطة أنفسهم بها.

وافق معظم من تناوبوا في إلقاء الخطب، على ضرورة التفاوض عن خلافهم مع الزعيم، من المهم أن يوضع جانباً في تلك المرحلة، وأن يتجه النظر للمصلحة العليا المشتركة، تلك التي تتطلب تجاوزاً لما نال كل حاكم من بذاءات لسان الزعيم، ومن غروره ومكابراته وحتى من جمعجات كان يطلقها في العادة في كل مؤتمر اجتمعوا فيها، حين ينبري في كل مرة لمهاجمة الاستعمار وأعوانه، واصفاً نظرائه بالجنباء المتخاذلين الذين ترتعد فرائصهم منه، قبل أن يسبقهم جميعاً ويكون هو ذاته أول المنبطحين، فيقدّم الوطن على طبق من فضة، ويفتح أبواب بلاده على مصراعيها، ويتحول في لحظة واحدة، بعد كل هذا التراث من العنتريات إلى أرنب بائس، يتسول الحماية لنفسه.

جاء الاتفاق بالإجماع: "التحرك العاجل لمنع الأحداث من أن تصل إلى النقطة الحرجة، وأن يتم ذلك وفق خطين متوازيين، الأول لدى الدول الكبرى، للاتفاق على إبقاء النظام الحاكم في وطن الزعيم قائماً، وأن يتم توفير الضمانات المناسبة له، حتى ولو بالحفاظ على الشكل، وأن يتم مساومة تلك الدول على ذلك، والتحرك الآخر يعني بإنشاء جهاز مشترك لرصد الشائعات والنكات وجميع

أشكال السخرية من أي حاكم، ومحاولة وأد الفتنة في مهدها، قبل أن تتفاقم ويتحول معها الملهمون، المهابون، حماة الحمى، والآباء الحنونون، إلى علكة في الأفواه، تؤدي مع اعتيادها إلى تحريض أبناء الشعب على الثورة، وتغيير الوضع القائم بأي طريقة".

أيقنوا أن الأمر بات يحمل نذر الخطر، على الرغم من أنهم في قرارة أنفسهم كانوا يحملون كراهية لا حدود لها للزعيم، ينعون به بأسوأ الصفات في اجتماعاتهم التي لم يكن يحضرها، لكن الكراهية شيء، والنظر إلى ما هو أبعد من نجاح حاشية الحاكم في تحجيمه، ثم الإطاحة به فيما بعد، وإنهاء أول مشروع جريء في المنطقة لتوريث الزعامة شيء آخر، يجب التكاتف لمنع تحققه، وأن يكون نموذجاً يتم الأخذ به فيما بعد.

انطلقت الوفود التي شكلها الاجتماع إلى الدول المعنية، ذهبوا لمن بيدها الحل والربط، الدولة الكبيرة، قبل التوجه إلى دولة الزعيم لرؤية الأوضاع على الطبيعة، والالتقاء به على حدة.

لم يكن الأمر سهلاً، فالدولة الكبيرة، لم تعد ترى فيه شخصاً جديراً بالثقة، حتى بعد أن أصبح مهبط الجناح، لا يملك لنفسه حولاً ولا قوة، حتى بعد أن باتت بلاده مختربة من كافة جوانبها، وعلى الرغم من انكساره، ظلت غير مستعدة ولو من الناحية النفسية لنسيان الإهانات والشتائم التي كان يصبها عليها أيام مجده، ظلت بعد أن تحول من زعيم لديه مشاريع يسعى لإنجازها، حتى ولو كانت أقرب إلى الجنون، إلى حاكم لا يملك القدرة على تعديل موضع كرسي الحكم داخل مكتبه دون الاستئذان من سفيرها القابع على بعد خطوات، لا يزال لديها هاجس الانتقام، السعي لإذلاله، وتحويله إلى عبرة لكل من يجرؤ على التفكير في تقليده يوماً.

من هنا جاءت مصاعب واجهها الوفد خلال جولة أخذته فيما بعد إلى دول حليفة للدولة الأكبر كانت على الرغم من بعد المسافة، والصراعات القديمة على مناطق النفوذ، وبرغم حروب طاحنة اندلعت بينها قبل عقود، فإن القرارات كانت تتم وفق تنسيق تام، لتصب في النهاية في هدف واحد، يتعارض بشكل كامل مع مصالح دول المنطقة، تلك التي جاء منها الوفد، مدفوعاً ببعض الأمل.

غير أن أعضاء الوفد في النهاية، وعلى الرغم من الصعوبة الشديدة التي واجهتهم، تمكنوا من التوصل إلى اتفاق يقضي بعدم معارضة الإبقاء على الوضع الحالي، بحيث يظل الزعيم في مكانه، زعيماً شكلياً، ليس له من الأمر سوى اللقب والمظهر الخارجي، وأن يستمر ذلك حتى انتقاله إلى العالم الآخر بشكل طبيعي وأن يتم تشييعه، في جنازة مهيبة تليق بالزعماء، على أن يتم انتقال الحكم بشكل تدريجي هادئ إلى أكبر الأبناء سناً، مع ضمان تولي الأبناء الآخرين مناصب مرموقة في الدولة.

كان المقابل لذلك، أن تشكل دول المنطقة فيما بينها تحالفاً، يتولى بالنيابة عن الدول الكبرى حماية مصالحها، دون الحاجة إلى تحميل نفسها عبء التواجد في مقرات رئيسية لقيادة العمليات.

لاقى الاتفاق صدى طيباً لدى دول اطمأنت على حصتها من الغنيمة، لكن المشكلة حدثت مع الوفد عندما توجه إلى دولة الزعيم، إذ واجهته محاولات تسويق، عندما طلب مقابلة الرجل الذي كان يوماً، صاحب الكلمة الوحيدة، والذي أصبح منزوياً في ركن تنقل مساحته بمرور الأيام، وبنفس الدرجة التي كان يضمحل فيها جسده، وتنتزع صلاحياته قطعة بعد أخرى.

سعى أعضاء الوفد بإلحاح لمقابلة الزعيم، لكنهم في النهاية، غصوا النظر، بعد مرور أيام، واجهتهم فيها العديد من الحجج، بدأت بالقول إنه مريض، وإن الأطباء منعوا زيارته، وانتهت بزعم أن جدول لقاءاته مزدحم، وأنه يفضل أن تتم المقابلة في أوقات لاحقة، ثم إبلاغهم في النهاية، بأن الزعيم يرفض الاستجابة لرغبتهم.

عاد الوفد من حيث جاء، تواصلت المشاورات مرة أخرى، وتمّ استعراض المعلومات التي حملها العائدون، سرى ارتياح لدى حكام المنطقة، بعد ما علموا بالوعد الذي قطعتة الدولة الأهم، للحفاظ على الأوضاع القائمة ما دام الأمر يصب في صالح العلاقات المشتركة، وتعهدها بعدم إبداء أي معارضة لانتقال السلطة بسلاسة إلى الأنجال، حتى ولو تعارض ذلك مع شعارات أخذت في الآونة الأخيرة ترفعها عن التعددية والإصلاح السياسي وتبادل السلطة، فالتقرير الذي كتبه الوفد العائد، ولخص فيه أهم ما دار مع كبار مسؤولي السياسة الخارجية هناك، أكد أنه ما دام المبدأ قد تمّ الاتفاق عليه، فإن مسألة تخريج الأمر ووضعه في الشكل الذي لا يتعارض مع الشعارات، لن يواجه أية تعقيدات، فما أسهل أن يتم تشكيل برلمان صوري يأتي أعضاؤه وفق اقتراح بانتخابات مضمونة النتائج، ويقوم فيها أعضاء "سيد قراراته" بترشيح أحد أبناء الزعيم، ثم تجري انتخابات من تلك التي تكون في العادة تحت السيطرة، ليتم من خلال الرغبة الشعبية، إجلاس "المحروس" على مقعد الحكم، كي يواصل تمثيل دوره في الفيلم الذي تشاهده شعوب الدول النائمة في العادة، وتصفق لأبطاله.

اطمأنّت الدول المجاورة للتعهد، وأخذت تستعد هي الأخرى للعب دور الحامي لمصالح الكبار، فما العيب في أن تكون هناك مصالح مشتركة، وأن يتم تسخير إمكانات البلاد ذات الأنظمة الثورية التي لا

يحكمها في العادة إلا مفكرون وثوار وزعماء ملهمون، لحماية مصالح دول سوف تضمن للهابطين إلى الحكم بالمظلات البقاء فوق الكراسي خالدين؟ ما العيب في أن يكون رعاة الديمقراطية والإصلاح والعدالة والمساواة، صِدرًا حنونًا للطغاة، وللفساد والرشوة، ما دام الأمر سوف يصب في النهاية في استقرار الأوطان وضمان أمنها؟

قرر الزعماء الاستماع إلى صوت العقل، وعدم إعطاء أهمية لحناجر ناشزة تخرج بين الحين والآخر مشككة في النوايا، ورافعة لشعارات ساذجة، تريد العودة بالبلاد إلى الوراء.

وللمرة الثانية، خلال فترة قصيرة، تناسى الحكام خلافاتهم، والالتزامات التي أطلقوها ضد بعضهم، بالانحراف عن الخط الثوري، بخيانة القضية الرئيسية، ومهادنة الطامع الأجنبي، تناسوا الشعارات التي أصابوا شعوبهم بصداع مزمن وهم يطلقونها، وواصلوا اجتماعات التنسيق، انتقلوا من دولة إلى أخرى بين المآدب الفخمة والقصور الثورية المنيع، بات الهدف هذه المرة موحداً، الولايم والألعاب وتبادل الأنخاب، والسباحة وركوب الخيل ولعب الإسكواش والبريدج، أعمالاً تساهم في زيادة أواصر الأخوة، وتمتين العرى الوثيقة والتعاون المشترك.

(4)

في هذا الوقت، كان وطن الحضانة قد تحول بالتدريج إلى ثكنة عسكرية، إذ أخذت الدول الكبرى الأمر بالتدريج، بدأت بتوسعة القواعد الموجودة، واستحداث حصون جديدة، لحماية البلاد من الطامعين الذين لم يعرف أحد من الشعب من يكونون هذه المرة؟ ثم تسارعت بوصول قادمين منها، شكّلوا نواة سرعان ما تحولت بمرور الأيام إلى جالية ضخمة، استحدثت لأجلها أحياء راقية، مزودة

بأحدث وسائل المعيشة والراحة والاستجمام، حتى بات ما يجري مصدر دهشة لأبناء الوطن الأصليين، لكن الأمر سرعان ما تم توسعته، إذ بتوالي وصول رعايا الدول الكبرى في العالم إلى وطن الحضانة السابق، أخذت أحياء جديدة تنشأ لتستوعب الأعداد المتزايدة، وفي شهور قليلة كانت هناك مناطق منفصلة اقترب عددها من تلك التي يسكنها المواطنون، شكلت بتكاثرها اللافت مدناً كبيرة، وبعد وقت ليس طويلاً، تحولت المدن إلى ما يشبه نواة لدولة من الأجانب داخل قلب الوطن الأم.

بات الكيان مهدداً بالضياغ، لم تكن الخطورة منظورة على المدى الأقرب، في ظل افتقاد الوطن من بين رجالته لمن يمكن أن تديه البصيرة إلى التنبؤ بما قد تحبته الأيام.

وعلى الرغم من الزيادة الهائلة في أعداد بشر ظلت الطائرات تحط بهم في مطار الدولة، وامتلاء الشوارع والطرق وأسواق البلاد بأصحاب الملامح المغايرة، إلا أن صوتاً لم يرتفع للاحتجاج، ولم تصدر كلمة لوقف النمو السرطاني، لا من الشعب الذي استوصلت منه القدرة على إبداء الاستياء، ولا من الزعيم الذي لم يكن يدرك أصلاً ما يدور حوالبه، ولا من حاشية زرعت في الأصل، كي توافق للموافقة على أي قرار يتخذ باسم الوطن في أروقة عواصم الدول الأخرى.

كان السلاح الوحيد الذي يواجه به الشعب هذا التغلغل في كيانه، هو التجمع في الشوارع لمشاهدة القادمين الجدد، والنظر بالدهشة المطلوبة إلى الأقراط التي تتدلى من آذان فتيانهم، والوشم الذي احتل عضلات أذرعهم، وارتسم على بطون الفتيات.

أما الوطن الذي يقلص، البشر الذين يتحولون بالتدرج إلى أقلية، السيادة التي خرجت من ثقب آخر جدار في الحضانة، فإنها لم

تلفت إليها انتباهه، كان وطناً مغيباً، وشعب زاحراً بيؤس يكفي ليوزّع منه على شعوب العالم بالقسطاس، فيفيض.

لم يمض وقت طويل، حتى كان الشعب الذي أراد الزعيم تجهيزه ليصبح به إسكندراً جديداً، قد اعتاد ما يرى، تعايش مع الواقع، حتى أن ما يجري أصبح أمراً طبيعياً لا يستحق حتى إبداء الدهشة، وهو الأمر الذي شجّع الدول الكبرى، على إعادة تنظيم الدولة، ليكون لكل واحدة منها دولتها الصغيرة، ملحق للدولة الأم، اندفعت الأطماع إلى ذروتها مع نجاح التجربة، إذ سرعان ما أصبح للعديد من الدول صاحبة القرارات الرئيسية مدن متكاملة، هي في النهاية نماذج مصغرة من بلاد الوافدين، باتت الدولة الأكبر توزع الغنائم على حليفاتها، من الأراضي والموارد والامتيازات، وفقاً لدرجة الانصياع، ولمدى التعاون في المحافل، وفي إبداء أقصى درجة من الاستعداد للدفاع عن المصالح المشتركة.

لكن الخطر في ما بعد، كان في درجة المطالب التي أخذت تتزايد، والتي كان من مهام المارشال صياغتها، وتقديمها للزعيم، مؤهلاً النفس للدخول معه في جدل يومي طويل، ينتهي في العادة بالتوقيع، دون زيادة ولا نقصان، ضارباً النموذج الفاضح للثوري المتقاعد، المناهض للاستعمار، وسيطرة الأجنبى على مقدرات الشعوب، الداعي إلى تحطيم القيود، ومطاردة الاحتلال في أي مكان، والمحرّض لشعوب العالم على امتلاك زمامها، وعدم التفريط في ثرواتها للمستغلين، والطامعين، دون أن يدرك أنه يسلم وطنه ومقدراته بمتتهى اليسر، ما دام الأمر مستتباً، وما دامت تلك التوقعات تتم وهو جالس على الكرسي الذي تقول له قرون استشعاره، إن من حوله يطمحون للاستيلاء عليه، وأن البطولة العظمى تكمن في القدرة على منع هؤلاء الأوغاد من الحصول عليه.

ومع أن الأمر بات يسبب قلقاً عارماً لدى حكومات الدول المجاورة، إلا أن ذلك لم يكن ليدفعهم إلى عقد اجتماع عاجل، ما دام ما يجري داخل حدود دولة أخرى، عليهم فقط الاندفاع للتنسيق فيما يمكن اتخاذه، عند وصول الخطر إلى بلدانهم، لكنهم في الوقت نفسه كانوا على قناعة بأنه لم يعد في مقدورهم فعل الكثير لوقف أي سيناريو مماثل إذا تعرضت دولهم له، فما دامت الدول الكبرى وضعت قواعد عسكرية وبشرية لها في إحدى الدول المجاورة، فإن أمر منع امتداد الحدث إلى داخل حدودهم بات من المستحيلات، وأن عليهم في كل الأحوال أن يعتمدوا على كلمة شرف وعدوا بما للحفاظ على بقاء ملكهم، وتوريثه فيما بعد، وأن من الأفضل لهم في هذه الحالة أن يقوموا بتقديم كل ما يمكن له أن يخدم مصالح الدولة الكبرى، حتى وإن كانوا يدركون في النهاية أنها وصلت إلى أحشاء المنطقة، وباتت متواجدة، مسيطرة ومهيمنة.

لم يعد أمام أنظمة تحجرت إلا التشبث بآخر ما لديها من آمال، شرط أن تسمح لها الدول الكبرى بذلك، وهو ما لا يمكن أن يصبح مقنعاً إلا إذا استطاعت في النهاية حشد الجماهير له، ودفعها إلى الانطلاق في الميادين حاملة صور الزعماء الملهمين، بما يعطي الانطباع لصناع القرار في الدول الكبرى، أن هؤلاء الزعماء لا يزالون ممسكين بخيوط الجماهير.

عندئذ قرروا إعادة التنسيق لإخراج مظاهرات حاشدة يكون الهدف الوحيد من ورائها تجديد البيعة، وإطلاق الهتافات التي تشف آذانهم، والتي تمنح الأرواح والدماء المجانية لافتداء الزعماء، حتى يحين الوقت، وتنقلب الأحوال إلى ضدها، فيتردد نفس الهتاف، وب نفس درجة الحماس، لافتداء الآخرين الصاعدين.

لم يستغرق الأمر وقتاً حتى كانت المظاهرات تعمّ الميادين في الدول المجاورة، ومع أن المشاركين الذين خرجوا فور صدور الأوامر لهم، لم يدركوا بالتحديد السبب الملحّ، ولا عرف المراقبون والمحللون السياسيون ما يدعو إلى إطلاق الحشود، إلا أن تلك الأمور في النهاية كانت معتادة في مثل هكذا دول، تضع أنظمتها شروط الوفاء في السرائر والهتاف في الميادين العامة ورفع اللافتات المؤيدة، كخطوات أساسية للتوظيف والتعليم والانخراط في المجتمع، والبقاء على قيد الحياة.

كانت تلك رسالة معتادة، لكنها لم تكن لتصل هذه المرة بنفس الدرجة التي كانت عليها سابقاً، ربما لأن الدول الكبرى فهمت اللعبة، فالمظاهرات لا تحتاج في العالم الثالث لأكثر من إشارة، كلمة من مسؤول، سرعان ما ينطلق في أعقابها الهتافون إلى الشوارع، يفتدون بالروح والدم، وما دام الأمر كذلك فليس هناك من ضرر إن بات التظاهر عملاً يومياً لأوطان لا تعرف من التنمية إلا زيادة أرصدة الزعماء، ولا تعرف من الأمن إلا حمايتهم والسهر على أمانيهم، ولديها قدرة عجيبة على التضحية بالحاضر وانتظار المستقبل الذي عادةً ما يقول عنه كل نظام أنه سيكون مشرقاً.

بات أمر امتداد الأحداث العاصفة التي شهدتها وطن الزعيم إلى الدول المجاورة مسألة وقت، فكل الدلائل تشير إلى أن الصلاحيات الواسعة، التي كان يحكم تلك الدول منحوها لأنفسهم وعائلاتهم، باتت موضع تساؤلات لدى صنّاع القرار في الدول الكبرى، إذ لم يكن هناك من سبب يدفع مثل تلك الدول لإبقاء الرهان على حكام باتوا أكثر بعداً عن نبض الشارع.

راح الحكام يواصلون الاجتماعات، يتدبرون طريقة للتعامل مع تطورات متوقعة، ستشهد هذه المرة تهديداً مباشراً لسلطانهم، بفرائض

مرتعدة واصلوا النهار بالليل، إذ أدركوا أن فرص المناورة أصبحت ضئيلة، وليس أمامهم إلا تقديم المزيد من عروض الخدمات للدول المهيمنة، وإلا فالنتيجة هي الإطاحة بعروش غامروا يوماً لا اختطافها.

في تلك الأثناء، كان الزعيم في دنيا أخرى، بعدما تخلّى عنه الجميع، ولم يعد لديه من مهمة إلا إضفاء الشكل الرسمي على القرارات التي تتخذ باسمه، دون أن يكون من حقه الاستفسار عن سبب إصدارها، انحصرت كل مهماته الرئاسية في جرة القلم التي يضعها في مكان محدد له مسبقاً.

هبط من مكتبه الرئاسي، انطلق إلى الحديقة غير أنه وجد حارسه اللذين كانا في العادة طوع بنانه، يقفان سداً مانعاً، رفضاً السماح له بالوصول إلى مكانه الأثير، لم يعد بإمكانه إلا السير في طريق واحد داخل القصر، يقوده من غرفة نوم يقبع فيها وحيداً إلى مكتبه، في بداية العمل الرسمي ونهايته، دون أن تصعد إلى ذهنه فكرة مفاجئة، تحضّه على التوجه إلى أي مكان آخر.

ضاق بالقيود، إذ رأى أن الخناق يزداد إحكاماً، وتنقلص مع مطلع كل نهار المساحة المسموح له التحرك في إطارها.

قرر عدم التوقيع على القرارات الرئاسية، لكن ذلك استدعى رداً حاسماً، ليس من المارشال هذه المرة، ولا من موظفي القصر الكبار، تدخل السفير، أوعز للسكرتير الخاص بالاتصال بالزعيم وإبلاغه بضرورة عدم التمرد مرة أخرى، تذكيره بأنه بات مجرد موظف بدرجة رئيس، وأن الإبقاء عليه مرهون بمواصلته التوقيع على القرارات، من دون إبداء نقاش، ولا محاولة معرفة ما يدفع لإصدارها. كانت اللهجة التي أوصل بها سكرتير السفير الرسالة جارحة، بلغت من شدة إهانتها، أن الزعيم الذي بات شبيهاً، شعر بصدمة من

تلقى صفة قاسية، غير أن غضبته هذه المرة، ولا حتى في المرات القادمة سوف تنفعه، لن تساهم في الثام جرح آخذ في نزيف، ولن توقفه مباح أمهر الجراحين.

منذ تلك اللحظة راح يعاني نوبات اكتئاب، إذ تكاثرت صور الإذلال عليه، بات يدرك أن ما يجري له يستهدف إيصاله إلى الشعور بأقصى درجات المهانة، ها هم ينتقمون منه، بأيدي عملائهم، لأنه فكّر ذات مرة أن ينفرد وحده بالوطن، أن يبينه وفق طريقته، يفكر يوماً في بناء إمبراطورية تتسع لطموحاته، حتى وإن كانت تلك الأحلام في داخلها، محشوة بالسذاجة، وحافلة بكل ما يمكن أن تنزله التركيبة المستبدة بشعوبها، بعد أن تنجح في تحويل أفرادها إلى قطع.

ليس المهم أن التجربة كانت تحمل في داخلها عوامل انهيارها، ما يحولها من مشروع إعادة صياغة وطن إلى كارثة عارمة، بل إن العقاب يجب أن يكون على مجرد التفكير في الأمر، على اقتراف النوايا، وبما يبعث برسالة إلى الآخرين تحذرهم من مغبة أي تفكير يكون خارجاً عن السياق، أن يتم الاندفاع إليه قبل الحصول على إذن من الدول الكبرى، فليس للأحلام أن تتواصل، أو للعقول بأن ترتكب جريمة التفكير، دون ترخيص أممي.

ومع أن الشائعات انطلقت ترددت في كل مكان عن الوضع الذي بات عليه المهيب في نهاية المطاف، إلا أن أحداً لم يكن لديه تأكيداً بأن ما يشاع هو الحقيقة، وكان الجميع على يقين من أن سطوة الرجل لم تعد كالسابق، وأن الظهور الطاووسي الذي كان يطل فيه من شاشة التلفزيون الوطني قد تقلصت، وباتت تقتصر على مناسبات يردد فيها كلاماً معاداً، وبمرور الوقت، صار أمر اختفاء

إطلالة الزعيم معتاداً، تألف معه المواطنون، كما أن حكام الدول المجاورة ظلوا على يقين من أن ما جرى له، وبلاده لم يكن نتيجة لمغامرات هوجاء ارتكبتها، مع بلدانهم وأنظمتهم فقط، بل مع الدول الكبرى التي أصبحت اللاعب الرئيسي، أخذوا في كل مناسبة يرددون عبارة واحدة: "إن 99% من أوراق اللعبة في يد الدولة الكبرى"، علّقوها على الحائط المواجه لكراسي الحكم، حكمة رئاسية ابتدعوها وصدقوها.

بات السباق محموماً في سبيل الحصول على رضا السفراء القابعين في بلدانهم، قبل أن يتحول هؤلاء القادة أيضاً إلى مجرد ديكور في إطار لعبة ضخمة، تم ترتيبها لدول المنطقة، كان الهدف الأهم هو تفتيت أي موقف يمكن أن يشتم منه رائحة تنسيق إقليمي، ولم يكن ذلك في النهاية وبعد أن أسقط في يد الحكام أمراً يمكن الهروب منه، غير أن ما كان يقلقهم، هو أن يتشابه مصيرهم مع ما حدث للزعيم ووطنه، ومع أنهم كانوا مطمئنين النفس إلى أنه لم يبدر منهم في أي وقت ما يهدد مصالح الدول الكبرى، كما أنه لا يوجد لديهم ما يمنع من القيام بدور الوكلاء، إن هي في الأصل وافقت، إلا أنه على الرغم من المشي وفق الصراط المستقيم، فلم تكن لديهم أي ضمانات للإبقاء عليها، بعيداً عن الزاوية المهملة التي تأوي الزعيم.

راحوا يعرضون إنشاء مستعمرات سكنية، بالغوا في منح امتيازات للعديد من القطاعات، في تخصيص نسبة كبيرة من ميزانية دولهم لشراء أسلحة منتهية الصلاحية، إنفاذاً لصناعة ضخمة كادت تبور، والتعهد باستعمال الأسلحة المشتراة تحت إشراف دولي في قمع شعوبهم، إن هي غضبت يوماً على اتفاقية ما، أو احتجت على تنازل.

عرضوا على كبار صناع القرار عمولات ضخمة من مشاريع وهمية، مقابل تعهد بحماية الكراسي، أن يضمن هؤلاء عدم التفكير في تهديد مكائنتهم، أو تحريض شعوبهم ضدهم.

صفقات هائلة، لو طبقت ستستنزف موارد دول هي في الأساس محدودة، بعد أن وصل الحال إلى حافة الفقر.

أخذ حكام تلك الدول يجتمعون لبلورة الصيغ النهائية، قبل أن يحملوها بأنفسهم وينتقلوا بها في رحلات مكوكية إلى الدولة الكبرى أولاً، ثم يمرون بعدها في زيارات على الدول الأقل درجة، والتي باتت بعد تغييرات هائلة شهدتها العالم في سنواته الأخيرة، مجرد أعضاء في جسد الدولة الأضخم.

حققت الرحلة نجاحاً منقطع النظير، اتفاقيات وقّعت تضمن استمرار الفوائد للكبار، اتفاقيات للحماية، وإقرار بأن استقرار الدول هو من استقرار الأنظمة.

(5)

بعد أن قام بمحاولات عدة لاستدعاء "أم الوطن" عقب اختفائها من حياته، غاضبة من الأوضاع التي أوصل إليها البلاد والنظام، ومن القرارات الأنانية التي غدرت بها بعد الوقوف إلى جواره، هبّ الزعيم مستيقظاً من غفوة كانت قد أخذته للتو، رفع رأسه من فوق المكتب الرئاسي، إذ سمع وقع خطى قادمة، كان الزاوية التي يقع فيها مكتبه بعيدة بمسافة طويلة، حتى أنه كان قادراً من تلك المسافة على سماع ديبب النمل إن اخترق الموانع وتسَلَّل إلى مكتب كان يتحكم منه في البلاد والكائنات السائرة فيه والزاحفة والعائمة والهائمة.

كان وقع الأقدام القادمة لأم الوطن، تلك السيدة التي تعرف كيف تختار الوقت المناسب لرسم ملامح التجهم وتمثيل الابتسامات، هذه المرة هبّ واقفاً بانكسار، لانت حدثاً حين رأت الحال التي وصل إليها، شعر الذقن المسترسل، علامات الإهمال التي أحاطته، وخطوط الأتربة التي تركت بصماتها على كل قطعة من أثاث المكتب الذي كانت له الهيبة.

لم يخطر في بالها أن تصل الأمور إلى تلك الدرجة المزرية، لم تتوقع إتيان اليوم الذي يتحول أبو الوطن إلى كائن هزيل ملقى في ركن مهمل بالقصر الرئاسي، انتفضت فيها علامات الغضب، رقّ قلبها للحال التي وصل إليه، غير أنها وبنفس الدرجة التي تجيد بها إخفاء مشاعرها، في نفس اللحظة التي تستطيع فيها القلب من النقيض إلى النقيض، واصلت رسم علامات التجهم، رفضت الجلوس حين لحت الأتربة المتراكمة فوق أحد الكراسي المخصصة للضيوف، تلك إشارة على أن لا أحد يزور هذا المكان، على أن الزعيم الذي لم يكن يجد وقتاً في السابق لرؤية عائلته، بات يعاني من وحدة قاتلة، حيث لا أحد يسأل عنه، لا صوت يأتي عبر رنين الهاتف، كأن من كان ملء الأسماع والأبصار يوماً، لم يعد هو نفسه، ها هو الآن مجرد شبح يستحق الشفقة، لكن طعنته التي وجهها لها، حين فكّر ثم نفذ الزواج من فتيات أبكار، مثل لها جرحاً غائراً، لم تستطع بمضي الوقت تجاوزه، رغم حصولها على امتيازات ضخمة تسببت فيما بعد في قصم ظهر البلاد.

• أرايت إلى أي درجة وصل الزعيم؟ أرايت الإهانة التي توجه

إليّ؟

- أنت الذي وثقت في هؤلاء، رفعتهم، قربتهم منك، منحتهم صلاحيات واسعة، أطلعتهم على كل الأسرار، جعلتهم يتحكمون

في تفاصيل الأمور في الوطن، وها هم غدروا بك، هذا الذي حدث هو من نتائج اختياراتك.

• ظننتك جئت لمواساتي، ألم تتركيني أنت أيضاً وابتعدت بعد أن ساء الأمر.

- لتكف عن تحميل الأخطاء للغير، لقد كنت على رأس السلطة، كل أمور الوطن في يديك، أضعت كل شيء نتيجة رعونتك، وقراراتك الموهجاء، أضعت ملكك، وأضعت أسرتك، أنا الذي أسألك الآن: ما الفائدة التي عادت عليك من الحماقات التي ارتكبتها ضدي؟ ما الذي جنته يداك من تلك الزيجات؟ أين هن الآن اللواتي فضلتهن علي؟ أين الرجال الذين أنجبت أيها الزعيم؟

• لم يعد هناك من جدوى لطرح تلك الأسئلة، أرجوك، أنا الآن أعيش أوقاتاً صعبة، أحتاج إليك، لا إلى التقرير.

- وما الذي يمكنني فعله الآن بعد أن أحتني، طعنتني بسكين حاد، كيف لي أن أنجح في إيقاف النزيف؟

• وهل ترين أن بإمكانك الآن أن أعيد الزمن إلى الوراء؟ لو استطعت سوف أعلن ندمي الشديد على تلك الفعلة، إنني أدعوك لتسامحني وتغفري لي تلك الأخطاء، أنا أحتاج إليك.

- للأسف، نحن نلعب الآن في الأوقات الضائعة، لا أحد سوف يصغي إلينا مهما قلنا، مهما أعلننا الاعتذار للشعب، لقد فات الوقت، ضاع الملك والسطوة، فمن يستمع لنا؟

• دعك مني أنا، فقد شوّه هؤلاء الأندال صورتي لدى الشعب، لكن أنت "أم الوطن" لا زالت لك مكاتك وسط النساء والفتيات، إنهن نصف عدد السكان، ولهن تأثير على الأبناء والأزواج.

- ربما كان كلامك صحيحاً، لكن المشكلة هي أنك في النهاية تركت شعباً مقعداً، ليست لديه أي رغبة في القيام بفعل إيجابى، ألم تساهم أنت في إيصاله إلى هذا الوضع؟ ألم تكن تريد هذا الشعب طيعاً؟ ألم ترد صياغته وفق ما ترغب؟

• كل ما فكرت فيه كان لصالحه، أردته شعباً عظيماً يسود العالم، قوة مهمة ينظر إليها العالم بإعجاب، لم يخطر في بالي يوماً أن تلك ستكون النهاية، لو شعرت بذلك ما كنت فكرت في هذا الأمر أصلاً، أريدك أن تعرفي حجم الدسائس التي حيكت ضدي، هم الذين سعوا لإحباط المشروع الكبير، هم الذين اتفقوا مع عملاء، ونغروا كالسوس في داخل البناء، ما حدث ضدي كان مؤامرة، وها هم يريدون لي أن أشعر بتلك المهانة، أن أتعاش معها، ولكن هذا لن يحدث، أليس كذلك؟

- إنك تعيش في المهانة فعلاً، انظر إلى مكتبك الرئاسي، لقد كان الشعب، بكل فئاته، علماء، أكاديميون، فنانون، نواب، إعلاميون، قيادات من مختلف المجالات على استعداد في أي وقت للحضور إلى هنا ونيل شرف إزالة التراب من الكرسي، أما اليوم، فحتى الخدم يرفضون الاقتراب منك ومن مكتبك، يتركونك لتقوم بما يجب عليهم أن يقوموا به، لقد تغيرت كل الأمور وعليك أن تدرك أن الزمن لن يعود إلى الوراء.

• بل سيعود، على يديك، أنت صاحبة الخطوة، أنت الأمل الذي أنتظره، الذي أدرك انه آخر خيط أمامي يخرجني من تلك الحالة، لا زالت لك خطوة، لدى عائلات الوطن.

- ليست كما تظن، لا أعتقد أن هناك مصلحة لهم عندي الآن، كي يهيمنوا بي عشقاً، حين كانت السلطة في أيدينا، كنا

النبض في القلوب، كانوا يبحثون عن اللحظة الملائمة ليكون لهم حظوة السماح بلثم أقدامنا، أما الآن، انتهت الدوافع، لم يعد من حقنا أن نتمنى العيش بشكل طبيعي مثلهم، في هدوء، وسكينة... لقد تبدلت الأحوال أيها الزعيم السابق.

• أرجوك، لا تقولي مثل هذه الكلمة القاسية، لا زلت الزعيم، وسأعود مجدداً قوياً، إنما لحظة عابرة وستنتهي، فهكذا الأمم تمر بين وقت وآخر بلحظات انكسارات، لكنها تمسك برموزها، وأنا أدرك أن الشعب يتعلق بي، لكن الأعداء في الخارج، والطاير الخامس هم الذين يريدون الحيلولة بين شعبي الرائع وقائده التاريخي.

- ألم تشبع بعد من هذه الشعارات الخائبة؟ ألم تكفك السنوات الطويلة وأنت تلوكها؟ هذا شعب بارد، ليس لديه النبض الذي يسري في أجساد مواطني الدول الأخرى، هذا وطن أبكم، مشلول، فلماذا تمحي النفس بأوهام؟ لن يفعلوا شيئاً لأجلك ولا لأجل غيرك، لا يملكون سوى الرقص في الشوارع، الهتاف في الميادين، المبايعة والكلمات الجوفاء التي قيلت لك وقيلت لمن كان قبلك، وستقال لمن سيأتي بعدك.

• لا يجب أن ترددي كلاماً كهذا، يجب أن تحسني الظن بهذا الشعب، إنه ينتظر الفرصة الملائمة لينقض على الأعداء، ليعيد تصحيح المسيرة تحت رايتي، أنا على يقين بأن ذلك سيحدث حتى لو تأخر الأمر قليلاً، لكنه سوف يحدث.

- ألا تريد الخروج من تلك الدائرة، ألا تريد أن تنفض عنك أحلام اليقظة؟ أما زلت تتصور أنها هي الحقيقة؟

• دعك من هذا الجدل الآن، دعينا نضع خطة عاجلة للخروج من تلك الحالة.

- وما الذي تريده مني؟

• أن تواصلني اتصالاتك بالمنظمات النسائية، تجدي ثقة الشعب فيك، أن تدفعي كل مواطن للمطالبة بالنظام والحفاظ عليه، تقومي بحضهم على تنظيم مظاهرات عارمة في الشوارع والميادين لتجديد العهد والوفاء للزعيم وقيادته، إن ذلك سوف يكون رسالة مهمة للأعداء كي يرددعوا عن السير قدماً في مخططاتهم الدنيئة، وإشارة للطابور الخامس تحذره من الاستمرار في خيانة الوطن وقائده.

- ومن سيسمح لنا بذلك أيها الزعيم؟ ألا تعرف أن الأرض الآن باتت مزروعة بالجواسيس؟ من يضمن أن لا تكون تلك الغرفة التي نتحدث فيها كذلك؟ من يضمن لك أن لا يكون حديثنا الآن منقول بالصوت والصورة لهم؟ ثم ألم تفعل أنت ذلك مئات المرات؟ ألم تتجسس حتى على أخلص خلصائك؟ فلماذا تفترض أنهم سوف يتركونني أتصل بتلك المنظمات؟ من أعطاك الاعتقاد بأنهم ساذجون إلى هذا الحد؟ أو حتى طيبون إلى درجة تركي أفعل ما أريد، وترك الشعب كي يهبّ عن بكرة أبيه لأجل عيونك وغيوبي؟

• لا، لا، لا يجب أن يصل التشاؤم بك إلى هذا الحد، هناك شعوب كثيرة في العالم تتحرك، على الرغم من كونها تحت أعين قوات الأمن وأجهزة الاستخبارات، إن هذا أمر طبيعي وقاسي في الوقت نفسه، لكن الشعوب حين تريد التحرك وكسر الأغلال، فإن أحداً لا يمكنه وقفها، علينا فقط أن نحاول، ألا نفترض حدوث العقبات قبل التحرك الفعلي.

- ما تقوله من الصعب جداً أن يتحقق في الظروف الحالية، صدقني مهما حاولت فلن تستطيع فعل أي شيء، نحن أمام حالة عجيبة، هذا شعب مشلول عن الحركة، وعن التفكير، ليست لديه

أي أحاسيس بالنخوة، ببساطة هذا ليس شعباً مثل بقية الشعوب، بل في الأصل لم يكن يصلح لأن يكون شعباً، أنت صنعت وهماً، وتريد مني الآن أن أركض وراء سراب، أن أضحي مرة أخرى، على أمل أن تتحول الصخور الجامدة إلى رياح عاصفة.

• لو قال هذا الكلام الذي تقولين أي ناثر في العالم فلن يتغير أي شيء، لو قفت حركة التاريخ عند نفس النقطة التي خلق عليها الكون، يا أم الوطن، عليك أن تتحركي، فأنت الأمل الوحيد لزوجك، وإلا فإن ابتك هي الأخرى سوف يأتي الدور عليها، ستطرد من حكم الولاية، سوف تتبعينها أنت أيضاً، ليس من المستبعد إن استسلمنا أن يتم مصادرة أملاكك، أن يتم تجريديك من مقتنياتك، بل أن تتم محاكمتك، هناك مليون ميرر، مليون اتهام ملفق سوف يتم تكييفه لمحاكمتك ومحاكمة ابتك، إذا لم يكن هناك تحرك عاجل منك، فإن الطوفان قادم... تحركي الآن فإن أصبت نجونا، وإن أخفقت فلن نخسر سوى ما كنا سنخسره لو وقفنا في أماكننا متفرجين.

(6)

على الخط الآخر، كان المارشال قد فرغ نفسه للاستماع إلى نص المحادثة، كانت أجهزة متناهية الدقة تنقلها مباشرة إليه، شعر بامتعاض كبير، ثم بغضب هائل، غير أنه كان منذ بداية عمله، قد درّب نفسه على ضبط الانفعالات، وعدم تمكينها تحت أي ظروف من الخروج إلى العلن.

ترك المحادثة تسير وفق خطها المعتاد، على الرغم من أنه سمع "أم الوطن" تحذر الزعيم من النقاط تفاصيل اللقاء.

وفيما كان المارشال يستشيط غضباً، كان هناك أمران ظلاً يتنازعان "أم الوطن" بعد خروجها من المكب الرئاسي، أولهما الاستياء من الحالة المزرية التي وصل إليها زوجها، والتدهور البالغ السوء في صحته البدنية، بشكل سيؤثر سلباً على تماسكه النفسي، والآخر كانت تلك العبارة التي أوردتها في نهاية اللقاء وأشار فيها إلى أن المصير الذي ينتظرها لو قامت بمحاولة لرفع الحصار عنه، لن يكون أشد وطأة عليها مما قد ينتظرها لو ظلت ساكنة في مكانها، تكفي بالفرجة.

كان ذلك ما يخيفها، إذ كيف يمكن لها أن تأمن جانب هؤلاء الذين استفردوا بزوجها، كيف لها أن تطمئن في الأيام القادمة، على الرغم من أنها تلقت منهم بامتنان، هدايا ومنح من دون علم الزعيم، هي الآن تشعر بمخاوف عارمة، تدرك أن الدور لا بد آت عليها مهما حاولت إبعاد الهواجس عن ذهنها، ثم ما الذي يضمن لها أن يقوموا في الغد بعزل الابنة، أن يصدرُوا قراراً سوف يصادق عليه زوجها رغماً عنه، يقضي بتنحية الصغيرة عن حكم الولاية، وقراراً آخرأ سوف يلغي لقب "أم الوطن" ومزاياه؟

داخلها شعور بالاكتئاب، ندمت كثيراً على قيامها بتلك الزيارة، غير أنها في النهاية كانت ستزوره يوماً، فمن غير المعقول أن تظل إلى هذا الحد بعيدة عنه، في الوقت الذي انتشرت فيه الشائعات، وملأت البلاد طولاً وعرضاً عن أنها هجرت زوجها، تركته وحيداً، وما قد يسببه ذلك، في القضاء على ما لها من حظوة لدى فئات من الشعب، إذ لم يكن مقبولاً أن تترك زوجة شريك حياتها في وقت محنته، وأن تتخلى عنه مثلما فعل الآخرون.

كانت تدرك أن ذلك إن حدث فسوف يعطي ذريعة لمن يتربصون بها سوءاً، واتخاذ قرار بعزلها وإلغاء اللقب وإبعاد الابنة عن الحكم.

هذه الشائعات كانت السبب وراء ذهابها إليه في مكتبه، بعد طول انقطاع، ليس عن منزل الزوجية، ولا عن الالتقاء به في المناسبات، بل إنما لم تفكر أصلاً في معرفة أحواله، والسؤال عن صحته ولو بالهاتف.

عليها أن تتحرك بجدية، أكثر من كل المرات السابقة، أن تنقذ من الأمر ما تستطيعه، وإلا فإن النتيجة ستكون وبالاً في النهاية.

عليها أن تبذل المساعي لإعادة الهبة، للتواصل مع المنظمات النسائية، والشخصيات التي ساهمت في صناعة حضورهن، هؤلاء اللواتي جلبتهن من وظائف عادية، ومهن متوسطة القيمة وأسندت إليهن مناصب كبيرة، انتقتهن بعناية ليكن ذراعها الأيمن وعيناها وأذناها، قامت بتدريبهن، بتسليط الأضواء على كل خطوة سرن فيها، استطاعت خلال شهور قليلة تحويلهن إلى نجومات في سماء الإعلام، وشخصيات قوية ذات أسماء لامعة وصاحبات قرار، أغدقت عليهن وعلى أزواجهن والأبناء، فتحت أمامهن الطرق جميعها ليكن عضوات في حاشيتها، أمسكت عن طريقهن فيما بعد بكافة الخيوط المؤدية إلى كل شيء في الوطن، حتى من دون أن يدرك الزعيم ما يحدث حوالیه منهن، عدلت لأجلهن قوانيناً ما كان يمكن لها أن تعدل في بلد محافظ، فصلت لهن قوانيناً جديدة، فتحت أمامهن المناصب والوظائف، حتى صارت النساء في عهدها، مسموعات الكلمة، قامعات للرجال، وفيما أدركت الأمراض الناتجة عن الحضانة معظم الرجال وأقعدتهم، فإنه كان من النادر أن تصاب النساء، الأمر الذي احتار فيه الأطباء، تكالب المرض والفقر والجهل والسكنية، والنساء المنتقمات، على الأزواج، راحت النسوة خلال المحنة الرجالية، يمارسن إذلال الأزواج الذين تعاملن - في السابق - معهن

بخشونة، قبل أن ترفع "أم الوطن"، أصواتهن إلى الأعالي، فتنخفض
بنفس الدرجة، أصوات الرجال، تنكسر، وتخرّ على الأرض في انهزام.
النسوة اللواتي كنّ يشكلن قوة ضغط هائلة، كان اهتمامهن
الأول منصباً على الخدمات الاجتماعية، وهو المجال الذي فاق سواه
في عصر "أم الوطن"، وفي السعي لتحصيل المزيد من المكاسب
للمرأة، هو ما أدركت أم الوطن أن ما زرعه فيه لن يتمكن غيرها
من إبعاده عن ذاكرة الشعب، كان ذلك رهانها، وإن باتت تشك في
كل رهان يضع صوب عينيه شعباً زئبقياً كهذا، هتاف لكل من
يعتلي مقعد الحكم.

قامت باستدعاء قيادات نسائية إلى القصر الرئاسي، لم يكن
هناك من يعترض، لا المارشال ولا أعضاء جوقته، كانوا لا يزالون
يحبسون لها بعض حساب، سارعت بعض النساء بالاجيء وتخلّفت
آخريات، متعللات بالمرض أو بالسفر أو حتى بالانشغال، ذلك ما
أغضب "أم الوطن" التي لم تكن واحدة من هؤلاء اللواتي صنعتن
بيديها، تجربؤ على اختلاق أي مبرّر كي تتخلف عن تلبية طلبها، حتى
ولو كانت على سرير المرض، غير أن الغضب في النهاية لم يكن له
جدوى، إذ كان عليها التحرك فوراً وعدم إضاعة الوقت في تفاصيل
من الأفضل أن يتم التجاوز عنها.

راحت تتحدث معهن في هومهن، تستفسر عن الأحوال
العامة، تمارس نفس الدور الذي كانت تفعله، قبل أن يؤول الحال
بالزعيم إلى ما وصل إليه.

ردّت على تساؤلات كثيرة، استمعت إلى شائعات، أكدت
لضيفاتها أن الأحوال تسير كالمعتاد، وأن انقطاعها عنهن كان
لظروف صحية لم تشأ أن تبلغ بها أحد، وأنها منذ تلك اللحظة

سوف تستأنف نشاطها وسطهن، ستكون أكثر قرباً في كل المواقع، سوف تواصل معهن العمل من الوطن، الذي يستحق أن الافتداء بأرواحنا والدماء، وأن "نجعل من جماجمنا لعزه سلماً".

عادت الشعارات مجدداً في وقت لم يعد الشعب مهيباً لها، غير أن "أم الوطن" وجوقتها كنّ يرددن ما ظل الزعيم يتغنى به، تلك العبارات التي كان ينتقيها، ويجلس الساعات الطوال مع المؤلفين والملحنين ليضع ملاحظاته عليها، يطلب منهم تعديل ما يراه غير مناسب، ثم يقوم بحفظه وترديده في مناسبة من مناسباته الكثيرة، فيتحول على الفور إلى أناشيد قومية سرعان ما تنضم إلى مجموعة المحفوظات التي تفرض في أناشيد الصباح المدرسية، وطوابير استعراضات الكليات العسكرية وحفلات الأعراس وافتتاحيات حفلات الحدائق الترفيهية.

كانت تلك الخطوة مدخلاً لإعادة الصلة، التي كانت بين أم الوطن وحاشيتها، وهو الأمر الذي ظلت السلطات ترصده، منذ اللحظة التي استمع فيها المارشال إلى ثرثرة دارت بينها والزعيم، اتصل على الفور بسفير الدولة الكبرى، أخبره بما جرى داخل المكتب الرئاسي، أطلق الرجل القوي واحدة من ضحكاته، تلك التي لا يعرف محدثه ما يمكن أن يكون القصد منها، قبل أن ينطق مطمئناً المارشال بأن كل الأمور تحت السيطرة، فمهما فعلت تلك السيدة فلن تغيّر من الأمر شيئاً، دعاه لتركها تتصرف كما تريد، دون منحها الانطباع بانزعاج السلطات، تتحرك بنفس الحرية التي كانت لها في السابق، قبل أن يتم وضع زوجها في إقامته الجبرية، فالزعيم أصبح طائراً سميناً، تساقط الريش عن جلده، وباتت زوجته دليلاً على زمن ينتهي بالتدريج، وإن كانت هناك نسوة لا زلن

يشعرون تجاهها بالامتنان، ويتقربون منها، فإن الأكثرية انفضضت عنها، وفضلن تركها وعائلتها لمواجهة مصيرهم.

أكد السفير أن الأمور تسير في الاتجاه المرسوم، مهما حاول الزعيم أو زوجته تحريك شعب، يمتلك قدراً من البلادة، لو تم توزيعه على سكان الأرض لفاض.

قررت أم الوطن العودة إلى عشنا، باتت تجد وقتاً للحديث مع زوجها، عادت معها الابنة الوحيدة لتنام رغم غمو جسدها في أحضان الوالدة الحنون، كان يتم الذهاب بها كل يوم لشغل منصبها، حيث جهّزت لها غرفة مكدسة بالألعاب الحديثة والدمى الناعمة، بعد أن تظل هناك ساعات دون أن تدري شيئاً عما يحدث، يتم إعادتها مجدداً لترثمي على صدر الأم وتبكي.

كان الحديث يدور بين "والد الشعب وأمه" حول الموضوع الذي بات يشغلها، فيما كانت الثالثة تلجأ للنوم إذ يستعصي عليها فهم ما يقولان، كانت الزوجة في كل يوم تقدم تقريراً يتلقاه الزعيم بارتياح، إذ يدفعه للاطمئنان إلى أن انتصاره الحاسم، سوف يتحقق، وسيتم الردّ الحاسم على من انتهكوا حرمة، سيدّون خائبين على أعقابهم، هم ومن حالفوهم وغدروا بحامي الحمى.

أما أم الوطن فكانت في كل يوم تقابل وجوهاً متزايدة، الأعداد التي كانت تأتي إليها، دفعت في نفسها الأمل، راحت تقترح إقامة مشروعات جديدة لصالح النساء، تستمع إلى النصائح التي تسدي إليها من المقربات حول الأعمال الاجتماعية والخيرية، وتواصل في الوقت نفسه كتمان ما تنويه، بينما كان كل ما يدور بينها والنساء خلال اللقاءات اليومية، أو في اللقاءات العائلية، تبث على الهواء

مباشرة إلى أذن المارشال، الذي كان لديه ولع شخصي بمتابعة ما يدور، على الرغم من سخرية السفير من تلك الاجتماعات، ومما يمكن صدوره عنها.

ومع أن النساء استبشرن خيراً بعودة "أم الوطن" لممارسة أنشطتها وهو الأمر الذي أعطى زخماً للحركات النسوية، وتمّ تغطيته بالشكل المعتاد، إلا أن المارشال كان على نفس الدرجة من القلق، لكنه في المرة الأخيرة حين اتصل بالسفير وأخبره بأن عدد الذين يتوجهون إلى القصر للقاء أم الوطن في ازدياد، تلقى تحذيراً من الإقدام على ارتكاب أية حماقة، سوف لن تسفر إلا عن عواقب وخيمة، فأى معاملة خشنة سوف تنقل عبر وسائل الإعلام العالمية التي بات الوطن مركزاً لها في المنطقة.

قال السفير إن ذلك لو تمّ، سوف يتحول إلى فضيحة كبيرة، لن تكون في صالح بلاده، وربما صبّت لمصلحة الزعيم وزوجته، وهو ما لا يجب أن يحدث.

دعاه إلى ترك الأمور تسير كما هي، ما دمت تمضي بشكل سلمي، طلب منه عدم تضخيم مشاعر الخوف، لا من نساء الوطن ولا حتى من رجاله، بل ولا من الزعيم الذي كانت الدولة الكبرى تتعامل معه على أنه مجرد رجل يهذي في العادة، ويمارس جعجعة التي هي في النهاية من النوع الذي ليس فيه طحنأ، فليمنح الفرصة للتنفيس عن نفسه، فهو في النهاية وحيد منبوذ، غير قادر على استعادة مكانته السابقة.

كرّر السفير مجدداً وعوده للمارشال بأن بلاده سوف تكون وفية لرجالها، الذين يثبتون كل يوم أنهم أهل للثقة، وأنها في كل الأحوال، ومهما كانت الظروف، لن تتخلي عنهم.

وحين داخلت المارشال مشاعر الارتياح، كانت "أم الوطن" قد دخلت من جديد إلى قلوب النساء اللواتي لم يدر منهن، أي تعاطف مع الزعيم، على اعتبار أنه من صنف آخر غير زوجته الخنون ذات القلب الرؤوم، التي تقدم لمن العديد من الخدمات، والتي أعلنت كلمتهن داخل البيوت على أشد الرجال فظاظة، ما دفع بعولتهن إلى إطلاق اسم زوجة الزعيم على ذلك القانون.

(7)

تكاثرت أعداد الجاليات، انتشرت القواعد، وسرعان ما تحوّل الوطن إلى مستعمرات، فمدن سكنية كبيرة، امتدّت في طول البلاد وعرضها، غطّت السيارات الحديثة الطرقات، وازدحمت الأسواق والمستديات يبشر لهم ملامح مختلفة، سرت مخاوف من احتمال أن تكون اللحظة التي سيقتربون فيها من تشكيل غالبية السكان قد باتت غير بعيدة، عندئذ سيكون السكان الأصليون، هؤلاء الذين ولدوا على الأرض، أقلية في بلادهم.

وعلى الرغم من أن الحديث عن هذا التغيّر التدريجي قد بدأ همساً، إلا أنه سرعان ما تزايد بمرور الأيام، فرضت الظاهرة نفسها على هموم الناس واهتماماتهم، كانت الحاشية المحيطة على علم بتفاصيل كثيرة، إذ هي من شارك في الصفقة، في حين ظلّ الزعيم قابعاً في مكانه، غير مدرك لما يجري على بعد خطوات منه، لم يكن له أو حتى لغيره من مواطني ذلك الوطن المنكوب ما يفعله؟ ما دامت القرارات تأتي من بعيد، دون أن يحقّ لأبناء الوطن مجرد الاعتراض.

تحولت البلاد ومن عليها إلى رهينة، بات على الجميع أداء الأدوار المرسومة، أفراد الشعب، وزعيمهم، الفريق الرئاسي، وجيوش

المستشارين والمشرّعون، والطبالون، الزمارون، والراقصون في المناسبات والمهرجون، وطن بأكمله، تحوّل كل من فيه إلى تروس طيعة في آلة أطماع كبيرة، حتى وإن ظلّ الوطن حريضاً على الاحتفال بعيد استقلاله، وحريضاً أكثر على استدعاء الزعيم ليؤدي دوره في "الفيلم الهندي".

ما أن استقر الوطن على هذا الحال حتى كان عليه أن يدفع الفواتير المستحقة، لم يكن كافياً أرقمائه، ولا زرع ورم سكاني فيه، ولا عدم معرفة أبنائه أين تصب موارده وعلى من يتم توزيعها؟ بل بات مطلوباً تعديل النهج الذي صار عليه منذ بداياته، عادات البشر وتقاليدهم، الأطعمة والأشربة، مناهج التعليم وأساليب التعامل، كل ما يدور فيه، أصبح الوطن في مخيلة المسيطرين القادمين غير صالح للعمل، يجب تجميعه ثم رميه في المحيط، وإحلال أساليب حياتهم، قيمهم، أغانيهم، رقصاتهم، أنماط التفكير والعادات والسلوك، ملابسهم وقصات الشعر، مشاريعهم وأصناف الطعام، لتكون بديلاً.

يجب أن يعتمد أبناء الشعب أساليب القوى وطرق معيشتهم، نمط الحياة، ليكون الوطن العزيز مهذباً كما يجب، ومستهلكاً مطيعاً، ونموذجاً قابلاً للتعميم.

وفي الوقت الذي لم يتم فيه التمهيد بشكل جيد، لتعديل نمط العيش، كانت هناك وعلى الخط الموازي، عملية راكضة يشارك فيها المارشال والحاشية، تعنى بتهيئة الأجواء لإجراء انتخابات جديدة سوف يتم فيها اختيار أعضاء للبرلمان، يجب انتقاء مقاعده بعناية، فعن طريقه سوف تمرر الحكومة القادمة قوانيناً مهمة، وعن طريقه أيضاً سوف يتم اختيار من يحكم الوطن، بديلاً للزعيم الملهم الذي تحوّل على الرغم من لقبه الرئاسي إلى مواطن من الدرجة الأخيرة.

كانت المعضلة التي واجهت فريق التخطيط المشترك، هي إصرار مفاوضي الدولة الكبرى، على أن يضم البرلمان القادم أعضاء يمثلون سكان المدن الأحدث، من هؤلاء الوافدين، بعد أن تحولوا بمرور الوقت إلى سكان، وهو ما دفع الفريق الآخر إلى التحفظ، بحجة أن الوقت الذي مرّ على هؤلاء قصير، وأنه من الأفضل - إذا وافقت الدولة الكبرى - أن يتم إدماجهم في المجتمع بالتدريج، قالوا إن لذلك مزايا منها، إتاحة الوقت لهم للتعرف أكثر على طبيعة المجتمع، ومن ثم تحوّلهم إلى جزء أساسي من كيانه، عندئذ يتم ترشّحهم واحتلالهم مقاعد في المجلس التشريعي.

لم ترق هذه المداخلة للفريق الآخر الذي لم يرد إضاعة الوقت، وانتظار مرور السنوات، قبل أن يكون لبلاده موطن قدم في كل المؤسسات، فرما أرادت بلدهم سحب قواتها في أي وقت، وإسناد المسؤولية الكاملة عن حماية الوطن إلى من في داخله، أليس في وجود من يمثلها في كل تلك المؤسسات ضماناً لاستمرار الحصول على المكاسب؟

حين لم يصل الطرفان إلى رؤية مشتركة، عاد المجتمعون إلى السفير الذي ظلّ يتابع ما يجري عبر أجهزة خاصة، تدخل طارحاً حلاً وسطاً، أن لا يتم في الانتخابات الأولى، التي ستجري خلال ستة شهور، ترشيح أي من المستوطنين، على أن يتم اختيار ثلاثة أرباع المرشحين من المخلصين جداً للدولة الكبرى، من الذين قامت بتسمينهم وتمهيد الطريق أمامهم كي يسيطروا الأيدي على الاقتصاد والسياسة والإعلام والاتصالات، ويصبحوا من اللاعبين الأساسيين في الساحة، فهؤلاء الأقدر على حشد المواطنين، ما داموا استطاعوا ربط مصالح ملايين البسطاء بهم، وتغلغلوا في المصالح التجارية

والأندية العامة ومراكز الفنون والآداب والسياحة، وحصلوا جراء ذلك على شعبية عارمة، خلال وقت قصير.

قال السفير إن هؤلاء إن سيطروا على غالبية مقاعد البرلمان فإن في ذلك ضماناً كبيرة لاستمرار العمل بالنهج السياسي المرسوم، على أن يتم في النهاية قبل الترشح وبعد النجاح، تعيين مستشار من المستوطنين لكل واحد من هؤلاء، يكون موجهاً ومرشداً في مختلف الشؤون رقيقاً عليه.. أيضاً.

مثل ذلك حلاً نموذجياً لخلاف وجهات النظر، إذ اعتبر الفريق الممثل للدولة الكبرى، أنه يعني من الناحية العملية أن من سيتم اختيارهم من أبناء الوطن، لشغل ثلاثة أرباع مقاعد السلطة التشريعية، هم بدلاء عن المرشحين الحقيقيين من المستوطنين، الذين حالت الظروف هذه المرة دون الإعلان عن أسمائهم، لكنهم وإن من وراء ستار، سيكونون هم النواب، ومن سيجلس على المقاعد، فمجرد "كومبارس"، في مسخرة تحمل اسم الوطن.

كل ذلك كان يجري في الوقت الذي لا زالت فيه "الأم الحنون"، سائرة على الطريق الذي قررت انتهاجه، ساعية باستماتة لإعادة الملك الضائع، وغير قادرة على استيعاب حجم المتغيرات التي حدثت، والتي أيقن فيها أبناء الشعب أن عهداً جديداً حلّ على البلاد، وأن مظاهره تجلت في أمور استهلاكية، يفرح بها الأهالي وأطفالهم، حتى وإن كانت في النهاية لا تساهم في تنمية الوطن أو بناء أركانه، باتت قضايا الشعب الأساسية تدور حول الهواتف ذات النغمات الراقصة، والحبوب الزرقاء، سوائل الطاقة، وعطورات الماركات العالمية، وملابس الموضة، الوجبات الساخنة والباردة، وأصناف الكحوليات الأحدث، المراقص والملاهي

والحفلات العامة كي يستعرض الشعب فيها مواهبه، ويستعيد عن طريقها أبحاده الغابرة.

كل الأمور تغيّرت، انغمس شباب الوطن فيها، بينما لا زالت الأم في نفس حالتها، تنفق بسخاء على النسوة اللاتي انتهت صلاحية اندماجهن في المجتمع، كن يشبعنها كلاماً معسولاً عن الزمن الجميل الذي يجب إعادته، وعن الخير العميم الذي ساد الديار وزين رقاب العباد في عهد الزعيم الخنون وزوجته المبحلة أم هذا الوطن وقلبه النابض الرؤوم.

كانت الأمور تسير في اتجاه، بينما الزعيم وزوجته وابنته البلهاء في اتجاه مغاير، إذ ظلوا يجتروا أبحاداً، بات الشعب في متندياته يتحدث عن نتائجها المدمرة، بعد أن منح السفير لوسائل الإعلام إشارة بدء الهجوم على الفترة السابقة، والتمهيد لإحلال النظام الجديد.

(8)

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمور تسير في اتجاه إعداد الدولة لمتغيرات شاملة، سوف تجعلها تبدأ من الصفر، كان الزعيم على الجانب الآخر قد عاد لكتابة رسائل يعاتب فيها الشعب، لكنه مثلما كان يفعل في المرات السابقة يعود فيكتب رسالة اعتذار، معتبراً أنه ما دام هو الذي يكتب وهو الذي يقرأ ما يكتب، فإن الشعب بالتبعية يقرأها، أليس هو الوطن، وأبو الشعب؟

بات الزعيم الذي اضطلع قديماً بمهمة التفكير نيابة عن مواطنيه في مأزق حقيقي، وهو يرى التجاهل الذي يحصده، لكن رجوع "أم الوطن" إليه كان قد منحه بعض طمأنينة، إذ بات يعتقد أن عودته إلى

الحكم سوف تتم بإرادة شعبية كاسحة، متجاهلاً في عزّ المأزق، حقيقة أن هذا الشعب لا يندفع لمصلحة ولا لحسابات معقولة، بقدر ما يدفعه الخوف من العصا وأقبية السجون، وهو الأمر الوحيد الذي استطاع هو ومن كانوا قبله من الحكام الملهمين، أن يكرسوه كعادة أصيلة من عادات الشعوب، وأن يدفعوا الحكام الآخرين في المنطقة إلى النظر في تلك الخصال التي تصيب الشعوب بالبلادة، كأمر حسن يجب أن يتم استيراده من الدولة الجارة، صاحبة براءة الاختراع المثلي لتحويل الشعب إلى أرناب منكشنة.

بات الزعيم في أصعب حالاته، إذ تصوّر بالفعل أن الأمر لن يستغرق سوى بضعة أيام، سوف تحمله بعدها الظروف المتغيرة لاستعادة صلاحياته، سيخرج الشعب في مسيرات مليونية يطالبه بالعودة إلى أحضانه، وسيرغم الجبناء الذين أهانوه على الفرار من طريق الغضب الجماهيري الهادر.

كل تلك الأوهام صعدت إلى ذهنه فجأة، في الوقت الذي لم يكن هناك من يتحدث معه إلا أم الوطن، بحكم الرباط الأبدي، لكنه بعد أن عادت عن مقاطعتها له، راح يتصور أن هذه السيدة هي الوطن، وأن الشعب كله برجاله ونسائه، شبيه وشبابه، كل من يدبّ على أرضه، ممثلاً فيها، صارت بالنسبة له تشكل مساحة الوطن الذي لم يعد يملك حرية الحركة فيه إلا في مساحة لا تتجاوز 30 متر طولاً، هي تلك التي تأخذه قدماء فيها من مكتبته الرئاسي إلى غرفة نومه، لا يرى من مواطنيه إلا شريكة سنوات عمره، ولا يتنفس من هوائه، إلا الكمية المسموح له بها والتي تدخل إلى غرفة واحدة متربة يكتب فيها رسائل لا لزوم لها، والأخرى تطارده فيها الكوابيس، التي باتت تنبت مثل أرض الوطن، أشواكاً مدبية.

لم يعد الزعيم يعرف توسطاً في المشاعر، تجتاحه لحظات من الفرح الغامر، والأحزان الجارفة، كان تفكيره اليومي يصب في ما يمكن أن يحدث من أبناء الوطن، وكلما استمع إلى تطمينات من الزوجة، تجتاحه حالة عارمة من السعادة، نوبة من الثقة تدفعه للاعتقاد أن التحول المنتظر قد يحدث بعد وقت قصير، ويقوده الانتظار لتأجيل لحظات النوم، خوفاً من إثيان ثورة الشعب، انتفاضته الكرى، دون أن يكون مستعداً لها، فلا يتمكن من رؤية بشائرها من شرفته الرئاسية، كان يعتقد كمغامر قديم، أن من العيب أن يأتي الشعب لإعادة الاعتبار له، بينما يغط هو في نوم عميق.

لكن حين تنقضي الساعات بلا أمل ويحترق جبروت النعاس عينيه، كان يصحو في اليوم التالي، يشكو من ألم في كل أجزاء جسده، يتصور أن الكوابيس التي مرّت به حقيقية، وأن هناك من راح يهبط بعضاً غليظة على جسده طيلة الليل، حتى أنه لا يترك جزء فيه خالياً من ورم.

كان هو على هذه الحال، فيما كان خياطو القوانين يساقون الليل بالنهار، لإعادة صياغة ما يتناسب مع المرحلة التي ستشرق فيها شمس الوطن على عهد جديد، بات فيه من غير المقبول أن يظل ما كان سارياً أيام الزعيم باقياً على حاله، هذه المرة سوف يعاد صياغة الوطن، ليس على مقاس رجله السابق، ولا الحاكم الذي قبله، ولا حتى من كان أسبق منهما، بل على مقاس احتياجات الدولة الكبرى ورؤيتها المختلفة لما يجب أن تكون عليه الأوطان النائمة، والدور الذي يجب عليها أن تقوم به، ليتم إعادة دمجها في المجتمع الدولي، وتضمن ألا يخرج من الأزقة أصواتاً ناشزة، تطنطن، بكلمات خائبة، من تلك التي كان غير المأسوف عليه، يدغدغ بها مشاعر شعبه.

قوانين للاقتصاد، للسياسة، للسلام العالمي، للتعليم، للمساعدات الإنسانية، للمطالعة الرشيدة، للفن والأدب والغناء، وحتى لإنجاب الأطفال، اتفاقيات جاهزة للتوقيع، قيود على الحركة والبصرة، أحزاب جديدة ذات توجهات ناعمة، حكومات مستأنسة، ومعارضة أشد استثناساً، وتنافس حاد بينهما على إرضاء كل أم للوطن الجديد، وأمّهات معظم الأوطان الشبيهة، القابعة خلف المحيط، وفي المحيط، وداخل الوطن ومعظم الأوطان.

وطن جديد ييزغ، يتم تفصيله بدأب، ووطن لا يزال باقياً في مخيلة مريضة لزعيم مكلّل بالتراب، وبين الوطنين كان المواطنون هم حقول التجارب لتلبية الطلبات، لتوصيلها مثل الوجبات الساخنة إلى المنازل، حتى على الرغم من أن الوطن الذي قسّم إلى أربع شطائر متساوية، وفقاً للعدل والقسطاس، بات مؤهلاً للانقسام إلى وطنين، أحدهما للأبناء الأصليين، والآخر للمستوطنين القادمين، مع اختلاف العادات والسلوك والطباع ونمط الحياة، وهو الأمر الذي لم يكن أي احتمال، لإمكانية نجاح مساعي الاندماج، في ظل وجود حياة رغيدة في شطر، وفقر بطالة وحمول في الشطر الآخر.

في النهاية فإن دولة هي الأكثر قوة في العالم، لم تكن لتقف طويلاً أمام تفاصيل صغيرة كذلك، إذ سرعان ما ستفعل المستحيل وتنجح فيه، ستحوّل هؤلاء الفقراء المعدمين الذين أضاعهم حكامهم، وأزالتهم النزوات المستمرة له تحت شعارات بائدة، إلى الانبهار بنمط الحياة الجديدة، وتمتني سريانها على الشطر الذي يعيشون فيه، سوف يرفعون الأكف بالدعاء لنيل نفس النعمة التي يتمرغ في راحها مستوطنون، باتوا بين غمضة عين وانتباهتها، جزء من سكان الوطن، يعيشون فيه رغم أنف السكان الأصليين، ويتحكمون في مصائرهم.

تسارعت الأمور، فالتغيير الذي تتم قهينة الأجواء له، بدأ بصياغة القوانين، لكنه امتدّ ليشمل المواد الدراسية التي يتلقاها الأطفال الصغار، بات من الضروري وفقاً لمفاهيم يتم السعي لتثبيتها، أن يكون الخارجون من رحم العملية التعليمية، مطابقون لعلامة جودة حددت الكبار مواصفاتها، وإلا فإن الأطفال سوف يتم تصنيفهم على قائمة المارقين... يتم اعتبارهم بذوراً نابتة لمحاور شر!!

وعلى الرغم من أن هناك العديد من المؤشرات التي ظهرت، إلا أنه لا أم الوطن ولا زعيمه انتبها إلى ما يجري حواليهما، حتى النسوة اللواتي كانت تلتقي بمن كل يوم، يتبادلن احتساء الشاي والثروة، لم تتطرق واحدة منهن إلى ما يدور على الساحة، كن في معظم الأوقات يتلقين الهدايا من صاحبة العصمة، بعد أن يدغدغن غرورها بعبارات مخادعة، وبمضين، انتظاراً للقاء الغد.

بدورها كانت تنطلق إلى زوجها تنقل إليه البشارة، كلما التحقت بجلستها عضوة جديدة، كانت تعتبر أن انضمام تلك الطامعة في ذهب المعز، انتصاراً يقرب الطريق الذي بدأته، تلبية لنداء حامي الحمى.

لم تدرك هي حتى تلك اللحظة أن ابنتها البلهاء، سوف تصبح بعد أشهر معدودة خارج السلطة، ولم يرد إلى ذهن الزعيم أن أطفاله الصغار، سوف يتم تنحيته عن قمة الحكم لم يعرفوا أصلاً ما يعنيه، ولا كيف يتم التعاطي مع متطلباته، بل إن الزعيم نفسه لم يعرف أن شطائر الوطن الأربع سوف تندمج في واحدة، على أن تقابلها شطيرة أجنبية، من صنف آخر، وملامح أخرى، تكاد تقاربها في المساحة وعدد القاطنين، لم يعرف بعد أن الوطن الذي أرادته إمبراطورية على قدر حجمه، توسعت فعلاً، صار الوطن كبير المساحة، لكنه فقد سماته.. وصار بلا سعر، ولا قيمة.

لم يكن الزعيم وحده هو الذي بات ورقة ساقطة من أوراق اللعب، ولا كانت "أم الوطن" التي تم تجهيز المرسوم الخاص بعزلها ومعها الحكام الصغار، وإن أرجى الإعلان لوقت ملائم، يعقب إعلان المراسيم الخاصة بانتفاء جدوى التقسيم، وبدء إعادة اللحمة للوطن.

لم تكن العائلة وحدها هي من تم تفصيل قوانين لأجل عزلها، بل كان المارشال التي أدى دوره على أكمل وجه، وباتت هناك ضرورة لتكريمه بالإبعاد، واختيار واحد من المؤهلين لأداء الدور، بما يتماشى مع نهج المرحلة الجديدة.

لم يكن حتى المارشال ولا الحاشية المقربة، التي ستلحق أيضاً بولي نعمتها، يعلمون أنهم سوف يكونون من بين الضحايا، إذ كانت الخدمات التي قدموها قد أعطتهم انطباعاً بأن الخلود مكتوب على جباههم، وأن المهيمنين الجدد، لن يستطيعوا الاستغناء عن خدماتهم بسهولة، ظلوا يمدعون الأنفس بأنهم في كل الأحوال باقون، ولعل هذا ما أعمى بصائرهم عن رؤية ما يحاك على بعد خطوات، وجعلهم ينتظرون صدور قرارات بالترقي، لا الغدر بهم، وبنفس الطريقة التي عادةً ما يتم التخلص بها من أقرب الحلفاء، بعد أن يكون قد أدى المهام المطلوبة، وانتهت صلاحيته عملياً.

ومع أن المارشال كان هو الذي رشح خبراء القانون والمستشارين، إلا أن التعليمات التي تلقوها، دفعتهم للتصوي، لقول ما لم يحدث، لبث الطمأنينة في قلبه دون أن ينطق أي منهم بكلمة واحدة، تعطيه مجرد إشارة على أن شيئاً ما يحاك ضده، من ممثلي الدولة الكبرى، وبأيدي الذين جلبهم لإعانتته.

الجميع هذه المرة سيزاح لصالح الحاشية الجديدة، ذات الولاء لمن ليس ينتمي إلى الوطن، أدوار محددة، بعدها ممارسة نفس الطريقة،

الاستغناء، الإبعاد، الإزاحة، والإبدال، لأجل عيون رجال تمت صياغتهم لمرحلة مغايرة، وبمواصفات ملائمة.

على الرغم من ذلك، لم يلح شيء واضح في الأفق، المارشال يسير في طريقه، يحدوه الأمل في لعب دور رئيسي في الوطن بطبعته الجديدة، يمحي النفس هذه المرة بمنصب عال، يرى أنه بات يستحقه، بعد أن ظلّ عازفاً عن الظهور، لا في أيام الزعيم ولا في الفترة التي تلت حكمه، حين رفض الكثير من المناصب، مفضلاً أن يظل ممسكاً بكافة تفاصيل الحكم، ودقائق تحركات الوطن ومواطنيه، سياساته وقوانينه، مسيراته، وهتافات أبنائه، كل خيوط الوطن كانت موصولة بأصابعه، هذه المرة، بات يسعى أكثر من أي وقت لقطف الثمرة، تلك التي يتصور أنها لن تقل عن منصب حاكم البلاد، أو على أقل تقدير رئيس الحكومة، مكافأة توازي ما ساهم في إيجادها، ما دفع إليه من تحولات كبرى، وما تحمله من شتائم الزعيم صاحب الجناح المهيض.

عليه أن يستعد للحصول على الجائزة، تقديراً للمساعدات الباذخة التي قدمها في إعادة ترتيب البيت، وتأهيل البلاد التي كانت متخمة بالشعارات، للدخول إلى التغيير، لإقامة معسكرات هائلة المساحة للجيوش الصديقة، لاستضافة الأجانب القادمين ثم توطينهم، لتحجيم الزعيم وزوجته والأبناء، لإبعاد جميع أفراد الحاشية القديمة، واستبدالهم بأخرى يدين أفرادها بولاء للدولة الكبرى، أولاً.

فهل بعد خدماتك تلك، يمكن أن يضمن عليه الحلفاء بما يستحقه؟ وهل يوجد في الوطن، من هو أكثر جدارة منه بمنصب شغله في الواقع تبعاته، في أعقاب انهيار الحضارة، وإزاحة الزعيم عن

ممارسة مهام الحكم؟ ألم يكن رجل النظام المنهار آخر من يعلم في هذه البلاد، وكانت الأمور كلها تدار من مكتبه هو؟ ألا يعرف الأسرار التي أحاطت بكل عملية جرت خلال السنوات الأخيرة؟ فهل يمكن بعد هذا أن يمر على باله خاطر، مجرد خاطر، بأن الرئاسة سوف تسند لشخص آخر؟

لاحت الفكرة في ذهنه، دفعت نفسها إليه هكذا، بعد أن ظلّ لسنوات طويلة مجرد ظل، راضٍ بما هو فيه، ما دام السير خلف جدار عالٍ يشكّله الزعيم، يحقق له في النهاية كل ما يريد.

لكن منذ أن أصبح هناك قرار بالتخلص من الرجل الذي تقلبت أحواله بتقلب ظروف الوطن، فإن المارشال راح يجهّز نفسه، ليحل محل صديقه القديم، ما دامت البلاد في النهاية مجرد ضيعة يجب على الأصدقاء تبادلها، وعدم السماح بالتفريط فيها مهما كانت المبررات.

راح يواصل الاجتماعات مع أفراد طاقم القصر الرئاسي، يبحث معهم التطورات الجارية، ويقدم لهم وعوداً بالمن والسلوى، معتبراً أنهم جميعاً يخوضون معركة واحدة، وأن عليهم مساعدته فيها، كي لا يجيء إلى المنصب الذي بذلوا فيه الجهد من لا يصلح، من يعيد فتح الملفات القديمة، ويحاول توجيه السهام المسمومة إلى صدر المارشال وجماعته، كان يسعى بكل ما استطاع للحفاظ على أوضاع يظن أنه قادر على التثبيت بها، يعيد تكرار ذات الأوهام التي كان زعيمه وصديقه الحميم يحشو بها رأسه.

وعلى الرغم من أنه أتى بمؤلاء، وساعده بشكل حاسم على إطاحة الزعيم من الناحية العملية، إلا أن الأمر في النهاية، كان فوق طاقتهم، فوق الحدود التي تجعلهم يكررون اللعبة ذاتها، في مواجهة

أي قوة قادمة سوف تكون هذه المرة على أقل تقدير، مدعومة من الدولة الكبرى، ولديها حظوة عند سفيرها القابع على بعد خطوات من القصر الرئاسي.

جاءت المفاجأة الأولى بعد أيام قليلة، إذ وصل إلى القصر الرئاسي فريق من العاملين، سبق أن طلبت الدولة الكبرى إرسالهم إليها للالتحاق بدورات تدريبية، وصلوا إلى القصر يصحبهم مندوب من السفارة، وعلى الفور اجتمع الأخير على انفراد بالمارشال، طلب منه إصدار قرار بتعيينهم في وظائف حددتها السفارة، كانت ذلك معناه أن يتم الاستغناء عن عدد من أصحاب المناصب، يمثلون الذراع اليميني للمارشال، هذه المرة عليه أن يوافق، لكن من الذي يضمن له أن يصبح هؤلاء خواتم في أصابعه مثل الآخرين، الذين انتقاهم يوماً وقرّبهم منه، فأسدوا إليه خدمات هائلة؟

كان مندوب السفارة واضحاً، إذ أبلغ المارشال عندما رأى علامات التردد في قسمات الوجه، أن الموضوع لا يحتمل الإرجاء، وأن عليه تنفيذ الأمر، ووضع هؤلاء في الوظائف التي تمّ تحديدها، وهو ما لم يجد مفرّاً من البدء فيه، حتى لو كان لزاماً عليه ابتلاع مرارة الحنظل.

منذ تلك الواقعة، كان كل يوم يمر يحمل حدثاً لافتاً في القصر، فسرعان ما أمسك الموظفون الجدد الذين يعرفون تماماً ما يجب عليهم القيام به، وفي سرعة قياسية، أطبق هؤلاء على أمعاء الوطن، سرعان ما منعوا وصول أية أخبار عن المارشال، باتوا يتصرفون في كل الأمور كبيرها وصغيرها، حتى اجتاحه شعور بأن هناك مخططاً لإبعاده عن ممارسة صلاحياته، أدرك أن هناك من صعدوا إلى قمة الموقع،

وباتوا من أهم اللاعبين في الساحة، نظر المارشال حواليه، اكتشف بما يشبه المفاجأة أن ما فعله في صديقه الحميم، يحدث له الآن وبنفس التفاصيل، عليه الآن أن يتجرع من الكأس نفسها التي جرّعها للزعيم، التفت بمنة ويسرة، أدرك عندئذ أنه منذ أن رضخ لمطالب ممثل السفارة، ووقع بيده على قرار إبعاد جوقته، لم يعد في جناحيه ريشة واحدة يمكن أن يطمئن لها.

في تلك اللحظة، أيقن أن الزعامة التي عمل لاقتناصها، بعد سنوات من العيش تحت الأرض، فرّت من بين أصابعه، وأن عليه ليس السعي المحموم لإعادتها، بل لإنقاذ رقبته، إن جاء إلى الحكم واحد من هؤلاء الذين يرفعون الشعارات العريضة عن الطهارة، ومحاربة الفساد، ارتجف لحظة مرور ذلك الخاطر بشدة، انزوى في أحد الأركان وراح يفكر في طريقة للخروج، غير أنه بعد وقت استردّ وعيه، أدرك أن التفكير في أمر كهذا إضاعة للوقت، إذ إن الدولة الكبرى لا يمكن أن تسمح بصعود هذه النوعيات من المسؤولين المزعجين، بعد أن انتهى زمن الحكام الحاليين، أدرك أن هذا الاحتمال ينتظر طرحه، ما دام الذين استبدلوا به ويطاقمه، هم من الذين قامت بتربيتهم وإعدادهم وفق النهج الذي تريد، وهو نهج لن يصب في صالح الحفاظ على ثروات الوطن، ولا رعاية موارده.

الأمر في النهاية هو استبدال مشبوهين بمجتهدين، بآخرين أكثر مهارة في ممارسة الفساد، ورعاية الموهوبين البارعين في خبث الشعوب والسطو على المال العام والسلطة وعلى البلاد بأكملها.

بعد وقت قصير، تقلصت مهام المارشال، انفضّ عنه حواريوه، تناقصت أعداد زواره بشكل لفت انتباه من في القصر،

راحوا هم أيضاً يتجهون بكل همة نحو الأسياذ الجدد، لم يعد
المارشال صاحب الكلمة العليا، وبات عليه قبل القيام بأي خطوة،
أن يتوجه إلى القائم على شؤون القصر لطلب الموافقة، للاستئذان
في الانصراف، لم يعد بعد وقت قصير يمثل أي شيء، لكنه لم يشأ
أن يقدم استقالته، لم يرد أن يدفع هو نفسه للخروج نهائياً من
مكان كان يوماً هو زعيمه الحقيقي، انتظر كي يرى ما سوف
يحدث معه، ما يمكن أن يفعلوه بشأنه، إقالة أم إجبار على التقاعد،
أو حتى محاكمة بأي تهمة من الممكن أن يكون قد تم تجهيزها،
واختيار الوقت المناسب لها.

راح يبدي قبوله بالوضع الجديد، يعرض تقديم خدماته على
الأسياذ الجدد، لم يجد من يعيره أذناً، انتهى زمنه، ومضى الوقت
الذي يمكن إضاعته في الاستماع إلى نصائحه، اختلف الطريق الذي
تمّ تعبيده على أكتافه وحواريه، تجاوزته الأحداث، أصبح هو
وخدماته جزء من الماضي غير المرغوب فيه.

ظلّ المارشال، خائفاً من أي فكرة لمغادرة المكان، قد تجلب
معه احتمالات المحاكمة، وتهم الفساد، قرّر أن يظل في القصر مثلما
فعل الزعيم، ولو بدون صلاحيات، مجرد شبح فوق كرسي داخل
مكتب، خطّ التراب علامات فيه.

لم يجد غير الزعيم، صديقه الحميم السابق ليذهب إليه،
ليجالسه، يئسه همومه، لكن المهيب المعزول في واد آخر، بعد أن
أخذت لمعة العقل تحبو، وراح فتيل الشمعة يقترب من لحظات
الخرف.

بات الزعيم لا يدري من هذه الدنيا شيئاً، سوى الطريق
الواصل ما بين مكتبه وغرفة نومه.

فيما كان المارشال، يدخل إلى المكتب الرئاسي ويخرج، واضعاً نصب عينيه، السيناريو ذاته، الذي سيكون فيه مثل ذلك الرجل المترب الأشعث، التائه عن الدنيا والبشر والعالم.

(9)

ظلّ الرجل الذي كان يوماً ملء السمع والبصر، وحيداً، حزيناً، تقلص معنى الوطن، وانحسرت المساحة المتروكة للشعب، أخذ الوطن يتجرع همومه، وراح الزعيم يعبّ الحسرة، يغيب في نوبات، يقترب غيرها من فقدان العقل، يستلبه النوم، فيبحث في داخله عن أحلام مفرحة، تطارده الأشواك والكوايس، ولا يأتي الفرح.

انزوى المارشال هو الآخر، في مكتبه المترب وحيداً، وانقطع عن الدنيا، نام الشعب أيضاً، استبدل عروقه، ضخت في شرايينه دماء أخرى مخادعة، أصابته بخيبات جديدة، أشد قسوة مما عانى، على يد الثوري المغامر، الرافع لشعارات التغيير والعدالة والحرية والمساواة، نفس الثمار المريرة التي جناها، عاد ليحنيها، وإن كانت هذه المرة من أصناف مختلفة.

ظلّ طعم العلقم، مقيماً في فم الشعب، فيما كان حامي الحمى، المهيب المهاب، المؤمن المزمّن، الهادر، الناهر، النافر، الباتر، يضمحل، لحظة بعد أخرى، قابعاً في مسافة تقلصت فيما بين سريره ومكتبه الرئاسي، لا يشعر بأحد، ولا أحد يفكر فيه، إلى أن جاء اليوم الذي انتشرت فيه رائحة عفنة، زكمت أنوف من ضمهم القصر الرئاسي، فانطلقت ثلة من الخدم تبحث عن مصدرها.

هناك، شاهدوا جثة مكومة يعلوها التراب، تتوسد مكتباً
ضخماً.

لم يجدوا صعوبة في التعرف على صاحبها.

... جسد متهالك، ووجه ممصوص

كان يطلق عليه يوماً:

والد الشعب

... وحامي الحمى

!!!...

انتهى